
يوغسلافيا
رياح التغيير
ومخاوف المستقبل
مدن الصحراء الليبية
أساطير وحقائق



رولكس
الأناقة والتحمل




ROLEX


رولكس

العــدد ٣٦٤ السنة الثانية والثلاثون مــارس ١٩٨٩



مجلــة ثقــافيــة مصــورة
تصدر شهريا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قــارئ للعــربيــة في العــالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 364 Mar . 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنوان المجلة
العربي
ص.ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون [illegible]
برقيا: العربي، الكويت
تلكس [illegible]
المراسلات باسم رئيس التحرير

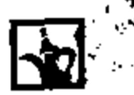
الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات

الاشتراكات: ترسل الطلبات إلى قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارا

ثمن النسخة

الكويت ٢٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٥٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الإمارات ٧ دراهم
الأردن ٥٥٠ فلسا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٨ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٨ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٢٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا جنيه استرليني ونصف
مصر ٧٥ قرشا	سلطنة عُمان ٧٠٠ بيسة	فرنسا ١٥ فرنكا
السودان ٧٥ قرشا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

العربي - العدد ٣٦٤ - مارس ١٩٨٩ م



محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

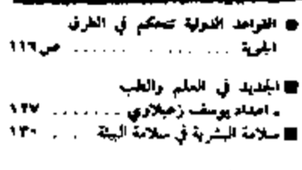
استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :



● مدن الصحراء الليبية .... ص ١٣٢





أدب وفنون :





منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

الكويت .. والقضايا الصعبة !

منذ مطلع هذا العام . اخترنا على أنفسنا أن نتحدث عن المستقبل ، ليس حديث الرجاء وإنما حديث العلم . فالمستقبل يصنع الآن . أو على الأصح توضع خطوطه الرئيسية ، ومستقبل الأمة العربية مرهون بوفاقها وإعلاء ماهو مشترك بين أقطارها في مواجهة التحديات وهي كثيرة . ولعل أهم تحد يواجه هذه الأمة هو موقفها من القضية الأم ، قضية شعبنا وأهلنا في فلسطين الذين مازالوا يناضلون في الداخل والخارج من أجل مكان كريم تحت الشمس يضمهم ويجمع شملهم .

والقضية الأخرى التي مازالت تنال جهداً كبيراً أيضاً ـ وهي قضية لها علاقة بالمستقبل العربي ـ هي القضية اللبنانية . ولقد لعبت الكويت ـ ومازالت ـ الدور الأساسي في البحث عن حلول لهذه المشكلة التي طالت وأرقت الأمة . ونزفت على ساحتها دماء غزيرة . وما اختيار الكويت لرئاسة اللجنة العربية المكلفة بالاتصال بالأطراف المعنية ، ورئاسة الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي إلا توكيد للدور الفاعل للكويت كسياسة . وللرجل كشخصية دبلوماسية محترمة . لها ثقلها عربيا وعالميا ، تسعى جاهدة لتوفير حلول لكثير من قضايانا الصعبة .

وتلعب « العربي » الدور الثقافي المكمل للسياسة السابقة منذ أن صدرت حتى الآن . فتذهب إلى الواحات الليبية في هذا العدد . تستقصي حياة الناس ومعيشتهم . ومن القضايا العالمية الساخنة نكتب عن يوغسلافيا . البلد الصديق للعرب الذي يتعرض لتغيرات جديدة .

أما « مائدة » الثقافة والأدب والعلوم في هذا العدد فهي متنوعة عامرة يقدم لنا فيها الدكتور محمد عمارة موضوعا أزليا معروفا . من زاوية جديدة ، وهو علاقة الرجل بالمرأة أهي علاقة تنافس أم تكامل ؟ ومن رحالة عربي منسي هو أبو حامد ، يكتب لنا الأستاذ فارس المنصوري عن تفصيلات رحلاته واكتشافاته . ويكتب لنا الدكتور محمد موفاكو عن « رحلة الحجر عبر التاريخ » . ويتناول الدكتور سمير رضوان موضوع الساعة الذي يشغل أوساطا كثيرة في العالم . نعني به موضوع البيئة والسموم التي تلقى في الأنهار فتسبب أمراضا وعاهات للناس . ونقدم في « وجها لوجه » حديثاً مع الشاعر العربي نزار قباني . يقول فيه ما لم يقله من قبل .

وفي العدد كثير من الموضوعات الطبية والعلمية والثقافية الأخرى التي تمثل زاداً دسماً مع إطلالة الأيام الأولى من فصل الربيع الذي نرحب به . وفي الأيام التي تليه ـ للأمة العربية تحقيق الكثير من أمانيها . وإلى العدد . ☐

« المحرر »

العربي - العدد ٣٦٤ - مارس ١٩٨٩ م



بقلم الدكتور
محمد الرميحي



ألا يوحي هذا العنوان بالتناقض؟ فكيف يمكن أن نكتب تاريخاً وفي الوقت نفسه يكون هذا التاريخ للمستقبل؟

أليس التاريخ هو الأحداث التي مرت بالإنسان في السابق؟ وأليس المستقبل في علم الغيب لا يعرفه أحد؟ إذن كيف يمكن أن نعرف ماذا سيتمخض عنه المستقبل من حوادث وأحداث؟

ولكن محاولة لقراءة تاريخ المستقبل قد تكون ذات فائدة، إلا أن هذه القراءة تبدو صعبة، بل مستحيلة، ولكنها محاولة، ما يزال الإنسان يدأب أبداً ليكشف كنهها ويسبر أغوارها.

في الماضي القريب كانت قراءة المستقبل، أو التاريخ للمستقبل، من ضروب التخمين ورجم بالغيب ينهي عنه أناس كثيرون، بل كانت صناعة للمنجمين والمخمنين وقراء الطالع والكف، يؤمن بها العامة ويتطير منها الخاصة، ولم يلبث نتيجة اشتداد شغف الإنسان لمعرفة

المستقبل - أن أصبح علماً ، أو كاد ، ثم تحول إلى ضرورة من ضرورات المجتمعات التي تريد أن تنهض وتلحق بالركب .

قراءة المستقبل أصبحت ضرورة من ضرورات التخطيط

فلم تعد قراءة المستقبل موضوعا للتندر ، أو مرحلة تشوق الناس لمعرفة ما تحمله وما تخفيه ، بل أصبحت ضرورة من ضرورات التخطيط ، فأنت إن لم تعرف ما سوف تتطور اليه الحياة الحالية من واقعها المادي والمعنوي قد تفاجؤك هذه التطورات وأنت غير مستعد لها . ولقد فوجئت شعوب كثيرة بتطورات في المستقبل جعلتها تنقلب رأساً على عقب في معاشها ومعيشتها .

وقديما ألبس الناس أثواب الولاية والكرامة ، بل والمعجزات ، لمن كان يخبرهم عن أمور كانت خافية عنهم ، وكان أهل الكرامات هؤلاء مقدرين مبجلين لدى شعوبهم ، يلجأ الناس اليهم إن استعصى عليهم أمر أو تعقدت عندهم ظاهرة .

أما اليوم فقد أصبح للتنبؤ قواعد وقوانين ، فهو لا ينبع من فراغ ، وقد حل المخطط والعالم المجرب والاقتصادي على المنجم وضارب الودع .

والتنبؤ هنا ، أو قراءة المستقبل ، تعني قراءة مستقبل الشعوب وليس الأفراد ، وكما هي الحال في بعض مناطق العالم المتقدم أصبحت قراءة تاريخ المستقبل علماً وعلماء ، وأصبح لها معاهد خاصة تضع التصورات المستقبلية أو الخيارات المختلفة أمام المخططين والمسؤولين والسياسيين فيمضون قدماً في سياسات تؤدي الى نتائج محسوبة ، وقد قمنا في الوطن العربي بنفس المحاولات - على قلتها وعدم دقتها - كي نقرأ المستقبل أو نؤرخ له . وكانت هناك دراسات متفرقة هنا وهناك ، في تقديري أن كثيرا منها لا يقدم أي فائدة ، لأنها في الأساس لا تعتمد على معطيات وحقائق ثابتة أو معروفة .

في الغرب أصبح أشخاص مثل الن توفلر ، صاحب كتاب « صدمة المستقبل وبعده .. الموجة الثالثة » ، ومثل بول أردمان صاحب كتاب « أيام امريكا الأخيرة » ، أصبح مثل هؤلاء الكتاب من أشهر الناس ، لأن كتبهم التي كتبوها عن المستقبل جرى تداولها وقرأها ملايين القراء ، أما ما كتبناه نحن - على قلته - فلم يعرفه أحد خارج دوائر ضيقة .



ولكن السؤال يظل حياً وحيوياً : ماذا عن المستقبل ؟

هناك دراسات متفرقة تحاول أن تستكشف المستقبل العربي ، معظمها وضع له هدف زمني هو سنة ألفين ميلادية ، وهي سنة لا يفصلها عنا سوى عقد من الزمن منذ الآن . وكانت هناك دراسات عن العرب في الثمانينات ، وأخرى تحمل اسقاطات قديمة أيضا عن سنة ألفين خاصة بهذا القطر العربي أو ذاك . بعض هذه الدراسات أو المقالات بجانب جديتها لا تخلو من الطرافة ، ولا تخلو من مفارقات سوف أشرك القارىء معي في النظر إليها من جديد ، ومقارنة ما كتب فيها بما نحن فيه الآن .

أهل الكهف وأهل الصحافة

العبرة الكامنة في قصة أهل الكهف أنهم بعثوا في زمان غير زمانهم ، وقد تغير عليهم كل شيء بعد ذلك ، المأكل والملبس والناس والمعاملات ، وباختصار فهم لم يستطيعوا التكيف مع الزمن الجديد وفضلوا العودة الى كهفهم أو الى موتهم .

ومن ضمن محاولات الصحافة العربية - المبكرة والقليلة لإعادة قصة أهل الكهف من جديد - ما أصدرته مجلة الهلال القاهرية سنة ١٩٥٠ . فقد أصدرت عدداً خاصاً عن سنة ألفين ، كتب فيه مجموعة كبيرة من الكتاب تراوحت كتاباتهم بين الهزل والجد ، ولكن بعض فقرات مما كتبوه تثير خيال القارىء وتجعله يفكر من جديد فيما يعنيه « تاريخ المستقبل ».

من المقالات الملفتة للنظر ما كتبه المرحوم فكري أباظة ، وهو الكاتب والسياسي الساخر ، كان يتخيل أنه يكتب في أول يناير سنة ٢٠٠٠ ، بعد أن حصل على دواء سماه (الخلودبيوم) من صيدلي سويسري صديق ، هذا الاكسير الذي يضيف سنوات طويلة على عمر الإنسان كما تخيل الكاتب يومئذ .

فقد تخيل فكري أباظة قيام ما سماه « الاتحاد المصري العربي » فقال : (إن الاتحاد المصري العربي الذي يضم مصر والسودان وأوغندا وأرتيريا والحبشة وشمال افريقيا والحجاز وسوريا ولبنان وشرق الأردن واليمن والعراق ، يعاني الآن أزمة سياسية ضد الاتحاد السوفيتي ، ولكن بارك الله في العلماء المصريين الذين اخترعوا القنابل الطائرة من غير محرك





ولا قائد ، وانني تصل الى مسافات شاسعة ، ولا يتنظر أن يكون الروس قد وصلوا الى مثل هذه الاكتشافات أو الى ما يفتوها ويقضي عليها).

ويقول : (أتصور مصر زعيمة هذا الكيان العظيم ، الاتحاد المصري العربي ، وقد تأهلت لهذه الزعامة بتضاعف عدد سكانها حتى بلغ ٤٠ مليونا من النفوس !). الآن في التسعينات أصبح عدد سكان مصر خمسين مليونا وأكثر !!

ثم يقول : (نحن الآن في موسم السياحة ، واكتظت الفنادق المنتشرة على طول جبل المقطم بالسياح ، والاقبال شديد على القهوات والكباريهات والمسارح ودور السينما المنتشرة في غابات المقطم الأحمر اليانع).

مصر
تقترض
من بريطانيا
... ولكن
ضمانات
السداد
ضعيفة
غير
موثوق
بها..

أما أطرف ما كتبه المرحوم فكري أباظة في هذا الخصوص فقوله : (أعارض أشد المعارضة في القرض الذي اعتزمت حكومة مصر أن تقرضه لبريطانيا فالمبلغ جسيم ، وحقيقة أن ميزانية الدولة بلغت خمسمائة مليون من الجنيهات ، وبلغ الاحتياطي مئتي مليون ، إلا أن أمام مصر مشروعات خطيرة لتعمير الاقليم الجنوبي حتى خط الاستواء ، فضلا عن أن الضمانات التي عرضتها انجلترا ضمانات ضعيفة غير موثوق بها . .).

وبالمناسبة فإن اجمالي الدخل القومي المصري في موازنة ١٩٨٨ - ١٩٨٩ قد بلغ ما يقرب من ٢٤ مليارا من الجنيهات !!

وصول الإنسان إلى القمر

المرحوم الدكتور محمد عوض محمد كتب سنة ١٩٥٣ عن الأرض كما يراها سنة ٢٠٠٠ ، فقال : (وقد بدأ الناس يتحدثون عن امكان وصول الانسان الى القمر ، وأن هذا الحلم الذي كان وهماً سيغدو حقيقة مؤكدة في عشرات السنين المقبلة).

ويقول في موضع آخر : (وسكان العالم اليوم يتجاوزون ألفين من الملايين وقد يصلون في سنة ٢٠١٣ إلى ضعف هذا العدد).

لقد وصل الإنسان الى القمر عام ١٩٦٩ أي قبل التاريخ الذي حدده الكاتب بعشرات السنين ، وكذلك تجاوز عدد سكان العالم التوقع الذي قال به فوصل إلى خمسة مليارات نسمة ، ونحن ما نزال في عام ١٩٨٩ .. !

ونشرت الهلال لأحد الكتاب الانجليز سنة ١٩٥٠ مقالا بعنوان « العالم بعد نصف قرن » نقتطف منه ما يلي : (وسوف يكون التلفزيون بعد خمسين عاماً شيئاً قديماً وشائعاً شيوع الماء والكهرباء في الوقت الحاضر ، وستكون بعض أجهزته من الصغر بحيث يستطيع المرء أن يحملها معه في نزهاته ، هذا الى أن أكثر الناس سوف يحملون في جيبهم أنابيب صغيرة في حجم السيجار يستعملونها للاتصال التليفوني في بيوتهم او مكاتبهم ..).

ويقول في موضع آخر : (إن أحفادنا سينظرون إلينا نظرة رثاء ، وسوف يندهشون حينما يطالعون الكتب ويقفون على أحوالنا الاجتماعية ، ومن الأشياء التي ستثير دهشتهم أن الفقر كان يخيم على كثير منا ، وأن بعضنا ماتوا جوعا بينما الطبيعة من حولنا حافلة بالخيرات ، وسوف يرثون لحال الآلاف من موتانا متأثرين بأمراض أصبح قهرها ومقاومتها عندهم من أبرز الأشياء ، كما يرثون لحال كثير منا وقفوا مكتوفي الأيدي أمام حماتهم وعاشوا حتى ماتوا بأجساد مشوهة ، وآذان كآذان الحمير .. وعيونهم وأنوفهم تثير سخرية الناظرين !).

أما محمد العشماوي باشا - وزير المعارف المصري آنذاك - فقد افتتح عدد الهلال الخاص لسنة ٢٠٠٠ بمقال عن ثقافتنا سنة ٢٠٠٠ ، توقع فيه أن يدفن آخر رجل أمي في مصر في ذلك العام !

وزير معارف عربي يتوقع دفن آخر رجل أمي في عام ٢٠٠٠ !

هناك حيرة في طرح التوقعات المستقبلية، وحيرة في الإجابة عنها

هذا غيض من فيض من كتابات الهلال في عددها ليناير ١٩٥٠ الذي كان مخصصاً للحديث عن سنة ألفين، أما عددها ليناير ١٩٥٣ فقد خصص جزء منه للحديث عن مصر والعالم بعد ستين سنة.

على الرغم من خيال الكتاب، الجامح في بعض تصوراتهم، فإن الوقائع التي نعرفها الآن قد اختلفت كل الاختلاف، ولقد كان مطلوباً أن يضع بعضهم تصوره حتى نتمكن الآن من الحكم عما إذا كان ذلك التخيل قريباً من الواقع أم بعيداً عنه، لقد حكم التفاؤل ذلك الخيال وجاءت الوقائع مختلفة وقاسية. ولكن المحاولة في ذاتها مطلوبة ومرغوبة، فلولا الخرائط التي رسمها جغرافيو العالم في العصور الوسطى، والتي كانت أبعد ما تكون عن الدقة وملأى بالأخطاء، لولا تلك الخرائط ما تمكن معظم الرواد والمكتشفين بعد ذلك أن يعرفوا العالم الذي عرفناه.

ولو قدر لهؤلاء الكتاب الذين توقعوا سنة ألفين بتصورات وردية ورسموا صوراً مشرقة لمدن وقرى ومواصلات ومستشفيات حديثة، لو قدر لهم الخروج من مثواهم الأخير، كما حدث لأهل الكهف، هل تراهم يدهشون مما يرون، أم يعتقدون فترة من الزمن أن ما تركوه كان أفضل؟

«العربي» وتوقعاتها

ولنا في «العربي» خبرة أخرى جديدة وطريفة لقراءة المستقبل. ففي يناير ١٩٨٠ طرحت العربي أربعة أسئلة عامة على ستة من الكتاب العرب ومعهم واحد أجنبي، وكانت الأسئلة هي: هل تقوم الدولة الفلسطينية في الثمانينيات؟ هل تقوم وحدات عربية ما؟ هل تقوم حرب عربية اسرائيلية جديدة؟ هل تنشب حرب عالمية ثالثة؟

وكان الكتاب السياسيون هم: الدكتور مراد غالب وزير خارجية مصري سابق، وميشيل جوبير وزير خارجية فرنسي سابق، وجورج طعمة استاذ جامعي ومندوب سوريا في الأمم المتحدة سابقاً، وميشيل أبو جودة، ومايكل آدمز، ومنح الصلح.

وقد اتفق الجميع على أن لا حرب عالمية ثالثة في الثمانينيات، واختلفت الاجابات فيما بعد ذلك جزئياً، فقال مراد غالب بوضوح: (أعتقد أن الثمانينيات ستشهد قيام دولة فلسطينية)، وفضل ميشيل

جوبير لن يكون هناك دولتان ، وقال جورج طعمة : (إن هناك جملة مؤشرات تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الثمانينيات ستشهد قيام دولة فلسطينية) وكذلك اعتقد مايكل أدمز . أما منح الصلح فقد أفاض في الموضوع بقوله : (وقد يوافق المجتمع الدولي على مبدأ وجود دولة فلسطينية ، ولكنه سيرفق الموافقة على هذا المبدأ بإصرار على تحقيق ضمانات فلسطينية وعربية دولية «لاسرائيل» مما سيعمل على تأجيل قيام الدولة الى أواخر الثمانينيات ، لأن الضمانات ستكون من النوع الثقيل على العرب ..).

لقد أوشكت الثمانينيات على الانقضاء ، وحتى الآن ـ وعلى الرغم من التفاؤل في أكثر من مكان ـ لم تقم الدولة الفلسطينية على أرض فلسطينية ، ومن الجسارة أن نتحدث عنها في التسعينيات أيضاً ، وهذا مثال آخر على جرأة طرح التوقعات المستقبلية وجرأة الاجابة عنها أيضاً .

الوطن العربي ـ لعقد م

تعتبر الأدبيات التي تتحدث عن المستقبل في الوطن العربي ـ كما قلت ـ أدبيات حديثة وقليلة في الوقت نفسه ، وبعضها يحمل سيناريوهات متعددة ومختلفة . ولعل المحاولة الأهم بهذا الخصوص هي ما نشره مركز دراسات الوحدة العربية ، الذي صدرت عنه في نهاية العام الماضي تلك الدراسة الضخمة التي يجب أن يعنى بها كل مفكر وقائد رأي عربي ، وأن تلخص التلخيص الوافي لمتخذي القرار ، وأن تضع أمام أعيننا الخيارات وتوضح العقبات الكأداء إن نحن تجاهلنا ما يدور حولنا أو تركنا الحبل على الغارب وجعلنا شعارنا « اليوم خمر وغداً أمر »!

وقد سميت الدراسة « مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي » وقد عني به مركز دراسات الوحدة العربية ، ونشر في نهاية العام الماضي تقريره النهائي بعنوان « مستقبل الأمة العربية .. التحديات والخيارات » في سفر ضخم وأتبعه كتابين كبيرين عن محورين من محاور المشروع ، هذا عدا نشره عدداً من الدراسات الفرعية التي استندت إليها دراسة محاور المشروع الذي استغرق ما يقرب من سبع سنوات . وجاءت نتائجه محصلة لدراسات ومناقشات جادة خصبة ساهمت فيها عقول عربية مفكرة في مختلف التخصصات ومن مدارس فكرية متنوعة .





ولأن المستقبل ليس قدراً محدداً مسبقاً ، أو تحدده قوى غير معلومة وغير قابلة للتطويع والتشكيل ، فقد هدف المشروع إلى تحقيق عدد

من الأغراض المباشرة وغير المباشرة هي :

تحديد الاختيارات والمسارات المستقبلية للوطن العربي وذلك « باستطلاع مسارات بديلة لمستقبل الوطن العربي ، انطلاقا من دراسة الواقع العربي بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية ، وبالقدر الذي يخدم إمكانية التوصل الى الوضع المرغوب في أوائل القرن الواحد والعشرين » . وكانت سنة ٢٠١٥ بالتحديد هي المدى الذي اختار فريق البحث التوقف عنده لاعتبارات حاكمة .

سـهـدانـس وحـب رزيـت

والمشروع يسعى الى تبيان أن « الواقع العربي الحالي ، بكل سلبياته ، ليس قدرا مكتوبا لا يمكن الفكاك منه ، وأن هناك بدائل مختلفة للمستقبل العربي ، وهناك خيارات ، وأننا نستطيع أن نحدد مستقبلنا تبعا لارادتنا وقدرتنا ورغبتنا في دفع الثمن المطلوب للمستقبل المرغوب » .

وبالاضافة الى دراسة الواقع تأتي محاولة استخدام أفضل المنهجيات العلمية المتاحة للحصر وللدراسات البديلة للمستقبل العربي « بهدف الوصول الى منهجية عربية للاستشراف ، تساعد ، في توظيفها وتطويرها ، مستقبل دراسات مماثلة » .

واستهدف المشروع أيضا أن يخلف وراءه قاعدة بيانات ، ومعلومات ، ومناهج وأساليب للتنبؤ ، وللتشابكات الشاملة ، يمكن أن يستفاد منها في جميع أغراض التحليل والتقويم المختلفة ، وبناء مشاهد أخرى إضافية . وتساعد هذه القاعدة العلمية في تزويد الباحثين العرب بما كان يصعب عليهم الحصول عليه من قبل ، والى خلق الاهتمام

وتوسيعه بالدراسات المستقبلية بين المفكرين وصانعي القرار في الوطن العربي ، حيث تساعدهم هذه الدراسات ـ والدارسات المناظرة ـ في معالجة الازمات التي تعاني منها أقطارهم في إطار أوسع وأرحب .

لذلك يتوجه فريق البحث بنتائج الدراسة ، بالاضافة الى المواطن العربي العادي أيا كان موقعه ، الى ثلاث قوى يعتقد أنها معنية بالأمر بدرجة أكبر من غيرها ، أولاها « المواطنون العرب » وقواهم المنظمة التي تسعى الى خلق مستقبل أفضل . والثانية « النخبات الحاكمة والقائمون على إدارة المؤسسات الرسمية في الوطن العربي بهدف التبصير والترشيد والعقلانية في ادارة الملك وشئون الرعية » .

وتحقيقاً لهذه الأهداف فقد اختار فريق البحث منهجاً ، حاولوا فيه أن يكون متسما بالشمول ومحاولة الوصول الى تنبؤات مشروطة بعيدة المدى ، والى تصورات متباينة للمشاهد الممكنة والمحتملة للمستقبل العربي خلال الفترة الزمنية للبحث ، بحيث يمكن أن تساعد العقل والوعي العربي في تصوراته لبرامجه المستقبلية ، وعلى الحسم في الخيارات المتاحة أمامه .

ولأن عملية استشراف المستقبل بالنهج الذي سار عليه فريق البحث ليست « اصدار نبوءات » لأن النبوءة تستند الى فكرة سائدة « بأن المستقبل أمر محدد سلفا والمطلوب هو الكشف عنه . وهذا مجاله الاقتناع والممارسات الفردية وليس البحث العلمي الذي يرى مظاهر الحياة متشابكة ومتراكمة » .

وهي ليست « بتخطيط طويل المدى » لأن التخطيط هو تدخل واع للصياغة والتوجيه من قبل إرادة بعينها تملك إمكانات التسيير وخلق الظروف المواتية .

لذلك كان لجوء فريق البحث الى مجموعة تنبؤات مشروطة أو مشاهد مستقبلية (سيناريوهات) تفترض الأكثر توقعا تارة ، والمأمول فيه تارة أخرى ، بحيث يتم تشريح كل جزئيات المجتمع (القطري أو الاقليمي أو العربي) في فترة زمنية قصيرة كمجتمع حالي أو مأمول فيه كخطوة أولى ، ثم التعبير عن هذا النسق الشامل في صورة أنساق فرعية (اقتصادية واجتماعية وسياسية) بظواهرها الحالية والمستقبليات والتفاعلات بين هذه الأنساق الفرعية ، ثم تأتي الخطوة الاخيرة وهي استخدام هذا النسق للوصول الى التداعيات المستقبلية لكل مشهد .

مشاهد مستقبلية بديلة

وقد شملت خطة البحث المكونات التالية :

١ ـ المحاور المضمونية : وتتكون من ثلاثة محاور : المحور الأول المجتمع والدولة ، وهو يبحث في مضمون الكيان الذي يراد الاستشراف بشأنه بمكونيه الاساسيين المجتمع والدولة . والمحور الثاني التنمية العربية ، ويعنى بالدوافع المحركة للمحور الاول ، أما الثالث فيعنى بموقع هذا الكيان ضمن الاطار العالمي ومجموعة العلاقات التي تربطه ، وتغطي هذه المحاور جميع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

٢ ـ النمذجة : وتنطوي على صياغات كمية وكيفية لشبكة التفاعلات بين متغيرات كل محور ، والمحددات الحاكمة في ظل بدائل مختلفة (المشاهد).

٣ ـ صياغة مشاهد بديلة لمستقبل الوطن العربي : وتعتمد هذه الصياغة على مزيج من الاساليب الحدسية التي تسترشد بخبرة الماضي وتجربة الحاضر والآفاق المعروفة للمستقبل عالمياً ، والقدرات العربية الظاهرة أو الكامنة ، والمطالب والآمال التي تتطلع اليها الأقطار العربية ، وما يتصوره المثقفون العرب كبدائل مطروحة أو محتملة ، وأهداف القوى الصديقة أو المعادية للأقطار العربية وقدراتها ، وتمثل حصيلة الصياغة هنا لحظة البدء (أو فتح الستار) بالنسبة لكل مشهد ، أما امتدادات كل مشهد وتفريعاته ، وكذلك المزيد من اختبار أنساقه ، فيتم من خلال المكونين السابقين.

وتم اختيار ثلاثة مشاهد مستقبلية بديلة للوطن العربي انطلاقا من شكل العلاقة فيما بين الأقطار العربية :

الأول : مشهد التجزئة ، ويفترض استمرار الاوضاع الراهنة ، وهو يمثل المشهد الحالي .

الثاني : مشهد التنسيق والتعاون ، وهو يمثل المنهج الاصلاحي ، الذي يقوم على أشكال وسيطة من التنسيق والتعاون بين كل أو معظم أقطار الوطن العربي ، تفوق ـ كما وكيفاً ـ حالات التعاون في المشهد الأول ، بهدف الاستخدام الرشيد والأمثل للموارد العربية المتاحة في إطار للمعطيات السياسية الراهنة .

مسئولية جيلنا في وقف التردي وتجاوز العقبات

ويمكن أن يأخذ هذا التنسيق شكل التجمعات الاقليمية ، أو تنسيق عربي عام وظيفي في بعض المجالات المرتبطة بالامن العربي أو بين أنشطة قطاعية معينة .

الثالث : مشهد الوحدة العربية التي تأخذ شكل الوحدة الاتحادية « الفيدرالية » . وتتضمن توحيد مركز صنع القرار السياسي مع احترام التعدد الاجتماعي والثقافي القائم في الوطن العربي . وتم الربط في هذا المشهد بين الوحدة الاتحادية وبين الديموقراطية والمشاركة الشعبية ، وبينها وبين الاستقلال ورفض التبعية ، وبينها وبين احترام الأصالة الحضارية والثقافية للأمة .

تتوقع تلك الدراسة ثلاثة مسارات رئيسية للوطن العربي في المستقبل : أن يسير كما هو الآن ، أو أن يتوجه الى شكل من أشكال التعاون واضعاً نصب عينه المصلحة العليا المشتركة ، أو أن يذهب في التعاون الى درجة أبعد من درجات الوحدة التي تفضلها الدراسة ، وتعتقد أنها المخرج الوحيد لاجتياز عنق الزجاجة ، والمأزق العربي الحالي . وتتحدث الدراسة عن المخاطر الكثيرة الكامنة في نسيج المجتمع العربي ، أو التي تتشكل الآن به

∞

إن هذه المساهمة العلمية الجادة ـ مع غيرها من مساهمات سابقة ـ يجب أن يعنى بها كل المفكرين وقادة الرأي في وطننا العربي ، كما يجب أن تكون تحت نظر متخذي القرار في أقطارنا العربية حتى يسترشدوا بنتائجها عند إصدارهم قراراتهم .

إن هذه الدراسة ـ وغيرها ـ تؤكد حقيقتين لا أظن أن أحداً يختلف مع تلك الدراسات حولها ، أولاهما أن الوضع العربي القائم هو وضع متردٍ جداً ، لدرجة ربما لم يسبق لها مثيل منذ أن حصلت الدولة القطرية على استقلالها ، وثانيهما أن هناك إمكانيات واقعية لتغير هذا الوضع إلى ما هو أفضل ، قبل أن يتحول إلى ما هو أسوأ .

إن مسئولية جيلنا في حدها الأدنى هي وقف هذا التردي ، ومسئولية جيلنا في حدها المتوسط هي أن تتجاوز هذه العقبات . إن الامكانيات وكذلك الاحتمالات غير محدودة ، وعلينا فقط أن نقرأ تاريخ المستقبل قراءة واعية . □

محمد الرميحي





في البدء كان الكتاب

بقلم: عبد العزيز حسين

كم منا من تتاح له الفرصة، وهو في مطلع شبابه، أن يمد بصره إلى المستقبل، ويرى طريقه فيه، سواء كان طريقا سهلا ممهدا، أم طريقا وعرا تنتظره فيه العقبات والصعوبات، ولكنه على الحالين مدرك خطواته التالية، عاقد العزم على السير قدما خلالها، ينجح أو يفشل، ومنا من تتحكم في مسيرة حياته ظروف لا شأن له بها، فإذا به يجد نفسه حيث لم يتوقع، فيتصالح راضيا أو كارها لتيارات لا يقدر على صدها، وينعطف مع الأحداث الطارئة، لكي يبدأ طريقا من أوله، وعلى حين غرة يجد نفسه في موقع جديد، يحتاج منه إلى تخطيط جديد، وعزم جديد، ورؤية مستقبلية جديدة.

وعندما أسترجع اليوم مسيرتي منذ الصغر، فإنني لا أجد عاملا مشتركا في كل مراحل الحياة التي مررت بها، إلا عاملا واحدا، هو الرغبة في التعلم، وازدياد المعرفة، سواء من فوق مقاعد الدراسة، أو من خلال الكلمة المكتوبة، أو من الملاحظة والتأمل، أو احتكاك الآراء، وربما كان الكتاب أهم مؤثر في تشكيل حياتي، فقد نشأت قريبا من كتب الدين واللغة والأدب التي يعتز بها ويرعاها والدي، وينظر إليها كل من في البيت نظرة إجلال واحترام، وكان لي حظ المشاركة في ترتيبها وصيانتها، كما كان لي حظ مطالعة العديد منها، ولا زلت أحتفظ بكراسات دونت فيها مختارات من الشعر والنثر راقت لي، وكنت بعد ذلك في المرحلة الابتدائية من الدراسة. كما لا زلت أذكر استضافتنا لشاعر من الأحساء، قدم لنا ديوانه مخطوطا، فطلب مني والدي أن أنسخه، وأثناء قيامي بهذه المهمة راجعت الشاعر في بيت قلت له: إنه مكسور، لا يستقيم مع تفاعيل القصيدة، وكانت ملاحظتي هذه أمام عدد من الحضور، فنهرني بشدة قائلا: كيف تعرف أيها الولد البيت المكسور من سويه، اكتب ما هو أمامك. فرجعت خجلا حسيرا، وعندما انتهيت من نسخ الديوان، وقدمته إليه، استدعاني بعد أيام أمام نفس الحضور، واعتذر

إليّ قائلا : إن البيت مكسور فعلا بسقوط إحدى الكلمات ، وأثنى على حسي الشعري ، مما أغراني بعد ذلك بمحاولة نظم الشعر ، ولكنني لم أرض قط عما نظمت ، فأتلفته ، واكتفيت بتذوق الشعر دون نظمه ، ولا زلت .

إلى جانب الكتاتيب المنتشرة في الكويت خلال الثلاثينيات كانت هناك مدرستان تحاولان تقديم مناهج دراسية حديثة لطلابهما ، هما مدرستا المباركية والأحمدية ، وكنت في المباركية عندما فوجئنا بالمدرسة تقسم الطلاب إلى فئتين ، وتختار المتميزين منهم - وكنت في رأيها أحدهم - فتنقلهم إلى الأحمدية ، وتعلنها مدرسة ثانوية من ثلاثة فصول ، وعندما وصلت إلى الفصل الأخير ، بعد سنوات ثلاث ، وتخرجت فيها لم يكن هناك مجال للدراسة في فصل أعلى ، فأعدت السنة فيه مع عدد من الطلاب ، فطلبت منا إدارة المدرسة أن نساعد المدرسين في تعليم الطلاب المستجدين ، مما أعان على إمداد الملل عنا ونحن نعيد ما سبق أن درسناه . وقد أدرك ناظر المدرسة المربي الكبير عبدالملك الصالح حرج الوضع ، فخصنا بدروس خارج الدوام المدرسي ، كما أنني كنت أتلقى دروسا خاصة على المصلح الشيخ يوسف بن عيسى ، مرتين في الاسبوع بعد الظهر - وربما كان ذلك من أسباب اختياري ضمن أول بعثة إلى دراسة جامعية بمصر ، وكان ذلك انعطافا في حياتي ، ما كان وارداً أبداً في تفكيري ، وتحولا ما كان في البال .

وأطوي صفحات سنوات مليئة بالذكريات والأحداث ، قضيتها بمصر طوال الحرب العالمية الثانية ، ثم عملي بالمكتب الثقافي بمصر الذي سميناه بيت الكويت ، والذي ترك بصماته العميقة على تاريخ التعليم والثقافة . وأجد نفسي وأنا على وشك إنهاء دراستي بمعهد التربية العالي بجامعة لندن ، أمام برقية تستدعيني للعودة فورا إلى الكويت ، لتولي إدارة المعارف (وزارة التربية الآن) . كان ذلك عام ١٩٥٢ ، وقد بدأت الكويت مرحلة ما بعد النفط ، بكل ما فيها من شئون وشجون . كان ذلك انعطافا جديدا غير متوقع .

فوجئت في أول يوم أبدأ فيه عملي الجديد ، أن كل من يعمل في المعارف وكل من يهتم بالتربية والتعليم ، قد تضافر على جمع كل شئون المعارف ومشكلاتها ومتطلباتها ووضعها في رزمة هائلة الحجم أمامي .

كان للمعارف رئيس تقدمي النزعة ، واسع الصدر ، مؤمن بالتعليم ودوره في تطوير المجتمع ، هو الشيخ عبدالله الجابر ، وكان يشرف على شئونها مجلس مكون من اثني عشر عضوا منتخبا من بين وجهاء الكويت . فقد كان النظام يسير على أساس قيام مجلس منتخب ، وأحيانا معين ، على كل إدارة - وهي تسمية الوزارات إذ ذاك - وكان انتخاب هؤلاء يتم من خلال قائمة محددة ، يعتمدها أمير البلاد ، لا يتجاوز أعضاؤها المئتين ، يدعون لكي ينتخبوا من بينهم مجلسا لكل إدارة . وإذا قام ما يدعو لحل هذا المجلس أو ذاك ، ولجأ الأمير للتعيين ، فإنه قلما يخرج عن هذه الفئة من المواطنين . وسواء انتخبوا أو عينوا فإنهم لا يتقاضون بدلا ماديا عن مناصبهم ، وبعضها يستهلك الكثير من وقتهم ، فمجلس المعارف مثلا يجتمع مرة كل أسبوع على الأقل ، ويشارك بعض أعضائه في عديد من اللجان المالية والإنشائية والإدارية ، ويتحملون أمام المجتمع مسئولية أعمالهم . هؤلاء صنف من المواطنين انقرض - للأسف الشديد - اليوم .

كانت استجابة المجلس للأفكار الجديدة والرؤى الحديثة للتعليم ايجابية إلى مدى بعيد ، وكان الحوار هو السبيل للوصول إلى القرار ، وقد حددت للمجلس عدم تدخله في الشئون الفنية للتربية ، واعتبارها من اختصاص المربين المؤهلين لهذا العمل .

كان أمامنا أهداف يجب أن تتحقق من خلال

خطوات سريعة وحاسمة ، كان لابد من إعادة النظر في المناهج ، فاستدعيَ الخبراء للنظر فيها ، وكان أمامنا وضع « كوادر » جديدة للمعلمين ، وتهيئة الكتاب المدرسي المناسب ، وإنشاء العشرات من المدارس في كل أنحاء البلاد ، فتم ذلك في كثير من اليسر . ولكن كان الأهم من ذلك أن إدارة المعارف أصبحت بؤرة التحرك التطويري في كل الاتجاهات . لقد كان منتظرا ومفهوما أن يعمل المسئولون عن التعليم على الاهتمام بتعليم الفتاة، وعلى إنشاء رياض الأطفال ، وعلى البدء بمشروع التغذية الصحية لجميع طلاب وطالبات المدارس ، وعلى توحيد الملابس ، وتشجيع التذوق الفني ، والتوسع في البعثات من الجنسين ، وغير ذلك ، مما قفز بالتربية والتعليم إلى مكان الصدارة في المجتمع . ولكن الجديد أن هذه الإدارة ـ وقد شعرت أن التزاماتها الاجتماعية ترتبط بالتطور التكاملي في البلاد ـ أنشأت إدارة للشئون الاجتماعية ، هي البذرة التي أنبتت وزارة الشئون الاجتماعية ، وأسست إدارة للزراعة ، تعنى بحدائق المدارس ، وهي البداية التي أصبحت الآن هيئة الزراعة . وكان ضمن تلك الإدارة قسم لتربية الدواجن ، باعتباره من وسائل إيضاح العلوم . ووضعت خطة للنشاط الثقافي العام ، تتضمن موسما ثقافيا ، يدعى للمحاضرة فيه كبار رجال العلم والتربية والفكر في الوطن العربي ، ولا زالت مجلدات هذه المواسم تحتل موضعا كريما في المكتبة العربية ، ودعت إلى مؤتمرات ، لعل أبرزها مؤتمر الأدباء الذي ناقش البطولة في الأدب العربي ، وحضره الأدباء البارزون من شتى الأقطار العربية . كان مجلس المعارف متقبلا لأي نشاط يرى فيه عائدا على المجتمع . كما كان المجتمع يستقبل بالرضا كل ما تقوم به هذه الإدارة من نشاط ، وإن لم يكن من صميم اختصاصها أو من مسئولياتها .

لقد كانت الأعوام من ١٩٥٢ إلى ١٩٦١ أعوام التغيرات الجذرية في الكويت ، وهي في الوقت نفسه الأعوام التأسيسية الممهدة لعهد الاستقلال الذي أعلن صيف ١٩٦١ .

كنت ذلك الصيف في القاهرة ، أتفق مع الحكومة المصرية على البعثة التعليمية للعام الدراسي الجديد ، وأتعاقد مع معلمين جدد لذلك العام ، وكان ذلك ضمن جولة لهذا الغرض تشمل الأردن وسوريا ولبنان ، عندما وجدت نفسي منشغلا بما أثاره قاسم العراق من أزمة مفتعلة مع الكويت ، لم تمنعني من السفر إلى جنيف لحضور اجتماعات مكتب التربية الدولي . وهناك تلقيت رسالة عاجلة من الأمير المرحوم الشيخ عبد الله السالم ، للتوجه إلى نيويورك ، لتمثيل الكويت في اجتماعات مجلس الأمن . . . ألم نقل إن النظرة إلى إدارة المعارف إذ ذاك تتجاوز اختصاصاتها في التربية والتعليم ! ؟

هذا انعطاف جديد وحاد في حياتي ، فمنذ تلك الرسالة أصبحت المعارف ذكرى لا تنسى ، وتاريخا لا ينضب معينه . العمل في التعليم هو العمل الوحيد الذي يلوّن حياة المرء ، ويبقى معه طول حياته . ومهما انغمس الإنسان في عمل جاد آخر ، أو تحمل من مسئوليات في ميدان مختلف ، فإن عمله في مجال التعليم يبقى لصيق وجدانه وموطن ذكرياته . وكما يذكر الإنسان رفاق الدراسة مهما طال الزمن ، فإنني لا أنسى رفاق العمل في التربية على اختلاف مواقعهم ، فبفضلهم تحقق الكثير ، وتحقق بصمت وإنكار ذات كبيرين .

هل يقدر الإنسان أن يخطط لحياته كما يريد ، أم أن الأحداث هي التي تفرض إرادتها عليه ، فتوجهه إلى حيث لم يحسب ؟ لقد فرضت الأحداث على مسيرتي أن أسلك منعطفا جديدا ، لم يكن في تقديري . وما بقي من الثوابت إلا ما أشرت إليه في صدر حديثي : الكلمة المكتوبة والملاحظة والتأمل واحتكاك الآراء . □

أبو جهاد

إلى روح شهيد الثورة الفلسطينية

شعر: فاروق شوشة

كانَ يرقُّ صمرةً على مسامعِ الخطرْ
تكتسي الحجارةُ الصماءُ سحنةَ البشرْ
وتنبري الحياةُ في سنبلةٍ على الهشيم تحتضرْ
كانَ يرقّ صمره .
كي لا تُجيبَ السماءُ وحدَها مع المطرْ
فالكرمةُ التي جفَّتْ ضروعُها تئزّ
والعودُ السحيقُ يابسٌ
والبحرُ ميتٌ ولا سفونٌ
حتى الصغائر الصغيرة المجدولة الخيوط
تلتف من حول الرقاب حبل مشنقة
تشدها فراخ أخطبوط
بلمس عاتيَ القلم
فترحل الدموع في سحابة الوجه المشرقْ
كان يخوض في الردى مسابقا خطفت قلبه
توقا لحلم منتظر
عاليا كالنسر .
متغذيا على مشارف القمم
عيناه تسبحان في توهج السنين
الكرمل البعيد قبلته
والقدس في قرار قلبه الحزين
والحرف فنه ولعبه
وعشقه الوحيد أن يجاوز التخوم والمدى ويلتحم
وكلما ترفقت به الخطا
أبى .
وهز رأسه العنيد ، وابتسم
كان يرق صمره لا يعرف الخطر

لكنه يدري مسار خطوه لأين
ولا يبوح بالذي يخبيء القدر !

* * *

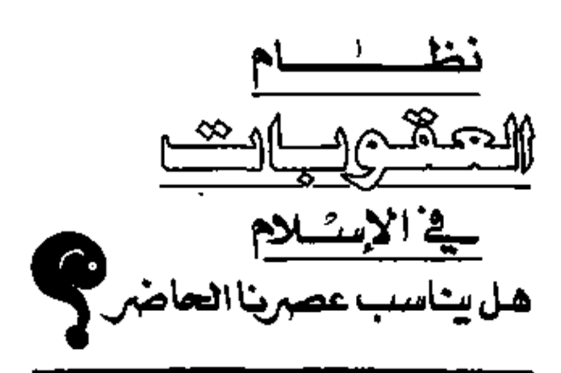
يا كم ترى جاوزت حينا إمّته
حتى أتى اليوم الذي لا تنفع المجازفة
انطرح الوجهُ الوضيء في غمامة الألم
مضرجا في لحظة الصدام ، والمكاشفة
متسكبا على جلوع التين والزيتون
ومتوغلا في شجر الخليل والجليل
وراسما بصمتك الذي يسيل
وجهك الذي استحال غيمة ونجمة
خارطة للوطن المضيع البعيد
والصمت في جلوة الشهاب والظلم
عينان طفلتان فاجئتا معك
أطل نبيها .
هيا صغيرا لحلم أن تراك يوم عرسها
أبا ، مؤانسا ، وشُكُا
ومتلهيا ، وليلكا
وفارسا يضيء برقة ستائكا
وساحة حقية ،
وراية ، وسارية
تحملها ، مبهورة الفؤاد ، تعبر الممالكا
تجوب فوق صدرك المثقوب ، عالم الرؤى الوثير
مزهوا بحلمها الأثير



- كل فتاة بأبيها معجبة -
كانت هناك - في انتظار يوم قادم تراك
يا أوجهها المطل في السنين
حين انجلت صحيفةُ المكاشفة
توقف العمر بنا في لحظة مدببة
إلى قلوبنا مصوبة
إلى المخادع التي يأوي إليها الحالمون
الواهمون بالأمان والسلام
حتى يفيقوا ذات يوم
على دوي العاصفة !

* * *

نحن - كلنا أبناء طيفك النبيل -
عصراً لأبناء الأفاعي الوالغين في حوضنا
السارقين من ثيابنا
ومن جلودنا
الآكلين ملحنا وخبزنا
الشاربين من مياه نيلنا
نلعنه . ونلمح البشارة
بأن عصر « قادم »
للغضب الذي انفجر
ومنه بداية الشرارة
الهيكل الذي أقيم من جماجم البشر
يهتز تحت قبضة الصغار . حين يصحون
ويثأرون من دماء ذكرياتهم
إرادة القدر . . !



بقلم : الدكتور أحمد شوقي الفنجري

ترتفع منذ عدة سنوات أصوات عالية في أنحاء العالم الإسلامي، مطالبة بالتطبيق الفوري للشريعة الإسلامية بجانبها العقابي.

السؤال : هل توافرت في مجتمعاتنا القائمة شروط تطبيق الحدود؟ وما هذه الشروط؟

أصدرت منظمة العفو الدولية نداء إلى الدول الإسلامية التي طبقت نظام العقوبات الإسلامية في بلادها تشجب فيه هذا النظام وتطالب بإيقافه، كما طالبت أطباء تلك البلاد بالامتناع عن المشاركة في عمليات بتر الأيدي أو الأرجل، لأن ذلك مخالف للقسم الطبي الذي يقسمونه. وإلى جانب ذلك فهناك كثير من المفكرين في أوربا، وأيضا هناك مفكرون في العالم الإسلامي، يرون أن نظام العقوبات في الإسلام بالغ القسوة والشدة، وأنه غير عملي لعصرنا الحاضر. ويقول هؤلاء: إن العالم المتحضر يتجه اليوم إلى إلغاء أي نوع من العقوبات البدنية، بل هناك دول تمنع حق الضرب في السجون، وأن العلم الحديث ينظر إلى اللص على أنه أحد شخصين: الأول محتاج واضطرته الحاجة إلى السرقة، وهذا النوع في الواقع ضحية إهمال المجتمع، وعلاجه أن يتعلم حرفة أو صنعة في مدة سجنه تعينه بعد قضاء عقوبته.

والثاني منحرف لأسباب نفسية ومرضية أهمها تعاطي المسكر والمخدرات، وهذا يحتاج إلى التوعية والعلاج النفسي والطبي.

وبهذا يمكن أن يتحول اللص إلى مواطن صالح وتغتفر له أخطاؤه. أما إذا قطعنا يده فإن في ذلك القضاء التام على كل أمل له في الصلاح والحياة الشريفة.

ميزان حساس

ويهمنا هنا أن نناقش هذه الآراء بمنطق هادىء ! وبالحجة العلمية والعملية .

الواقع أن أصحاب هذا الاعتراض معهم كل العذر ، لأنهم ينظرون إلى هذا التطبيق السيء للشين اللذي تنفذ به بعض الدول الإسلامية حدود الله . فبعض الحكام كان يستغل الدين لأغراضه السياسية ولكسب أصوات بعض الأحزاب . وليس إرضاء لوجه الله تعالى . فأصدر بين يوم وليلة قوانين غير مدروسة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأخذ يصدر احكاما بالرجم والجلد وقطع الأيدي والأرجل على فقراء الأمة والمستضعفين الذين تضطرهم الحاجة إلى الانحراف . وما أن انتهت فترة حكمه حتى كان عدد المعوقين في الأمة عدة مئات . وهذا قطعا ضد الإسلام ولا يرضى به الله ورسوله .

ما التطبيق السليم ؟

لكي نفهم روح الإسلام وحكمته في الحدود . فلابد أن نعلم شروط الحد . فالحدود هي آخر ما يطبق من نظام الحكم في الإسلام ، ولا يجوز البداية بها . فلابد من إقامة مجتمع إسلامي مثالي أولا ، بحيث يكون متكاملا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما أن نطبّق الحدود ونهمل كل ما سوى ذلك من أركان الإسلام ونظامه ، فمعناه هدم للإسلام وإساءة بالغة إليه ، وفشل وخزي في الدنيا والآخرة ، وذلك مصداق لقوله تعالى : « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ » (البقرة ٨٥) . والحكمة في ذلك أن نظام الحكم في الإسلام أشبه بالميزان الدقيق الحساس ، ففي إحدى كفتيه توضع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها كل فرد في الرعية ، وفي الكفة الأخرى توضع الواجبات والحدود التي تنطبق على أي فرد منهم . وبقدر ما نجد الإسلام شديد السخاء فيما يعطيه من حقوق وامتيازات لأبنائه ، فهو بالتالي يطلب منهم أعظم التضحيات وأقصى الجهد ، ويوقع على المذنب منهم أشد العقاب . ومن قوانين الطبيعة والعلم أنه لا يمكن أبدا لأي ميزان أن يعمل بكفة واحدة . وإلا اختل وتحطم .

فلا يمكن أن تسقط جانب الحقوق والامتيازات ، ثم تطالب الناس بالجهاد ، أو تطبق على المنحرف حدود الشريعة ، فهذا بلا شك فيه ظلم وإجحاف . ومن هنا نجد أن الإسلام يرفض بكل شدة أن يطبق منه جزء ويترك جزء آخر ، ويعد من يفعل ذلك بالويل والعذاب .

قبل تطبيق العقوبات

وقد وضع الإسلام شروطا لإقامة المجتمع الإسلامي تسبق تطبيق العقوبات وهذه الشروط هي : أولاً : أن يطبق ركن الشورى :

فلا يجوز للحاكم أن ينفذ النظام الذي يحاسب الناس ويسقط أو يهمل النظام الذي



يحاسبه شخصيا إذا أهمل في إيصال الحقوق إلى الرعية. فالحكم السليم هو الصمام الأول ضد كل أنواع الجرائم والانحرافات. ويحضرنا هنا قول عمر بن الخطاب حين جمع الولاة وسأل أحدهم: «ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟». فقال الوالي: «أقطع يده». فرد عمر قائلا: «إذن فاعلم أنه إذا جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك يا هذا!.. إن الله تعالى قد كرمنا بهذه الأيدي لتعمل فإذا لم تجد لها في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا. فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية». ثم وجه الخطاب إلى سائر الولاة قائلا.

«إن الله استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم. فإن أعطيناهم هذه النعمة تقاضيناهم شاكرين!»

وهذا هو المفهوم الصحيح الحق لشريعة الله وحدوده

ثانيا: الشرط الثاني: هو إصلاح الاقتصاد:

ويدخل في ذلك رفع مستوى الدخل وإيجاد عمل لكل فرد في الرعية، بحيث يصل بالمجتمع إلى حد الكفاية، أو ما يطلق الفقهاء (حد الغنى)، ومعناه أن يكون لكل فرد مسكن يحميه من البرد والمطر وحر الشمس والحر. وأن تكون له الكفاية في مأكله وملبسه وعلاجه. فلا يضطر أحد إلى السرقة بسبب الفقر والجوع، ولا يضطر شاب إلى الزنا بسبب عدم مقدرته على الزواج، ولا تضطر امرأة إلى الانحراف لكي تعول نفسها وأسرتها.

وفي عام الرمادة أوقف عمر الحدود، لأن أحد الشروط الرئيسية لم يكن متوافرا - وهو حد الكفاية - بسبب ظهور المجاعة. والعالم الإسلامي اليوم يمر بما يشبه عام الرمادة. ولكنها مجاعة لم تنجم عن القحط وقلة الموارد، بل بسبب سوء الإدارة والنهب والانحراف في أجهزة الحكم. وبسبب سوء توزيع الثروة والدخل وإهمال المشروعات النافعة للأمة

ثالثا: الشرط الثالث هو:

إقامة المجتمع الإسلامي النظيف المثالي الخالي من كل مسببات الانحراف كالخمور والمخدرات وبؤر الفساد والفتنة والإثارة الجنسية، بحيث لا يضطر أحد إلى السكر أو المخدرات لأنه لن يجدها في المجتمع كله. ولن يجد من يتاجر في هذه السموم أو يهربه أو يبيعها. التربية الدينية منذ الصغر فهي التي تعصم الشباب من الزلل:

شغل أوقات الفراغ بالجهاد في سبيل الله عن طريق عمل الخير وخدمة المجتمع إلى جانب التربية الرياضية والفنية

استثناء من القاعدة

خلاصة القول أن نظام العقوبات في الإسلام لا يجوز تطبيقه إلا في مجتمع إسلامي مثالي متكامل. وهذا هو ما فعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد أمضى ثلاثة وعشرين عاما يبني المجتمع الإسلامي السليم. ثم لم يبدأ في تطبيق العقوبات إلا في أواخر دعوته وحكمه وبعد أن اكتمل هذا المجتمع

والآن قد يقول قائل: إن معنى ذلك أنه إذا قام حكم إسلامي في أي دولة فلن يستطيع تطبيق العقوبات إلا بعد عمر طويل حتى يحقق كل هذه الإصلاحات ونقول لهؤلاء: علام الاستعجال؟

لقد عاش العالم الإسلامي مئات السنين والعقوبات موقوفة، فماذا يضيرنا أن نوقفها سنوات أخرى ولو كانت عشر سنوات، إلى أن يتم إصلاح المجتمع، ونعمل بهمة في هذه الأثناء على إنجاز هذه الإصلاحات. فهذا الانتظار خير ألف مرة من ظلم مسلم واحد، أو قطع طرف من جسمه في جرم اضطرته ظروف المجتمع إلى ارتكابه



ومع ذلك، فلنا هنا استثناء من هذه القاعدة يجب أن يوضع في الحسبان، وهي الجرائم العامة التي تتعلق بالأمن العام للرعية وسلامة المجتمع. فمثل هذه الجرائم يجب أن تطبق عليها الحدود الاسلامية فورا ودون تردد أو انتظار. وذلك لأن مرتكبيها ليس لهم أي عذر أو حاجة أو اضطرار لارتكابها، إنما هم قوم استهانوا بالقوانين الوضعية، ووجدوا فيها من اللين والضعف ما يشجعهم على تحدي أمن المجتمع : ومن أهم هذه الجرائم هتك العرض بالسلاح، وتجارة المخدرات والرشوة واختلاس الأموال العامة.

ومن كثرة ما روع هؤلاء المجرمون طمأنينة المجتمع وخربوا اقتصاده، أصبح المجتمع الإسلامي كله يطالب من الآن بتطبيق الحدود الإسلامية عليهم، فهي وحدها الكفيلة بردعهم.

لقد كثرت حوادث اغتصاب النساء البريئات في الطريق - في مصر على سبيل المثال - وتكررت بصورة بشعة تهدد أمن كل أسرة مسلمة. حيث يجتمع جماعة من الشبان العاطلين ويتناولون الخمر أو المخدرات، وقد يشاهدون فيلما من أفلام الجنس، ثم يخرجون في حالة هياج وكأنهم قطيع من الذئاب الكاسرة يختطفون أي امرأة ولو كانت تسير مع زوجها أو أخيها أو أبيها، ثم يتناوبون على اغتصابها. ولقد صرخ الرأي العام مطالبا لهم بأشد العقوبات، وقد صدرت ضد بعضهم أحكام بالإعدام ونفذ بعضها، ومع ذلك فقد كانت وما تزال حوادث الاغتصاب تتكرر. والسبب في ذلك أن الذي يتم إعدامه إنما تفعل به ذلك في غرفة مغلقة، فلا يدري به أحد ولا تتم الموعظة المطلوبة، ومن هنا كانت مطالبة مفتي مصر أن يتم الإعدام علنا ويعرض على الناس. وفي رأيي أن العقوبة الإسلامية في مثل هذه الحالة قد تكون حد المحاربة (أي قطع الطريق) وهي تنص على «أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف». وبذلك يظل هؤلاء مثلا حيا وعبرة لغيرهم، ودرسا حيا لا ينساه أحد، أما موتهم في الخفاء فلن تكون فيه موعظة لأحد.

ومن هذه الأمثلة أيضا تجار المخدرات الذين يقدمون هذه السموم لضحاياهم طمعاً في الثراء والغنى على حساب خراب الأمة. لقد عجز القانون الوضعي عن ردعهم، وأصبحوا كلما قضوا فترة العقوبة في السجن عادوا منه أقوى مما كانوا، بل إن معظمهم يسيّر أموره ويواصل تجارته وهو داخل السجن. وقد طالب الشعب لهم بالإعدام دون جدوى. والحل الاسلامي هو تطبيق عقوبة بائع الخمر وصانعها، وهي الجلد ثمانين جلدة علنا وفي جمع من الناس،

منهم أهله وجيرانه ، فهذا عندئذ تكون عقوبته القتل .

ومن هذه الأمثلة أيضا جريمة اختلاس أموال الدولة وجريمة الرشوة . فهذه الجرائم التي كثرت بسبب استهتار هؤلاء القوم بالعقوبات الوضعية يجب أن يطبق عليهم حد السرقة وهو قطع اليد ، لأن الاختلاس والرشوة من أخطر أنواع السرقة لأموال الرعية .

كانت هذه أمثلة من عقوبات يمكن أن يبدأ الحاكم بها إذا أراد تطبيق الشريعة منذ بداية حكمه ، وذلك لأنها تتعلق بجرائم كبيرة تمس الأمن العام واستقرار الحكم .

لكل عقوبة شروطها

والإسلام دقيق كل الدقة ، حريص كل الحرص في تطبيق العقوبات ، فلكل عقوبة شروطها التي بغير توافرها لا يمكن إقامة الحد . ومن أول هذه الشروط انتفاء الشك في وقوع الجريمة ، فأدنى شك يرفع الحد عن المتهم ، وإذا اتهمه أحد دون دليل قاطع وشهود يمكن أن يوقع عليه حد القذف ولو كان هو الحاكم نفسه .

- وحد السرقة يوقف إذا كان المسروق أقل من النصاب ، أو كان السارق جائعا وسرق لحاجته ، أو كان خادما لقوم ويحرمونه حقوقه .

- وحد الزنا لا يطبق إلا إذا أقسم الشهود أنهم رأوا الفعل الجنسي كما يُرى المِرْوَدُ وهو يدخل في المكحلة ، وهو أمر مستحيل عمليا . وإذا ثبت أن هؤلاء الشهود قد دخلوا البيت من غير بابه أو خلسة من أصحابه أو تجسسا عليهم بطلت شهادتهم .

- والاسلام في نظام العقوبات لا يهدف أبدا إلى الانتقام والتنكيل أو إلى التشفي من المذنب بقدر ما ينظر إلى العبرة والموعظة لغيره . ولا يهمه عقاب المذنب بقدر ما يهمه توبته .

- فمن حكم الإسلام أن المذنب إذا تاب من نفسه ، وقبل أن يقدر عليه الحاكم ، وجاء من نفسه مقرا بذنبه دون أن يخبر عنه أحد ، يسقط عنه الحد وذلك لقوله تعالى : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (المائدة ٣٤) وهذا دليل على جانب الرحمة في الحدود وعلى الحرص على الإصلاح لا الانتقام .

● ومن حكمة الإسلام أيضا أن من ينكر الجريمة فلا حد عليه ، إلا بأربعة شهود ، وإذا اعترف رجل بأنه زنا بامرأة وأنكرت هي الحادث يوقع عليه الحد ولا يوقع الحد عليها ، لأن العبرة بالاعتراف الطوعي دون إكراه .

- ومن حكم الإسلام أيضا أن تكون العقوبة علنية ، وأن يحضر تنفيذها عدد من المسلمين وذلك لقوله تعالى «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» (النور ٢) والقصد من ذلك العبرة والموعظة . ومنع تكرار حوادث الانحراف .

الخلاصة أن العقوبات والحدود في الإسلام إذا طبقت في مناخ إسلامي وبالشروط الاسلامية فليس فيها أي إجحاف ، بل هي القصاص العادل الذي لا بد منه لمن ينحرف بعد كل ما يقدمه له الإسلام من كفالات للحياة الشريفة والمستقيمة .

ويكفي دليلا على ذلك أن عقوبة قطع اليد لم تنفذ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم غير مرة واحدة . وعهد الخلفاء الراشدين جميعهم لم يشهد سوى بضع مرات تعد على الأصابع مما يدل على أن العقوبة إذا طبقت في مناخ إسلامي ، فلن تكون هناك حادثة واحدة نحتاج إلى استعمالها . ويحضرنا هنا كمثل بسيط عندما أصدر الاتحاد السوفيتي قرارا بعقوبة الإعدام للمرتشي ، وعندما تقابل الزعيم الأمريكي بالزعيم السوفيتي قال له :

- «إن هذه العقوبة القاسية تدل على أن الحياة الانسانية عندكم لا قيمة لها» ، فقال له الزعيم السوفيتي : «حقيقة إنها عقوبة قاسية ، ولكن منذ أصدرناها لم تحدث لدينا حادثة رشوة واحدة ولم نحتج إلى تطبيقها» . □



تزاوج الأجناس
في أدب البحر العربي

بقلم: يوسف الشاروني

كثيرا ما ترددت في تراثنا الشعبي وكتابات رحالتنا العرب قضية تزاوج أجناس، كما ترددت عند شعوب أخرى كالإغريق والهنود، فقد ساد عقول القدماء وأهل القرون الوسطى فكرة إمكان اجتماع مخلوقات من سلالات مختلفة ينتج عنه أنواع وسط بين نوعي الوالدين.

في كتاب عجائب الهند الذي جمع فيه المدعو «بزرك بن شهريار» الناخذاه الرامهرمزي أخبار وقصص الرحالة والمسافرين الخليجيين من ساحل أفريقيا شرقا والصين غربا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أن أحد الرحالة قدم له أحد الملوك طعاما يأكله، فيه ألوان مطبوخة برؤوس وأيد تشبه رؤوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم. يقول راوي القصة: فعافت نفسي ذلك الطعام، ووجمت عن أكله بعد أن كنت قد انبسطت، ففطن الملك لذلك فأمسك. فلما كان الغد حضرت عنده، فكلم أصحابه بشيء، فأحضروا سمكا لولا أني رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدف، ما شككت في أنه (بني آدم). فقال لي الملك: الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا،

وهو أطيب سمكنا وأطيبه وأخفه ضررا. قال: فكنت آكله بعد ذلك.

سمك يشبه الإنسان

وفي قصة أخرى يعلل أصل هذا السمك الشبيه بالإنسان، ويخرج بذلك من التخصيص إلى التعميم حول بقية أنواع الحيوان فيقول: وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكا له وجه كوجه ابن آدم، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل، وأن الصيادين المخربين الفقراء، المتطرفين في أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك، المقيمين فيها طوال أعمارهم، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فيتوالد بينهم نسل شبيه لبني آدم يعيش في الماء والهواء. وربما كان الأصل في هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك فتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم، ثم كذلك حتى مر الدهور والأزمنة. كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من حيوان البر فيتوالد بينهم القردة والنسناس وغير ذلك مما يشبه بني آدم، وكما تجتمع الخنازير والجواميس فتكون منها الفيلة، وكما تجتمع الكلاب والمعز فتكون منها الخنازير، وكما تجتمع الحمير والخيل فتكون منها البغال (هذه الأخيرة هي وحدها الصحيحة). ولو ذهبنا نعدد ما ينتج من اجتماع الأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارئ».

ونقرأ قصة ثالثة في كتاب العجائب عن قردة عشقت بحارا فوضعت قردا أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني آدم وصدورهم لا شعر عليها وأذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود. وأن البحار هرب خجلا من فعلته بينما رمى زملاؤه القردة وأولادها من المركب.

المرأة السمكة

ولعل أطرف قصص الكتاب عن تزاوج الأجناس المختلفة هو ما قصه أبو الزهر البرختي الناخذاه عن خال له يسمى أبو الشرشو قال: حدثني خالي عن أبيه - وهو جد البرختي لأمه - قال: أسريت في مركب كبير قاصدين جزيرة منصورة فقذفتنا الريح إلى خليج أقمنا فيه ثلاثة وثلاثين يوما في ركود لا ريح فيه إلى أن توغلنا التيار بين جزائر فأرسينا المركب على واحدة منها على ساحلها نسوة يغصن ويسبحن ويلعبن فأنست بهن. فلما اقتربنا هاربن في الجزيرة. وجاءنا رجال لم نفهم لغتهم، فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم وفهموا عنا.

وبعد أن تناقلوا السلع أشاروا ما إذا كان عندكم بضائع أخرى، فقالوا لهم: ما عندنا إلا الرقيق. ويستطرد راوي القصة بأنهم أتوهم برقيق صحوك يضحكون ويغنون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطا. غير أن رؤوسهم صغار وتحت كتف كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة. فقلنا: ما هذا؟ فضحكوا وقالوا: أهل هذه الجزائر كلهم كذلك، وما عليكم من ذلك، وأشاروا إلى السماء، أي أن الله تعالى خلقنا كذلك. فأعجبت من ذلك وقلنا: هذه فرصة. ورأيناها غنيمة. فاشترى كل منا بمقدار ما عنده من الأمتعة ومعظمه. وكلما اشترينا شيئا جاءونا بما هو أنظف منه وأحسن. فشحنا المركب بخلق ما رأى الراءون



أحسن منه ولا أجمل. فلما حان وقت السفر شيعونا وقالوا لنا: تعودون لنا مرة أخرى إن شاء الله. وطمعنا وطمع رباننا في العودة بمركبه وحده بغير تجار. فكان ليله كله هو ورجاله أن يوقفهم على النجوم ويعرفهم على أماكن الكواكب وجهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء والعودة.

وفرحنا غاية الفرح، وسرنا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار، فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرفيق الذي معنا، فضاقت صدورنا على بكائهم. ثم قام بعضهم لبعض وقالوا: نبكون لأي شيء؟ قوموا بنا نرقص ونغني، فقام الرفيق جميعه يرقصون ويتضاحكون فأعجبنا ذلك منهم، وقلنا: هذا أصلح من البكاء. واشتغلنا كل واحد منا بشأنه. فما أن أصابوا منا غفلة حتى تطايروا والله في البحر تطاير الجراد، والمركب يجري في موج كالجبال. كالبرق الخاطف، فما أشرفنا عليهم حتى تعدتهم المركب نحو فرسخ ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون، فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوسهم ذلك إلا لقدرتهم على هول ذلك البحر. ولم يمكننا الرجوع إليهم، ويئسنا منهم، فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج (قمرة السفينة) كبير. فلما مضى هؤلاء نزل إلى محلها فوجدها تريد أن تثب وتطرح نفسها في البحر، فضبطها وقيدها. وسرنا إلى أن دخلنا بلاد الهند، فبعنا الأزواد التي كانت معنا، وتقاسمنا أثمانها، فصح لكل واحد عشر رأس ماله. فلما سمع الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزائر التي كنا فيها، وكان قد أخذ منها صغيرا وبقي في الهند إلى أن هرم. فقال لنا: أنتم وقعتم إلى جزائر تسمى جزائر الحوت وهي بلدي. ونحن قوم تنزل رجالنا على إناث حيوان البحر، واضطجعت نساؤنا لذكران الحيوان بالبحر، فنتج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهؤلاء. وذلك منذ قديم الدهور، فأصبحنا نصبر على طول المقام في البحار وعلى طول المقام في البر للسر المشترك فينا.

وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم، وأقامت عنده ثماني عشرة سنة مقيدة. وكان هذا الشيخ الجزائري الذي أخبرنا عن سر الذي فيهم قد قال لوالدي: لا تحل عنها قيودها فتطرح نفسها في البحر وتغطس فلا تراها أبدا فنحن لا صبر لنا عن الماء. ففعل بها كذلك.

ولما كبرنا وتوفي والدنا. وكنا نلومه على تقييدها. ما كان لنا بعد من عمل إلا أن أطلقناها من القيد رحمة لها وبرا وحنوا عليها، فخرجت كأنها الفرس في السباق، وانطلقنا خلفها فلم ندركها. فقال لها بعض من كان قريبا منها: تمضين وتتركين أولادك وبناتك؟ فقالت: اشتروا. ومعناها. وماذا أعمل لهم؟. وطرحت نفسها في البحر وغاصت كأقوى حوت يكون، سبحان الخالق الباري، المصور، تبارك أحسن الخالقين.

تزاوج حيوان البحر بحيوان البر

ولكن التزاوج بين الأجناس لا يكون فقط بين الإنسان والحيوان. بل يمكن أن يكون أيضا بين الحيوان والحيوان. على نحو ما نقرأ في الحكاية الأولى من حكايات السندباد حين كان التزاوج بين حيوان البر وحيوان البحر. فبعد أن نجا السندباد من الغرق، واسترد عافيته، سار على غير هدى حتى وصل الى سهل منبسط، فرأى فيه من بعد فرسا مربوطا فدنا منها، لكنه سمع صيحة عظيمة فرتعب منها وأراد أن يعود،

وإذا برجل من تحت الأرض صاح عليه أن يتبعه وهو يسأله من هو ومن أين جاء وما سبب وصوله الى هذا المكان. فقص السندباد عليه قصته. فلما سمع كلامه أمسك به من يده ونزل معه في سرداب تحت الأرض حيث أجلسه في قاعة، وجاء له بشيء من الطعام. وبعد أن

أكل السندباد سأله بلوره عمن يكون، فأجابه: اعلم أننا جماعة متفرقون في هذه الجزيرة على جوانبها، ونحن سياس للملك المهرجان وتحت أيدينا جميع خيوله. وفي كل شهر عندما يكتمل القمر بدرا نأتي بالخيل الجياد ونربطها في هذه الجزيرة في هذه القاعة تحت الأرض حتى لا يرانا أحد، فيجيء حصان من خيول البحر على رائحة تلك الخيل ويطلع على البر فلا يرى أحدا، فينزو عليها ويحاول أخذها معه فلا تقدر أن تسير معه بسبب الرباط، فيضربها برأسه ورجليه ويصيح فنسمع صوته ونعلم أنه أتم مهمته، فنخرج صارخين عليه فيخاف وينزل البحر. أما الفرس فتحمل وتلد مهرا أو مهرة تساوي خزنة، ولا يوجد له أو لها نظير على وجه الأرض، وهذا وقت طلوع الحصان.

وبينما هما يتكلمان جالسين في السرداب إذ سمعا صيحة الحصان، فأخذ السايس شيئا بيده وطلع من باب السرداب، وهو يصيح على رفاقه، فجاءت جماعة بالرماح صارخين فجفل منهم الحصان ونزل في البحر مثل الجاموس وغاب تحت الماء.

حلم البشرية

تلك نماذج للقصص التي كانت تعبِّر عن الاعتقاد الذي شاع قديما في إمكان تزاوج مختلف السلالات. ويرى الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» أنه مما كان يدعم هذا الاعتقاد الإيمان بفكرة وجود كائنات تتوسط مختلف أنواع الموجودات. ولعل أحسن عرض لهذه الفكرة نجده في كتاب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» للدمشقي المتوفى عام ٧٢٨هـ. فهو يقول: والمرجان حجر نباتي ونبات حجري، متوسط في خلقه بين النبات والمعدن، فهو واسطة بينهما، واقف في آخر المعادن وأول النبات (يقول العلم الحديث أن المرجان لا هو بالنبات ولا بالمعدن بل هو حيوان)، وكوقوف النحل والوقواق متوسطا في آخر النبات وأول الحيوان، وكالقردة... والبيضاء وشيخ البحر (القلم أو الدولفين) بالتوسط بين الحيوان والإنسان، وهم في آخر الحيوان وأول البشرية. وكتوسط الغول بين الإنسانية والجان والحيوان، وكتوسط السحاب بين الهواء والماء، وكتوسط الزئبق بين الماء والمعادن، وتوسط الدخان بين النار والهواء، وكتوسط الحلزون والصدف بين المعدن والحيوان، وتوسط الإنسان بين الملك والحيوان.

ويعلق الدكتور حسين فوزي على هذه الفكرة قائلا: وهكذا نجد أن الفكرة لا تقف عند التوسط بين كائن وآخر، بل تذهب الى حد التوسط بين الجمادات والأحياء، وبين الحيوان والنبات، والملائكة والحيوان، بل بين الإنس والجن والحيوان.

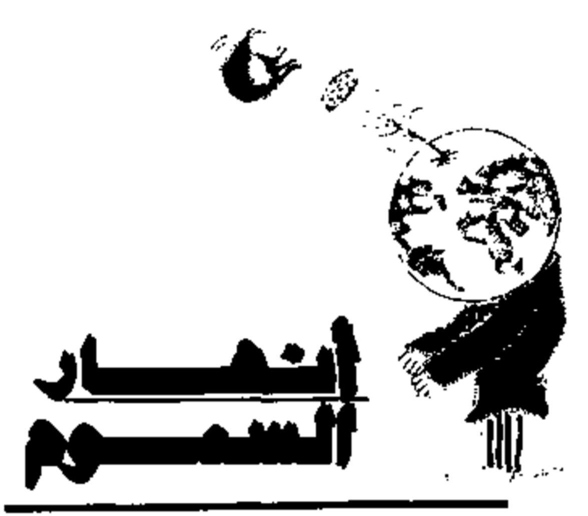
● ● ●

ولا شك أن هذه القصص الشعبية تعبِّر عن حلم البشرية في تحقيق التزاوج بين مختلف السلالات لإيجاد أنواع جديدة، ولعل اختلاط الخيل بالحمير وإيجاد نوع ثالث ـ وهو الاستثناء الوحيد وإن كان له تفسيره العلمي ـ هو الذي جعلهم يعتقدون بإمكان تحقيق هذا الحلم. لكن كل ما وصل إليه العلم الحديث الآن هو أن يتم التزاوج بين أصناف من النوع نفسه لهدف مثل هدف تحسين النوع. □





● قال الحلاق للعامل الجديد الذي يتدرب على الحلاقة عنده:
كن سريعا وأنت تحلق للناس حتى لا تجرح نفسك.



أنهار السموم

بقلم : الدكتور سمير رضوان

كما « مات » البحر الميت فإن هناك أنهارا تموت . والموت هنا هو موت الكائنات الحية التي تعيش في الأنهار ، بفعل المواد السامة التي تلقى فيها .

فكيف يموت النهر ؟

يبدو أن لكلمة التلوث في نفوسنا وقعا يختلف عن وقعها في نفوس أبناء الأمم الصناعية . ونحن نتفق بلا شك معهم في أن التلوث هو إحدى أخطر ظواهر الزمن الحديث ، لكننا في الغالب لا نعي مثلهم مدى عمق هذا الخطر ، لذلك كثيرا ما يصادف من يتصدى للكتابة عن هذه الظاهرة في أمتنا قدرا من اللامبالاة بين القراء ، وربما وصف بالنزوع إلى التشاؤم وتشويه صورة الحياة الجميلة . ولا شك أن هناك أسبابا لهذه اللامبالاة ، فالمواطن العربي تلهيه قائمة من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، قبل أن تجتمع مثيلاتها لمواطن الأمم الصناعية . ومن ثم فلابد لمشكلة مثل مشكلة التلوث أن تأتي بموقع متأخر من اهتماماته . أضف إلى ذلك أن أولي الأمر والنهي في وطننا العربي نادرا ما يوفرون للمواطن حقائق كاملة عن حجم مشكلة التلوث في أقطارنا ، بل هم يعاملون هذه المشكلة وشبيهاتها وكأنها من أسرار الدولة العظمى ، لذلك كثيرا ما يراود مواطننا الإحساس ، بل يصور له أن ظاهرة

التلوث هي مشكلة العالم الصناعي في المقام الأول ، ثم إنها بعد ذلك مشكلتنا في المقام الثاني أو الثالث . وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا القول صحيح ، إذ أن التلوث مرتبط فعلا بالتصنيع والتقدم . على أن ظاهرة التلوث ـ بغض النظر عن المتسبب فيها ـ تكتسب باطراد أبعادا عالمية . فإذا لوثت دولة صناعية نهرا أو بحرا ، أو لوثت الغلاف الجوي ، أصبح من قبيل الغفلة الظن أن هذا التلوث يعنيهم هم ولا يعنينا بنفس القدر . وهو في الواقع يعني كوكب الأرض برمته .

أجدادنا حفظوا للأنهار قدرها

جرت الأنهار بالمياه على الأرض قبل أن يهبط الإنسان إليها ، بل وقبل أن يبعث الله فيها أبسط صور الحياة ، منذ حوالي ثلاثة آلاف مليون سنة . ولم يعد بين أنهار اليوم نهر ظل على حاله منذ خلق ، فقد أخذت القشرة الأرضية تتقلب وتتبدل ، ولا تلبث على حال واحد ، فضمرت مناطق كانت يابسة ، وطفت قيعان كانت مغمورة بالأمواه . وللأنهار على الإنسان فضل لا يمكن حصره في مقالة واحدة ، فالأنهار ـ في كثير من مناطق الأرض ـ هي التي حملت التربة الزراعية الخصبة وبسطتها على وجه الصحراء الجرداء ، فهيأت بذلك للإنسان حين خلق بقاعا ما كان لعيشه أن يصلح فيها لولا الأنهار . وتربة مصر الزراعية مثال تعطي لذلك ، فقبل إنشاء السد العالي كان طمي النيل يرصد من الطائرات أيام الفيضان بلونه الضارب إلى الحمرة ، مخترقا زرقة البحر المتوسط إلى أعماق تبلغ مئات الكيلومترات . وقد أثبت علماء تحليل التربة أن طمي النيل قد حملته المياه ، وألقته على شواطىء فلسطين ولبنان ، بل وعلى شواطىء اليونان في شمال البحر المتوسط . ولقد كانت الأنهار على الأرض ، وما زالت ، عوامل تلطيف مهمة للمناخ ، إذ تتبخر المياه من مسطحاتها فترطب الجو الجاف ، على أن أكبر فضل للأنهار على الإنسان يأتي من واقع أنها هي التي ربطته بها منذ عشرات الألوف من السنين ، ليزرع وديانها الخصبة ، ويرتوي من مياهها ، ويروي حيواناته ، وكان قبل ذلك دائم الترحال ، في مرحلة عمره التي تعرف بمرحلة الصيد . وباستقرار الانسان في وديان ، وبتعلمه حرفة الزراعة خطا أولى خطواته على طريق حضارته التي انتهت به إلى ما هي عليه اليوم . ومن هنا كان قول الباحثين إن « الحضارة » نشأت على ضفاف الأنهار . وعبر أمير الشعراء أحمد شوقي عن هذا المعنى وهو يخاطب النيل :

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
ونباتها حسن عليك مُخلّقُ
ولدت فكنت المهد ، ثم ترعرعت
فأظلها منك الحفيّ المشفقُ

وقد عرف الإنسان القديم فضل الأنهار ، وحفظ لها قدرها ، إذ شعر بفطرته أنه مدين لها بحياته ، فكان يحافظ عليها ويحميها . ويروى أن المصري القديم كان إذا حضرته الوفاة ، يدعو أدعية كثيرة ، ويسجل حسناته في حياته ، ومن ضمنها أنه لم يلوث ماء النيل أبدا . وبلغ تقدير الإنسان القديم للأنهار أن ألهها ، فقد عبد قدماء المصريين النيل .

وكان القدماء يقدمون لهذا الإله في كل عام عروسا عذراء قربانا لكي يرضى ويفي بوعده ويفيض ، ثم حلت دمية محل العروس الآدمية ، حتى أوقف عمرو بن العاص هذه الطقوس . ومن الغريب أن الألمان كانوا يحتفلون أيضا بنهر الراين ، ويلقون في أحضانه دمية .

أما نحن فقتلنا الأنهار

أما إنسان القرن العشرين ، وعلى وجه التحديد إنسان العقود القليلة الأخيرة منه ، فقد



تلوث الهواء

لوث كل ما حوله ، بما في ذلك البيئة النهرية ، لتقضي على شتى صور الحياة في بعضها ، حتى أصبح علماء البيئة يتحدثون اليوم عن « أنهار » ميتة ، وعن أنهار ماتت ثم بعثت مرة أخرى . وسوف تقتصر الأمثلة القليلة في هذه المقالة على أنهار الدول الصناعية ، حيث لا يتردد أولو الأمر لحظة في الإعلان عن واقع الحال ، مهما كان محزنا ، وذلك عملا بحرية النشر . وعدم استعانتي بأمثلة من بلادنا سببه الوحيد كما ذكرت أن التلوث وغيره من الكوارث تعالج في الغالب وكأنها من أسرار الدولة .

أما الأنهار التي قد ماتت فمن أمثلتها معظم أنهار وسط الجزيرة البريطانية . وللأنهار التي ماتت ثم بعثت مرة أخرى أذكر مثالين لطيفين : نهر « التيمز » في بريطانيا ، ونهر « الراين » في غرب القارة الأوروبية . أما الأول فأعلن موته في الخمسينات ، لكن المسئولين أولوه عناية مركزة ـ سوف أتعرض لطبيعتها ـ حتى أثمرت جهودهم ، وبعثت الحياة فيه مرة أخرى . أما الثاني فقد ماتت منه قطاعات كبيرة في فرنسا وألمانيا الغربية وهولندة ، ثم أعلن المسئولون أن الحياة بعثت فيه أيضا بعد معالجات مكثفة . وثمة جدل محتدم الآن في بريطانيا حول نهر « ديرفند » الذي أغلقه المسئولون في وجه النشاط الإنساني ، خشية أن يموت كما ماتت أنهار أخرى . وصاروا لا يسمحون حتى للقوارب أو هواة الرياضة بالاقتراب منه ، كما لا يسمحون أن تنشأ مصانع على شاطئيه كي لا تلوثه نفاياتها . ويشعر قطاع كبير من الشعب البريطاني بالضرر من هذا الحظر ، ويتساءلون في استنكار : « هل النهر للإنسان أم للحيوان ؟» يقصدون الحيوانات التي تحيا في مياهه . ولم يحسم هذا الجدل حتى الآن . ومما يميز الأنهار البريطانية أنها تنبع وتصب في دولة واحدة . أما معظم أنهار الدنيا فتخترق عددا من الدول ، مما يعني أن تلويث النهر في دولة لابد أن تتحمل عواقبه الدول الأخرى . وكثيرا ما تتبادل الدول الاتهامات حول تصيبها من

التلوث . مثال ذلك ما ترجمه ألمانيا الغربية حاليا من أن نهر « الإلب » لا يدخل أراضيها إلا وقد ملأته تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية بالسموم والنفايات .

كيف تموت الأنهار وتبعث ؟

يقصد العلماء بموت النهر موت الأحياء المائية ، خاصة الأسماك التي تستوطنه . والبيئة النهرية من الناحية « البيولوجية » لا تختلف عن بيئة اليابسة إلا في نوعية الأحياء فحسب . وتعيش في الأنهار ، كما تعيش على اليابسة ، مجموعة من النباتات والحيوانات والميكروبات التي يعتمد بعضها على بعض ، ومن ثم فهناك قدر من التوازن بين أعدادها . وتقوم الطحالب في الأنهار مقام النباتات على اليابسة ، فهذه الأحياء الخضراء هي التي توفر المادة العضوية الأولية غذاء للأحياء الأخرى في البيئتين ، حيث لها القدرة على صنع المادة العضوية من ثاني أكسيد الكربون والماء وطاقة الشمس خلال عملية التمثيل الضوئي . وتشبه ميكروبات النهر ميكروبات اليابسة إلى حد كبير ، إذ تتكون من أعداد كبيرة من البكتيريا والحيوانات الأولية وحيدة الخلية ، أما حيوانات النهر الراقية فتسود فيها الأسماك . ويموت النهر إذا ألقينا فيه مباشرة مواد سامة ، فهي تقتل الأسماك على الفور ، وهنا يقال : إن النهر قد مات . أما إذا ألقينا كميات كبيرة على غير العادة من مواد عضوية غير سامة في النهر فسوف تتغذى البكتيريا على هذه المواد وتتضاعف أعدادها بصورة مذهلة ، فيختل الميزان السائد بين أعداد الأحياء في النهر . وهنا يقال : إن النهر مريض . وينجم عن تكاثر البكتيريا بصورة غير عادية مشاكل جمة ، قد تفضي إلى موت الأسماك أيضا ، ولكن ببطء ، إذ قد تلتصق الخلايا البكتيرية الكثيرة على خياشيم الأسماك ، فتعوق تنفسها وتخنقها ، وهناك أنواع من البكتيريا لها القدرة على إنتاج سموم الأحياء الراقية . ثم إن البكتيريا تتنفس تستهلك معظم الأكسجين في الماء ، مما يعرض الأحياء الأخرى للخطر . تلوث النهر إذن لا يحدث - بالضرورة - من إلقاء مواد سامة فيه ، إنما من إلقاء أي مواد عضوية وغير عضوية تخل بالموازين السائدة بين أحياء النهر ، فلو ألقينا بأطنان من السكر مثلا - وهو مادة غذائية مثالية - فنحن في الواقع نسمم النهر أيضا بما قد يفضي إلى موته على غرار ما ذكرنا .

أما بعث النهر الذي مات فلا يتحقق إلا بتخليصه من المواد التي ألقيت في مياهه . وقد توصلت بحوث المتخصصين إلى أن مثل هذه المواد يمكن أن تتحلل إلى ثاني أكسيد الكربون والماء وغازات أخرى ، من خلال أنشطة البكتيريا في الماء ، شريطة أن تضخ كميات هائلة من المواد في مياه النهر ، تكفي حاجة هذه الميكروبات من



كي لا تموت الأنهار والأشجار



مصادر تلوث الأنهار

الأكسجين، ثم يترك النهر زمناً - يمثل فترة نقاهة - كي تستقر أعداد البكتيريا فيه، بعد أن تعود إلى سيرتها الأولى. وكثيراً ما يستدعي الأمر بعد ذلك زراعة النهر بالأسماك، بغية الوصول إلى الميزان الحيوي الطبيعي مرة أخرى.

الصناعة مصدر السموم

تتدرج السموم التي تلقى في الأنهار كنفايات صناعية تحت أربعة أقسام، يشمل القسم الأول مركبات تغير درجة حموضة الماء في النهر، ومن أمثلتها الأحماض غير العضوية، كحمض الكبريتيك، والأحماض العضوية، وهذه تتسبب فيما يعرف علمياً بتخفيض الأس الأيدروجيني للمياه، أي تزيده حموضة. ويخل هذا العامل بالميزان السائد في الماء، وهو متعادل، إخلالاً عظيماً. إذ تقضي الحموضة على معظم البكتيريا، مما يشجع على ازدهار ميكروبات أخرى غير مرغوبة، وهي الفطريات. وينبغي أن نتذكر هنا أن البكتيريا في الواقع غذاء للحيوانات الأولية التي تمثل مع الطحالب معظم غذاء الأسماك. ويعني ذلك أن نقص البكتيريا عن أعدادها في الميزان الطبيعي يفضي بالضرورة إلى نقص الأسماك أيضاً. وكثيراً ما تلقي مصانع السماد بالنشادر في الأنهار، فيرتفع قلوية الماء، مما يخل أيضاً بالميزان الحيوي في النهر. أضف إلى ذلك أن الأمطار الحمضية التي تهطل بغزارة على الأنهار في الدول الصناعية تفضي إلى خلل مشابه أيضاً.

والقسم الثاني من السموم يشمل النفايات الصناعية المحتوية على معادن ثقيلة، مثل الزئبق والرصاص والكادميوم، وهي سموم تفتك بالأحياء الراقية والميكروبات في النهر على حد سواء. في إحصائية نشرت عام ١٩٨٦ عن تلوث أنهار ألمانيا الغربية بالمعادن الثقيلة تبين أن كمية المعادن التي لوثت نهر «الإلبه» في هذا العام وحده بلغت ٢٤٦٢ طناً، بمعدل ١٥٪

من الجرام لكل متر مكعب من الماء . وبلغت الكمية التي لوثت نهر « الفيزر » ٨٩٤ طناً (٨٪ من الجرام للمتر المكعب) ، والتي لوثت نهر « الراين » ١١١٨٩ طناً (١٤٪ من الجرام للمتر المكعب). وقد جاءت هذه الكميات الكبيرة كنفايات من مصانع قائمة على ضفاف الأنهار .

أما القسم الثالث من السموم فهو مضادات الأعشاب والحشرات التي أصبحت ترش بغزارة في الحقول للقضاء على الآفات ، فتذيبها الأمطار ، وتنقلها إلى المصارف والأنهار ، وهناك تقتل الأحياء المائية كالأسماك على وجه الخصوص . ومعظم هذه المركبات ليس سوى مشتقات نفطية ، أي هيدروكربونات ، تحتوي على ذرات الكلور أو الفلور . وتسبب هذه المواد قائمة من الأمراض للإنسان والحيوان ، من ضمنها الحساسية والسرطان . ولكي يتصور القاريء حجم المشكلة نذكر أن ألمانيا الغربية وحدها ترش سنويا في حقولها حوالي ٣٠١٠٠ طن من هذه المواد التي تمثل حوالي ٣٠٠ مركب مختلف . ولم يبتكر الباحثون بعد طرقا لتحليل مثل هذه المواد ، باستثناء ١٠٠ مركب منها فقط . معنى ذلك أن ثلثي هذه المواد لم تتوافر بعد الطرق المخبرية لمجرد اختبار وجوده في مياه الأنهار . وتقدر الإحصائيات المنشورة أن المدينة الأوروبية المتوسطة الحجم يمكن أن يرصد بالقرب منها في المتوسط ٣٠٠٠ مصنع أو مؤسسة أو هيئة تشارك في تلويث المياه بهذه المواد ، ومن أمثلتها محطات الوقود النفطي ، وورش إصلاح السيارات ، ومحطات التنظيف بالكيماويات ، والمطابع ، وأعداد كبيرة من مصانع الكيماويات المختلفة . وفي أحد التقديرات تحتوي النفايات الصناعية المختلفة على مالا يقل عن مائة ألف مركب كيمائي مختلف تصب يوميا في أنهار العالم .

وتندرج تحت القسم الرابع الأخير من السموم المواد المشعة التي قد تتسرب من المفاعلات النووية القائمة على ضفاف الأنهار . وتضخ هذه المفاعلات كميات هائلة من مياه النهر للتبريد ، ثم تعيدها إليه مرة أخرى ، محملة بقدر من الإشعاع . إضافة إلى أن حرارة الماء ترتفع إلى قرب درجة الغليان ، مما يؤثر على أحياء النهر . وقد تكون كمية الإشعاع المتسرب ضئيلة ، على أن الأحياء النهرية قد تختزن في أجسامها منها كميات محسوسة مع الزمن ، فتصبح بذلك غير آمنة على الإطلاق .

والزراعة مصدر آخر للتلوث

أشرنا إلى مضادات الآفات الزراعية ، كأحد أقسام المواد السامة التي تنتجها الصناعة . أما الأسمدة فلا يكمن خطرها في أنها مواد سامة ، بل يكمن في أنها تسمد المياه في الأنهار ، فتزداد خصوبة ، فتنمو فيها الطحالب بغزارة مخلة بالميزان الحيوي السائد ، مما يفضي في النهاية إلى



موت الأسماك أيضا ، فالماء الذي يحتوي على أعداد غفيرة من الخلايا الطحلبية قد يخنق الأسماك ، كما تفعل أعداد البكتيريا الكثيرة ، أي من خلال الاختناق بالغيانيم ، وتنتج بعض الطحالب سموما تقتل الأسماك . ولا تظهر هذه في البيئة النهرية إلا حينما يختل التوازن الطبيعي السائد . والأسمدة التي ترش في الحقول مركبات نيتروجينية ، تؤكسدها بكتيريا التربة إلى أملاح النترات الشديدة الذوبان في الماء ، تحملها الأمطار في مياه النهر عند المناطق الزراعية الملاصقة للشاطيء . والنترات تسمد الماء ، مما ينجم عنه نمو الطحالب بغزارة فيه ، لذلك فهناك اتجاه اليوم في كثير من دول أوروبا إلى إلزام المزارعين بعدم رش الأسمدة في المناطق المتاخمة للشاطيء بعمق خمسة أمتار على الأقل .

وسكان المدن لوثوا الأنهار

ولسكان المدن أثر مشابه لأثر الأسمدة على مياه النهر ، فلقد أصبحنا نسمع اليوم عن مدن كثيرة ، يبلغ عدد سكانها عدة ملايين ، ولم يكن الأمر كذلك منذ عقود قليلة من السنين ، ومعظم المدن الواقعة على الأنهار تصب مجاريها الصحية فيها ، ولم تكن هذه مشكلة تذكر فيما مضى ، حينما كانت أعداد السكان معقولة ، فقد كانت البكتيريا الموجودة في النهر كفيلة بتحليل مكونات المجاري العضوية ، دون إخلال كبير بالموازين الحيوية في النهر . أما وقد بلغت أعداد السكان عدة ملايين في كثير من هذه المدن فقد أصبحت المجاري تمثل مشكلة كبرى . فلو سمح للمجاري المنزلية الخاصة بهذه المدن أن تصب في الأنهار مباشرة ، دون معالجة مسبقة ، فالنتيجة الحتمية هي اختلال موازين الأحياء ، وعندئذ سوف تكتسح البكتيريا كل الأحياء الأخرى في النهر ، فهي الوحيدة القادرة على استهلاك مخلفات المجاري كغذاء . لذلك فقد أصبحت مخلفات المجاري في المدن الكبيرة تعالج لخفض محتواها من المواد العضوية ، قبل صرفها في مياه الأنهار . وتتلخص هذه المعالجة في جمع المجاري في أحواض ضخمة ، وتركها زمنا ساكنة كي ترسب إلى القاع المواد الصلبة التي تتكون من مواد عضوية تصلح غذاء شهيا للبكتيريا . ثم تصرف السوائل ، وهي ما زالت غنية بالمواد العضوية الذائبة ، إلى أحواض أخرى ، حيث تقلب بشدة ، وتضخ فيها كميات هائلة من الهواء . وتهدف هذه المعالجة تنشيط البكتيريا لكي تتغذى على المواد العضوية وتحللها . وبعد ذلك تصرف المجاري المعالجة في الأنهار . وقد ظن العلماء أنهم قد انتهوا من المشكلة بالتخلص من مواد المجاري العضوية ، ولكن تبين فيما بعد أن بكتيريا المجاري تحول المواد العضوية النيتروجينية أثناء المعالجة إلى أملاح النترات .

أضف إلى ذلك أن المجاري المنزلية تحتوي على قدر كبير من أملاح الفوسفات ، ومصدرها مساحيق الغسيل . وعلى ذلك فسوائل المجاري المعالجة غنية بأملاح النيتروجين والفوسفور غير العضوية . فإذا ما صرفت في الأنهار كانت غذاءا مثاليا للطحالب ، فتتكاثر في مياه النهر بغزارة . ولقد أحصى العلماء أن نهر « الراين » مثلا يستقبل سنويا من مجاري المدن من المواد النيتروجينية ما يمكن أن يملأ ١٤٠٠٠ عربة قطار ، ومن أملاح الفوسفور ما يمكن أن يملأ ١٥٠٠ عربة . إذن فقد عالجت التقنية مشكلة فنشأت منها مشكلة أخرى . وهناك بحوث تجري الآن لحل هذه المشكلة الجديدة . أما أملاح الفوسفات فيتم التخلص منها الآن من خلال إنتاج مساحيق للغسيل خالية من الفوسفور . أما أملاح النترات فهناك تجارب تجري مرة أخرى على أسلوب معالجة سوائل المجاري . أعلن مؤخرا أن تهوية هذه السوائل ينبغي أن يتبعها مباشرة حفظها قبل صرفها تحت

ظروف لا هوائية لزمن محدود، تستطيع أنواع من البكتيريا اللاهوائية اختزال أملاح النترات إلى غازات نيتروجينية تتصاعد إلى الجو. وواضح أن هذا ليس حلاً مثاليا. فسرعان ما سوف تذوب هذه الغازات المتصاعدة في مياه الأمطار وتعود مرة أخرى إلى التربة والأنهار.

ماذا يخشى من تلوث الأنهار؟

يخشى الكثير، فالأنهار مصادر لمياه الشرب في كثير من بقاع الأرض، وغني عن الذكر أن مياهها مليئة بالسموم لا تصلح شرابا للبشر. وهذه مشكلة أصبحت ساخنة في السنوات الأخيرة. كما أن محاصيلنا الزراعية تروى بمياه الأنهار. ونحن نأكل هذه المحاصيل في النهاية، ونقدم منها علفا لماشيتنا، والمياه الملوثة تنتج محاصيل زراعية ملوثة. وقد أثبت الدارسون حديثا أن ألبان الماشية مثلا قد أصبحت تحتوي على قائمة من مضادات الآفات الزراعية، بل والمواد المشعة. أضف إلى ذلك أن الأنهار هي أحد أهم مصادر الأسماك التي أصبحت تمثل جانبا مهما من غذاء الإنسان. ومع ازدياد أعداد البشر على الأرض باطراد ينبغي المحافظة على هذه الثروة وتنميتها لا تسميمها وقتلها. لقد أصاب التلوث أسماك الأنهار بأمراض لا حصر لها، وليس السرطان إلا أحدها. ويحرم كثير من الدول الصناعية اليوم استهلاك الأسماك النهرية، لأنها لم تعد آمنة بما تحويه من ملوثات. ثم إن الأنهار تمتد مسافات قد تبلغ آلاف الأميال، وتسري مياهها من دولة إلى أخرى. وتلويث الأنهار يعني توزيع التلوث على كوكب الأرض بالتساوي. وأخيرا فالأنهار تصب في البحار، وتنقل إليها سمومها وملوثاتها. وتتبخر المياه في البحار مما يفضي إلى تركيز السموم فيها يوما بعد يوم. حتى أصبحت بحار اليوم ما بين مريضة وميتة. □





ماذا تعرف عن:

● ناطحة السحاب امباير ستايت؟

● يبلغ ارتفاع ناطحة السحاب امباير ستايت، التي بنيت عام ١٩٢٩ في نيويورك ٤٤٨ مترا.

● تتكون من ١٠٢ طابق وطابقين، وبها ٦٥٠٠ نافذة و ٧٣ مصعدا.

● يبلغ عدد الأشخاص الذين يعملون في مكاتبها ٢٠ ألف شخص، ويزورها ١٣٠٠٠ سائح يوميا، يصعدون إلى برجها حيث يمكن الرؤية إلى مسافة ٧٠ كيلومترا.

● تكلف بناؤها ٢٤ مليونا و٧٠٠ ألف دولار، وبيعت عام ١٩٦١ بمبلغ ٥١ مليونا و٥٠٠ ألف دولار.

التهاب الزائدة الدودية وعلاقته بالأغذية الحديثة

بقلم : الدكتور صبيح السامرائي

هل هناك ارتباط بين الأغذية الحديثة ومرض التهاب الزائدة الدودية المزمن؟ هذا مايراه بعض الباحثين عند تفسيرهم لظاهرة ارتفاع معدل الإصابة بهذا المرض بين سكان دول العالم الثالث ، حيث شاع تقليد الغرب في نوعيات غذائه وعاداته الغذائية . فما هي أعراضه ، وكيفية العلاج منه ؟

يتناقل بعض الأطباء قولا شائعا ، يؤكد ان لاشيء أسهل من تشخيص التهاب الزائدة الدودية الحاد ، ولا شيء أصعب منه . وعلى الرغم من أسلوب المبالغة في هذا القول ، فإنه يشير إلى حقيقة طبية معروفة ، وهي سهولة تشخيص هذا المرض أحيانا ، وصعوبة تشخيصه في أحيان أخرى . ومصدر الصعوبة في ذلك هو اختلاف موقع «الزائدة الدودية» من شخص لآخر ، ووجود أمراض كثيرة تسبب ألما حادا في البطن ، وهو العرض الرئيسي لالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، كما ان على الطبيب أن يعتمد اعتمادا شبه كامل على الأعراض والفحص السريري ، ذلك ان التحريات المختبرية والصور الشعاعية قليلة الفائدة في التشخيص .

الأعراض

تبدأ الأعراض بهيئة ألم حاد مفاجيء في وسط البطن «في منطقة المعدة» ، ويرافق الألم غثيان ، وربما تقيؤ . وبعد عدة ساعات ، يتحول الألم إلى الجهة اليمنى من أسفل البطن ، وبعد ان كان الألم في وسط البطن ، بهيئة ألم متقطع ، او مغص ، فإنه يغدو في أسفلها ألما مستمرا شديدا ، ويشتد الألم عند أية حركة يقوم بها المريض ، فيضطر إلى الاستلقاء مثنيّ الساقين .

وتختلف شدة الالتهاب من شخص لآخر ، ففي بعض الحالات ، سرعان ما تصاب الزائدة «بالغرغرينا أو الموات» فيتآكل جزء منها ، وهو ما يسمى أحيانا بانفجار الزائدة ، ويلتهب الغلاف أو «البريتون» ، وهو غشاء رقيق يبطن تجويف البطن والحوض ، ويغلف ما فيهما من أحشاء . إن هذه المضاعفات ، قد تحصل خلال «٢٤» ساعة فقط من بداية ظهور الأعراض ، وفي حالات أخرى لا تحصل هذه المضاعفات لو يتأخر ظهورها ، فقد استؤصلت الزوائد الدودية لبعض المصابين بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، فوجدت سليمة إلا من الالتهاب الذي لم يسبب تلك المضاعفات .

وبالفحص السريري ، نجد ازدياد معدل النبض ، وارتفاعا غير شديد في حرارة الجسم ،

«٣٩ درجة مئوية أو اقل» ، فإذا كانت الحمى شديدة «٤٠ درجة مئوية أو أكثر» ، فمن غير المحتمل ، انها ناشئة عن التهاب حاد في الزائدة الدودية ، بل يرجح أن تكون ناشئة عن التهاب حاد في الجهاز البولي أو التنفسي . ونجد أيضاً اللسان مكسواً بطبقة خفيفة بيضاء ، ورائحة الفم كريهة . وفي كثير من الحالات ، لا نجد أي علامة من هذه العلامات ، مما يقلل من قيمتها التشخيصية .

وعند الضغط باليد على أسفل البطن من الجهة اليمنى يزداد الألم ، وكذلك عند سحب اليد منها . وعلى الرغم من ان هذه منطقة الزائدة الدودية في معظم الحالات ، فانها قد تكون في مكان اخر فوق - أو دون - المكان المعهود ، وهنا يكون الألم الى الأعلى «في الخصر» أو إلى الأسفل «قرب المثانة» . ومن طريف ماورد البروفيسور «هارولد اليس» أستاذ الجراحة في مدرسة «ويستمنستر الطبية» ، انه شاهد مريضين مصابين بالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، وكان كل منها يعتقد القلب يسار الزائدة !! .

فبمرور الوقت ، يمتد الالتهاب الى «البريتون» ، مما يجعل الألم ينتشر ليشمل كل البطن ، ولا يقتصر على مكان الزائدة ، ونتيجة لالتهاب البريتون تتصلب البطن وتتشنج ، ويبدو المصاب متعباً خائر القوى .

التحريات المختبرية :

لابد من فحص الدم مجهرياً لحساب عدد كريات الدم البيضاء ، الذى يزداد لدى «٧٥٪» من المصابين بالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، ليغدو أكثر من (١٢,٠٠٠) في كل مليمتر مكعب من الدم «بدل العدد الطبيعي الذى يتراوح مابين ٤,٠٠٠ - ١٠,٠٠٠» . أما بقية المصابين «٢٥٪» فإن العدد يظل طبيعياً ، أو يزداد زيادة طفيفة .

كما يجب فحص البول كيميائيا ومجهريا في أى حالة من حالات ألم البطن الحاد . فإذا وجدنا فيه «الجلوكوز» فمن المرجح أن يكون سبب الألم ، هو داء السكر وليس التهاب الزائدة . وإذا وجدنا فيه الدم والقيح ، فمن المرجح أن يكون سبب الألم هو التهاب في الجهاز البولي .

ويجب تصوير البطن بالأشعة السينية العادية «أو غير الملونة» ، وذلك من أجل تشخيص بعض أمراض الجهاز الهضمي التي تسبب ألماً حاداً في البطن ، ومن هذه الأمراض ثقب قرحة المعدة أو الاثنى عشر ، ونتيجة هذا الثقب تتسرب الغازات إلى تجويف البطن ، ويمكن رؤيتها بالأشعة . وقد نجد بالفحص الشعاعي حصاة في الحالب .

عقبات في الطريق :

وعلى الرغم من سهولة تشخيص المرض ، فإن هناك حالات ، خاصة تجعله أقل يسرا وأكثر عسرا ، ومن هذه الحالات عدم دقة وصف المريض حالته ، والأعراض التي يشعر





● زائدة دودية ملتهبة وقد صورت بعد استئصالها والأرقام أسفل الصورة تمثل وحدات قياس بالسنتيمتر

بها ، ومكان الألم وغير ذلك . وكذلك الأمر حين يكون المريض مفرط السمنة . إذ تقوم الشحوم بإخفاء أهم علامتين يعتمد عليهما الطبيب في تشخيص التهاب الزائدة ، وهما الألم عند الضغط على أسفل البطن من الجهة اليمنى ، وتشنج البطن ، وشيء مشابه لهذا يحدث عندما تكون الزائدة ممتدة خلف الأمعاء ، فلا تظهر العلامات الرئيسية .

ويصعب تشخيص المرض لدى صغار السن وكباره ، وعلى الرغم من عدم شيوع المرض لدى الأطفال دون عمر سنتين ، فإنه حدث لأطفال رضع في عمر عدة أيام فقط . ويعتمد الأطباء في التشخيص على حصول الألم أو «بكاء الطفل» عند الضغط على أسفل البطن من الجهة اليمنى ، وتشنج هذا الجزء من البطن . أما لدى كبار السن ، فقد أثبتت الدراسات أن هناك تأخيرا في التشخيص ، بل ان حالات كثيرة لاتشخص إلا بعد انفجار الزائدة . ويعتقد ان من أسباب هذا التأخير ، الحالة الاجتماعية الخاصة لكبار السن ، وقلة شكواهم وعدم اهتمامهم بالألم حتى يشتد .

ويصعب التشخيص أيضا لدى الحوامل ، فإذا أحست الحامل بألم البطن في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل ، فإن أول تشخيص يفكر فيه الطبيب هو الحمل خارج الرحم أو الإسقاط المهدد . وحتى الغثيان الذي يرافق التهاب الزائدة له تفسيره الخاص لدى الحوامل ، على انه الوحام . وكذلك الأمر مع التقيؤ . وبمرور أشهر الحمل ، يكبر الرحم ويدفع الزائدة الدودية إلى الأعلى والجانب ، وإذا التهبت هذه الزائدة فإنها تسبب ألما في غير المكان المعهود للزائدة ـ في وسط البطن تقريبا ـ فيصعب التفريق بين التهاب الزائدة والتهاب حوض الكلية أو التهاب الصفراء .

التدقيق في التشخيص

يقصد بالتشخيص التفريقي « دراسة الأمراض المشابهة في أعراضها لالتهاب الزائدة ، وتعيين أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين هذا المرض . وقد كنا في السنة الأخيرة من دراستنا الطبية ونحن على وشك التخرج ، نتعجب من الأمراض الكثيرة جدا التي توضع تحت عنوان «التشخيص التفريقي لالتهاب الزائدة الدودية» ، بل كان بعضنا ، يسخر من تلك القائمة الطويلة ، زاعما انه يستطيع تشخيص التهاب الزائدة وهو مغمض العينين ! غير أن الممارسة العملية أثبتت لنا جميعا ضرورة ذلك التفريق في التشخيص ، بسبب وجود أمراض كثيرة تشابه أعراضها أعراض التهاب الزائدة ، وأدركنا الواقع الملموس وهو أن بعض الزوائد الدودية تستأصل من أجسام أصحابها وهي

سليمة لامرض فيها . ومثل هذا الخطأ ـ بنسب غير كبيرة ـ أمر مقبول عند الوقوف بين الشك واليقين أمام التشخيص ، فهو أفضل من عدم إجراء العملية والانتظار حتى تنفجر الزائدة في جسم صاحبها .

أما الأخطاء التي لا تغتفر ، فهي استئصال الزائدة من شخص يشعر بألم البطن الحاد ، لابسبب التهاب الزائدة ـ وإنما بسبب داء السكر أو التهاب غشاء الجنب ، فالعملية الجراحية تزيد الطين بلة . أو عدم إجراء العملية لمريض مصاب بالتهاب الزائدة ، نتيجة التشخيص الخاطئ ، بأنه «التهاب المعدة والأمعاء » أو غيره من الأمراض التي لاتحتاج عملية جراحية ، وهكذا تترك الزائدة حتى تظهر عليها «الغرغرينا» وتنفجر مسببة مالا تحمد عقباه . ونحمد الله على أن هذه الأخطاء القاتلة نادرة جدا .

العلاج

يتم العلاج باستئصال الزائدة الدودية جراحيا في أسرع وقت ممكن ، وذلك لمنع حصول المضاعفات . غير ان هناك حالات خاصة توجب تأخير العملية الجراحية ، وأهم هذه الحالات مايلي :

أولا : إذا كانت حالة المريض الصحية سيئة جدا ، بسبب الالتهاب الشديد في «البريتون» ، فيجب علاجه بالطرق الطبية في بداية الأمر ، وذلك بإعطائه السوائل عن طريق الوريد ، وإعطائه المضادات الحيوية لعلاج الالتهاب ، ثم تجرى له العملية الجراحية .

ثانيا : عندما يتأخر المريض عدة أيام ، فإن التهاب الزائدة قد يؤدي إلى تكوّن ورم في منطقة الزائدة نتيجة تكوّم الأحشاء المجاورة «وهذه وسيلة دفاع طبيعية تحدّ من إنتشار الالتهاب» . وفي هذه الحالة لايجوز إجراء العملية ، بل يوضع المريض تحت المراقبة الطبية الدقيقة ، ويمتنع عن الطعام ، ويعطي السوائل عن طريق الوريد ، حتى يزول الورم ، ثم تجرى له العملية الجراحية بعد شهرين أو ثلاثة . وهذه العملية الجراحية تتم على الرغم من شفاء المريض ، لأنه أكثر عرضة للإصابة بالتهاب الزائدة مرة أخرى ، أي انها عملية وقائية .

ثالثا : إذا كان المريض قد أتى بعد زوال الأعراض ـ أي انه أصيب بالتهاب الزائدة ثم شفي تلقائيا ـ فلا ضرورة لإجراء عملية جراحية عاجلة ، ولكن يفضل إجراء العملية في وقت آخر وقاية من التهاب الزائدة مرة أخرى .

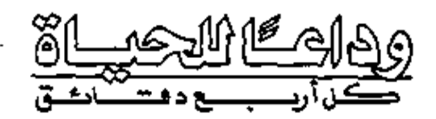
رابعا : في المناطق النائية التي لا تتوافر فيها الخدمات الجراحية ، وحيث لا يمكن نقل المريض إلى مستشفى آخر «بسبب انسداد الطرق نتيجة الثلوج أو أي سبب آخر» ، فليس أمام الطبيب إلا تخفيف الألم بالعقاقير المسكنة كالمورفين مثلا ، وإعطاء السوائل بالوريد والمضادات الحيوية ، ويؤدي هذا العلاج إلى شفاء بعض الحالات . ◻



● قال عبدالملك بن مروان : «أربعة لا يستحى من خدمتهم : الإمام والعالم والوالد والضيف» .



بقلم: محمود المراغي



الأطفال دائما ..

هكذا تقول منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة، والمعروفة باسم «اليونيسيف».

فعندما تنشب الحرب، أو تشتد الأزمة الاقتصادية، وتلقي بظلالها على كل شيء، ابتداء من العناية بالصحة والتغذية، وامتدادا للقسط المتاح من التعليم. عندما يحدث ذلك يكون في مقدمة الضحايا: البراعم الصغيرة التي لم يشتد عودها.

ينصرف الاهتمام عادة إلى الآثار المباشرة لهذه الأزمة أو تلك، ولهذه الحرب أو تلك. وفي العادة تهتم الدراسات والتقارير بعدد القتلى والجرحى، وحجم الإنفاق العسكري، ومقدار الانكماش الاقتصادي، وتأثر مرافق الإنتاج، وزيادة حجم التضخم، إلى آخر هذه المؤشرات التي تعكس وطأة الأزمات والمشاكل، وخروجا على هذا السياق، تأتي الأرقام التي تنشرها «اليونيسيف» هذه المرة لتشرح حالة بعينها: تأثير التمييز العنصري والحروب والاضطرابات على أطفال البلدان التسعة المجاورة لجنوب أفريقيا الذين تأثروا بشكل غير مباشر.

البلدان التسعة كما هو معروف: أنجولا، بتسوانا، ليسوتو، مالاوي، موزمبيق، سوازيلاند، تنزانيا، زامبيا، وزيمبابوي. أما عدد الأطفال الذين تأثروا - طبقا لتقرير صادر عام ١٩٨٨ - فهو: خمسة عشر مليون طفل.

والآثار عديدة: الوفاة، والمرض، والإصابة بسوء التغذية، التخلف عن التعليم، الحرمان من معظم أسباب الحياة. بالأرقام أيضا يقول التقرير إن وفيات الأطفال في بعض هذه البلدان قد ارتفعت بنسبة ٧٥٪.

الدمار

في السبعينيات استقلت أنجولا وموزمبيق عن البرتغال، ولكنهما تعرضتا للقتال، والاحتلال، والغزوات، والضغوط الاقتصادية، واستنزاف الموارد.

وكأي بلد حديث الاستقلال كان الإنفاق واسعا لتحسين معيشة الفقراء، وتحسين المستوى الاقتصادي، والعناية بالصحة بما فيها صحة الأم والطفل، وتوفير الغذاء، والتحصين والعلاج، والمياه الصالحة للشرب.

لكن مع صعود الأحداث في الثمانينيات انتكست كل هذه الجهود، وفي بلد واحد هو موزمبيق تم تدمير ٥٨٥ مركزا للصحة، وهو ما يعادل نصف المراكز على وجه التقريب. كذلك تم تدمير أو تهجير ثلث المدارس، وبقي نصف مليون تلميذ بالمرحلة الابتدائية بلا تعليم!

وفي التفاصيل نجد الإرهاب الجماعي قد أصبح أسلوبا متبعا . فتهجم القوات لتحرق المزارع والمحاصيل ، وتنهب المدارس والعيادات والكنائس والمساجد والمخازن والقرى ، وتدمر شبكات المواصلات ، وتسمم الآبار بإلقاء جثث القتلى فيها ، وتنزل الرعب بالتلاميذ والمدرسين وموظفي الصحة والموظفين الذين يحملون المعونات الأجنبية وإمدادات الدواء والغذاء .

نفس الشيء بالنسبة للمرافق الاقتصادية : المصانع ومنشآت النفط والمناجم وحقول الشاي .

إنها حرب بربرية ، وحشية ، لا تعرف أي معنى من معاني الانسانية .

وهذه الخسائر الضخمة :

في صراحة ووضوح تقول منظمة « اليونيسف » : نعم ، كانت خسائر الحرب الاقتصادية والعسكرية بسبب سياسة التمييز العنصري في جنوب افريقيا ، خسائر ضخمة وغير عادية .

وفي محاولة لحصر هذه الخسائر منذ عام (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) نجد هذه الأرقام المفزعة .

* خسائر انجولا سبعة عشر مليارا من الدولارات .

* خسائر موزمبيق (٥,٥) خمسة مليارات ونصف مليار دولار .

* خسائر الدول السبع الأخرى المحيطة بجنوب افريقيا : خمسة مليارات من الدولارات .

أما الخسائر البشرية فهي مائة ألف قتيل في دولتين فقط هما انجولا وموزمبيق ، ومع ذلك فإن معظم الوفيات ليست ناجمة عن الحرب بشكل مباشر ، لكنها ناجمة عن سوء التغذية ، والاسهال ، والالتهابات التنفسية الحادة ، وهي أمراض كان التحصين منها أمراً ميسورا ولا يكلف عدة دولارات للفرد الواحد .

لكنه الخراب ، ذلك الذي دفع بقوى عنصرية غاشمة ، وقوى دولية طاغية لتفترس ذلك الجزء البعيد من القارة الأفريقية ، ليس في ساحة حرب شريفة ، وإنما في ساحة حرب قذرة امتدت إلى الطفل الرضيع ، والطفل الذاهب إلى مدرسته ! .

لقد كان الهدف في الدولتين الأكثر تأثرا (انجولا وموزمبيق) الانخفاض بمعدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة ، وبينما كان المعدل (٢٠٠) طفل بين كل ألف ، أصبح المعدل بسبب الحروب والاضطرابات والتدمير وحرب التجويع : (٣٢٥) بين كل ألف ولادة . ! أي أنه من بين كل ثلاثة أطفال يرحل واحد عن هذا العالم ، أو : بحساب آخر يموت طفل كل أربع دقائق ، ومات (١٤٠) ألف طفل عام ١٩٨٧ في انجولا وموزمبيق .

ربما يكون الأمر قد تكرر بصورة أو بأخرى في مناطق التوتر الأخرى في العالم ، في الخليج أو لبنان أو جنوب السودان أو أجزاء من شبه القارة الهندية ، وربما تركت الأزمة الاقتصادية آثارها على أفريقيا جنوب الصحراء حيث الجفاف والتصحر ونقص الغذاء والدواء ، وربما تأثر أطفال الدول النامية بشكل عام بذلك الجبل من الديون التي ترزح تحتها شعوبهم ، بل ربما يتأثر الأطفال بسبب سياسة صندوق النقد الدولي . كما أثبتت دراسة علمية لأستاذة الاقتصاد الدكتورة كريمة كريم .

ربما يحدث ذلك في هذا المكان أو ذاك من العالم ، وربما قلنا : الأطفال ، شهداؤنا الأبرياء ، إنهم المعذبون بلا ذنب ، ولكن أليس الجنوب الأفريقي حالة خاصة ؟ .

أظن ذلك ، وأظن أننا قد وضعنا يدنا على دليل إدانة إضافي للتمييز العنصري ، وموقف الدول الاستعمارية التي تعبث في الجنوب ، وإن كان السؤال : ماذا بعد التغيرات السياسية الأخيرة ؟ . □

العربي - العدد ٣٦٤ - مارس ١٩٨٩ م

معايير قيمة العمل عند ابن خلدون



بقلم : الدكتور فاروق النبهان

على الرغم من فيض الدراسات الحديثة عن ابن خلدون وفكره فإن الدارسين مازالوا يجدون فيها الكثير مما يستوجب تحليله ودراسته ، وهذه لمحة من لمحات ابن خلدون مقارنة بمثلها للإمام الغزالي ، وهما شاهدان من شواهد العبقرية العربية ، عندما كانت تبدع وتضيف للفكر الإنساني . فهل يتمكن الخلف من تطوير ما أبدع السلف ؟

■ والصناعة هي إحدى وجوه المعاش ، لأنها عمل إنساني ، والكسب هو قيمة ذلك العمل الذي يبذله الأفراد في الصنائع المختلفة ، ذلك أن الكسب لا يتم إلا عن طريق السعي والجهد ، وهذا السعي والجهد هو العمل ، والأجر هو قيمة ذلك العمل ، وهو مايسمى بالرزق ، وكلمة الرزق أعم من الأجر ، ذلك أن الرزق يطلق في نظر ابن خلدون على المال المنتفع به الحاصل عن طريق الكسب ، سواء كان معاشا أو متمولا ، ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته ، من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا . وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه وحاجاته ، فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا ، والمتملك منه حوزه يسمي العبد وقدرته يسمى كسبا ، وهذا مثل التراث .

فإنه يسمى بالنسبة إلى المالك كسبا ولا يسمى رزقا» (مقدمة ابن خلدون ص ٦٧٩) .

«والرزق بهذا المفهوم ليس هو الكسب ، إذ الكسب يشمل ما يكسبه الإنسان نتيجة عمله ، سواء عن طريق السعي أو بغير سعي ، ذلك أن الانسان محتاج إلى الكسب للإنفاق على نفسه ، إذ لا يمكنه الإنفاق بغير كسب ، إلا أن الإنسان قد ينفق جميع مايكسبه ، وقد ينفق أكثر منه أو أقل منه ، فإن أنفق أقل من كسبه استطاع أن يدخر جزءاً من دخله ، لكي ينفقه فيما بعد في مواطن أخرى ، وإن كان كسبه لايلبي جميع حاجاته ومطالبه اضطر للاقتراض أو للاعتماد على مصادر أخرى ، لتغطية العجز الناتج عن زيادة الإنفاق عن مقدار الكسب . وبعض العلماء يطلق كلمة الرزق على الكسب الذي ينتفع به صاحبه ، وبعضهم - كالمعتزلة - لا يطلق كلمة الرزق إلا على المال الذي يصح تملكه ، وما لايتملك عندهم فلا يسمى رزقا ، وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا» (المقدمة ص ٦٧٩) .

الكسب قيمة للعمل

والكسب في جميع الأحوال لايتصور إلا من طريق العمل الإنساني ، لأنه قيمة لذلك العمل . ولا يمكن للعمل أن ينتج كسبا ، ذلك أن الإنسان لايمكن أن يبذل جهدا دون قيمة ، لأنه محتاج إلى تلك القيمة ، لكي ينفقها على نفسه ، ولهذا فلا بد أن تكون قيمة العمل معادلة لحجمه ، من حيث المقدار ، والحد الأدنى الذي يحدد قيمة العمل هو مقدار الحاجة ، إذ لايمكن لقيمة العمل أن تقل عن الحاجة ، لأن العمل هو وسيلة للمعاش ، ولا يتحقق المعاش إلا بكمال الكفاية ، ولا تكون الكفاية إلا بأن تكون قيمة العمل مساوية على الأقل لتلبية حاجات الإنسان الضرورية ، من غذاء وملبس ومسكن ، يكفيه ويكفي من تلزمه نفقتهم من أفراد أسرته .

وتؤكد الآية الكريمة هذا المعنى : «فابتغوا عند الله الرزق» والرزق يتم بالعمل ، والعمل يجلب الرزق ، والرزق هو مايكفي الإنسان ، فإن كان ابتغاء الرزق عن طريق العمل لا يوفر كمال الرزق الضروري ، فإن من المؤكد أن قيمة العمل كانت مجروحة ، ولا بد في هذه الحالة من إعادة النظر في قيمة العمل لكي يكون رزقا كافيا ، لأن الآية القرآنية عندما طلبت ابتغاء الرزق عن طريق العمل والسعي ، أشارت إلى أن ذلك الابتغاء يوفر الرزق ، أي أن العمل يحقق الكفاية .

هذه نقطة جديرة بالاهتمام والدراسة ، وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يشر إليها صراحة ، إلا أنها يمكن أن تكون مستفادة من آرائه في قيمة العمل ، وهي قضية - في رأيي - منطقية وسليمة ، إذ لايمكن تصور قيمة العمل إلا من خلال ربط ذلك العمل بمفهوم الذي يدخل ضمن متطلبات المعاش ، وموجبات العيش ، ولو كانت قيمة العمل أقل من متطلبات العيش ، لما دعا القرآن الكريم إلى ابتغاء الرزق عن طريق العمل ، إذ ليس من العدل أن يحصل الابتغاء ، ولا يحصل الإنسان على كمال الرزق الضروري المحقق للحد الأدنى من الحاجة .

أهمية تحديد قيمة العمل

إن تحديد قيمة العمل أمر ضروري ، لأن التوازن بين العمل وقيمته يحصل به ، وبه يمتنع الظلم ، لأن العمل محدد ، وقيمته غير محددة ، والشيء الوحيد الذي يحدد تلك القيمة هو الحاجة ، وبهذا المفهوم تصبح قيمة العمل خاضعة لقيم الحاجات السائدة في الأسواق ، لأن النقد ليست له قيمة محددة ، وإنما يحدد قيمته حجم أثره في المجتمع ، ولهذا فإن قيمة النقد تختلف باختلاف المكان والزمان ، وترتبط بمقدار الأثر الذي يوفره ذلك النقد ، ولهذا فإن من المنطقي أن تكون قيمة

العمل في المدن الكبيرة أكبر من قيمة العمل في المدن الصغيرة ، لارتفاع قيم الحاجات الأخرى .

ويعبر ابن خلدون عن ظاهرة ارتفاع النفقات الضرورية في المدن بقوله : «والمصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه ، وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف ، وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها ، فتنقلب ضرورات ، وتصير الأعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة ، والمرافق غالية ، بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف ، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات ، وتعتبر في قيم المبيعات ، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال ، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ، ويعظم خرجه ، فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله ، في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم» . (ص ٦٤٩) .

وبهذا الاعتبار فإن قيمة العمل ليست محددة ، ولا يمكن أن تكون محددة ، لأن التحديد يخرج بها عن مفهوم الابتغاء لأجل الرزق ، والرزق لايتجزأ . فالابتغاء لتحقيق بعض الحاجة لايحقق كمال الرزق كما قلنا ، ووفقا لهذا المفهوم فإن قيمة العمل تتزايد في مجتمعات الترف ، وفي ظل عوائد الترف ، لأن ذلك الواقع يجعل أسعار الضروريات مرتفعة ، ويجعل مطالب العيش متعددة أيضا ، إذ أن مفهوم الضرورة لايمكن أن يكون واحدا في كل من مجتمع المدينة ومجتمع القرية ، لأن مطالب القرية المنعزلة ليست هي مطالب المدينة ، فالإبل والغنم والبقر والدجاج والخيل والأرض قد تكون أشياء ضرورية في مجتمع القرية ، لأنها توفر وسائل العيش الضرورية ، كاللحم واللبن والحليب والبيض والزرع ، وفي المقابل فإننا نجد أن حياة المدينة تتطلب أشياء أخرى ، ليست هي مطالب القرية نفسها ، فالبيت والتأثيث ، ووسائل النقل ، والكهرباء ، والمذياع والتلفاز والثلاجة هي مطالب ضرورية لحياة المدينة ، إذ لايمكن لمجتمع المدينة أن يقبل قيمة للعمل لاتوفر هذه الحاجات الضرورية .

ويرى ابن خلدون أن النفقات تكثر مع زيادة العمران ، لارتفاع الأسعار في المرافق والأقوات ، وبالتالي فإن قيمة العمل تتزايد مع ازدياد العمران ، لكي تلبي جميع الحاجات الضرورية . وكلمة الحاجات الضرورية لاتقتصر على الغذاء والأقوات والملابس الضرورية ، وإنما تتعدى تلك الحدود لكي تكون معبرة عن معنى الكفاية المادية لحياة إنسانية سليمة ، يعيش الإنسان فيها من غير قهر أو ذل أو حاجة .

معيار تحديد قيمة العمل

معيار تحديد قيمة العمل عند ابن خلدون يرجع إلى العوامل التالية :

العامل الأول : مقدار العمل :

والقدر هنا هو قدر مادي وكيفي ، وهذا القدر يعتبر عاملا أساسيا في عوامل تحديد قيمة العمل ، ويمكن أن يحدد ذلك العمل من خلال الزمن ، باستعمال المعيار الزمني ، وهو عنصر أساسي في تحديد قيمة العمل ، لأن العمل الذي يستغرق يوما كاملا لايمكن أن تكون قيمته مساوية للعمل الذي يستغرق ساعة أو بعض ساعة ، ولا يعني هذا أن تكون قيمة الساعة الزمنية أقل من قيمة اليوم الكامل ، ذلك أن هناك عوامل أخرى ، لاتقل أهمية عن المعيار الزمني ، كالمعيار المادي ، إذ أننا نجد أحيانا أن قيمة عمل الساعة الزمنية في بعض الأعمال والصناعات تفوق قيمة عمل يوم كامل من صناعات أخرى أقل أهمية وأقل ندرة .

وإذا كان للمعيار الزمني عاملا من عوامل التحديد ، يؤخذ به في مجال تقويم قيمة

الأعمال ، فإن ذلك يكون في إطار العمل الواحد ، أو المتماثل في الكفاءة والترف والندرة ، فأجر الساعة بالنسبة لعامل البناء لايمكن أن يعادل أجر يوم كامل لعامل بناء آخر ، في نفس الكفاءة وفي نفس المدينة والزمان ، ولكن ذلك المعيار لايمكن الأخذ به في مجال تقويم قيمة العمل بالنسبة ليوم عمل لعامل بناء ، ويوم عمل لمهندس مختص بالبناء ، لاختلاف طبيعة المهنة ، وحجم أثرها في ميدان العمل ، فالساعة الزمنية للمهندس المعماري تعادل أضعاف قيمة الساعة الزمنية لعامل بسيط ، لأن حجم إسهام المهندس أكبر وأكثر ندرة ، فضلا عن أن المهندس قد صرف وقتا طويلا في الإعداد ، لكي يتمكن من أن يكون عطاؤه خلال الساعة الزمنية متجاوزا حدود العمل اليدوي البسيط .

العامل الثاني : شرف العمل . والمراد بشرف العمل أن يكون موطن العمل وموضوعه شريفا ، كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب ، وهذه صناعات شريفة ، وهناك صناعات أخرى أقل شرفا ، كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة .

وأعتقد أن معيار الشرف في تحديد طبيعة الأعمال لايمكن إخضاعه لمعيار دقيق ، ذلك أن ذلك المعيار معيار نسبي ، يحدده المجتمع ، وقد تتغير نظرة المجتمع إلى صناعة من الصناعات ، فتنتقل تلك الصناعة من صناعات غير شريفة إلى صناعات شريفة ، أو العكس من ذلك .

وقد عبر ابن خلدون عن شرف الصناعات فقال :

«اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة ، لكثرة الأعمال المتداولة في العمران ، فهي عديدة بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد ، إلا أن منها ماهو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع .. فأما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة ، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب» (المقدمة ص ٧٢٢) .

ويفهم من كلام ابن خلدون أن ماهو ضروري في العمران ليس صناعة شريفة ، وهذا معيار لايمكن التسليم به ، ولا أظن أن استعمال كلمة «الشرف» بالنسبة للصناعات مما يحسن استعماله ، ويمكن استبدال كلمة الشرف



بكلمات أخرى أكثر دلالة عن معنى التخصص والدقة ، مما يتطلب معه كفاءات عقلية رفيعة ، فالطب مثلا ليس أكثر شرفا من البناء . ذلك أن معنى الشرف يدل على معانٍ عدة ، قد يكون في إطلاقها على العموم ما ينافي قيم الشرف والفضيلة . ولكنا نستطيع القول بأن مهنة الطب تتطلب كفاءة عقلية متفوقة ، وجهدا علميا كبيرا ، وإعدادا طويلا ، ولهذا فإن قيمة العمل في الطب أكثر من قيمة العمل في البناء ، ولا يمكن التسليم أيضا بأن ماكان موطنه الصحة أو الإنسان ، هو أكثر مما كان موطنه الأرض أو الجماد أو النبات ، فالحجامة مهنة ليست شريفة ، مع أن موضوعها الصحة وموطنها الإنسان . وفي المقابل فإن صناعة الذهب مهنة شريفة مع أن موضوعها المعدن ، والمعدن مهما كان نفيسا وغاليا لايمكن أن يكون أشرف من الإنسان .

مفهوم الشرف عند الغزالي :

تحدث الإمام الغزالي عن مفهوم الشرف خلال كلامه عن فضيلة العلم وتعلمه ، وأشار إلى أن الفضيلة مأخوذة من الفضل ، وهو الزيادة ، وليس المراد أي زيادة ، من حيث الكم المادي ، وإنما المراد الزيادة المؤدية إلى الكمال ، فقد تكون الزيادة فضيلة في شيء ولا تكون كذلك في شيء آخر ، كالعدو ، فهو فضيلة في الفرس ، وقد يكون كذلك بالنسبة لسائر الحيوانات ، لأن من فضائل الفرس العدو لأنها معدة للكَرّ والفَرّ ، وقد لاتكون سرعة الجري فضيلة على الاطلاق .

ومعيار الشرف أن الأشياء النفيسة المرغوب فيها تنقسم إلى أقسام :

- ماهو مطلوب لذاته .
- ماهو مطلوب لغيره .
- ماهو مطلوب لذاته ولغيره .

وما يطلب لذاته أشرف مما هو مطلوب لغيره . فالدراهم مطلوبة لغيرها ، لأنها آلة لقضاء الحاجات ، وليس لها شرف ذاتي ، لأنها مجرد معادن ، قد ترمى عند إهمال التعامل بها ، بخلاف سلامة البدن ، فهي مطلوبة لذاتها ولغيرها ، فالصحة فضيلة بحد ذاتها ، ومطلوبة لذاتها ، وهي في الوقت نفسه مطلوبة للتوصل بها إلى تحقيق الحاجات والمآرب .

والعلم مطلوب لذاته ولغيره ، فهو لذاته لذيذ ومطلوب ، وهو في الوقت نفسه وسيلة للسعادة الأخروية ، ولذلك فصناعة العلم صناعة شريفة .

وتنقسم الصناعات عند الغزالي إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ أصول لاقوام للعالم دونها ، وهي أربعة : الزراعة وهي للمطعم ، والحياكة وهي للملبس ، والبناء وهو للمسكن ، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

٢ ـ صناعات خادمة للأصول ومهيئة لها ، كالحدادة فهي صناعة خادمة للزراعة .

٣ ـ صناعات متممة للأصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ، والقصارة والخياطة للحياكة .

وأشرف الصناعات في نظر الغزالي ، أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات» (الأحياء ص ١٣) .

معيار الشرف عند الغزالي :

ويرى الغزالي أن معيار معرفة الشرف أمور ثلاثة :

ـ الأول : بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها ، كفضل العلوم العقلية على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع .

ـ الثاني : بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة

على الصياغة .

- الثالث : بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كتفضيل الصياغة على الدباغة ، إذ محل إحداهما الذهب ومحل الأخرى جلد الميتة (الأحياء ص١٣) .

ولا يمكننا أمام هذا التحليل العلمي الدقيق الذي يقدمه الإمام الغزالي لمفهوم الشرف والمعايير الموضوعية التي يعرف بها ، إلا أن نسلم بدقة الغزالي ، وعمق منهجه العلمي ، وقدرته على الاقناع المنطقي ، ذلك أن معايير الشرف في رأيه تعرف من خلال الغريزة الفطرية ، أو عموم النفع أو ملاحظة المحل ، وجميع تلك المعايير يمكن السيطرة عليها ، وإدراكها بسهولة ويسر ، لأنها مما يمكن الاقتناع به .

ولاشك أن معيار النفع جدير بأن يكون معيارا في ميدان الصناعات ، يحدد به شرف الصناعات ومكانتها ، ذلك أن النفع هو الذي يحدد قيمة الصناعة وشرفها ، إذ لايمكن أن نعطي لمفهوم الشرف معنى ذاتيا بعيدا عن حاجة الإنسان .

وكيف يمكن أن يكون الغناء أشرف من الفلاحة ، مع أن الغناء يمثل حاجة كمالية ، يمكن الاستغناء عنها ، ولا يتأثر المجتمع بذلك ، بخلاف الفلاحة فهي من الأصول ؟ ولهذا فقد اعتمد الإمام الغزالي تقسيم الصناعات من حيث الحاجة إليها إلى ثلاثة أقسام ، واعتبر الصناعات التي «لا قوام للعالم دونها» ، هي الأصول ، واعتبر الفلاحة من الأصول ، كما اعتبر من الأصول كلا من الحياكة والبناء والسياسة ، وتلك هي أشرف الصناعات .

ولعل سبب الاختلاف بين نظرة ابن خلدون والغزالي ، أن ابن خلدون ينظر لمفهوم الشرف من خلال صلة ذلك بالسلطان والعمران أولا ، ومن خلال تميز أصحاب الصناعات بالكفاءة العقلية ، وهو ما يسميه بالملكة .

ونظرة ابن خلدون ذات طبيعة حضارية ، ذلك أنه ينظر للشرف ليس من معيار الحاجة ، وإنما من معيار التفوق العقلي والذهني ، ولهذا فإن صناعتي الفلاحة والبناء ليستا من الصناعات التي تحتاج إلى تفوق ومران .

وعلى الرغم من اعتراف ابن خلدون بأهمية صناعة الفلاحة ، وحاجة الناس إلى الأقوات ، فإنه يعتبرها من الصناعات التي تختص بها البدو ، وهي صناعة بدوية ، لايعرفها الحضر ، ولا يقومون بها ، لأن حياتهم في المدن مانعة لهم من الانصراف إلى صناعة الفلاحة .

وفي الوقت نفسه يرى ابن خلدون أن بعض الصناعات ، كالكتابة والوراقة والغناء ، تنال صفة الشرف ، لأنها مما يساعد على مخالطة الملوك الأعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم ، فلها بذلك شرف ليس لغيرها ، وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب (المقدمة ص٧٢٣) .

وهذه نظرة قد تكون سائدة في عصر ابن خلدون ، ذلك أن الشرف في معظم معانيه هو ما يجعل صاحبه في موطن الاعتزاز والفخار به ، والصناعة الشريفة هي الصناعة التي تجعل صاحبها في موطن التفوق والاعتزاز ، وهي بهذا الاعتبار تخضع لقيم المجتمع وتصوراته ، والصناعات ذات الصلات بالفكر والثقافة هي صناعات شريفة ، لأنه لا ينالها إلا أصحاب التميز الثقافي والعقلي ، كما أن الصناعات التي تساعد صاحبها على مخالطة الملوك تعتبر صناعات شريفة ، وهذه نظرة خلدونية ، ذلك أن ابن خلدون كان من المغرمين بمخالطة الملوك والأمراء ، ويرى في ذلك شرفا وتميزا ، ولذلك فلا غرابة أن يجعل تلك المخالطة مما يدعو للشرف .

العامل الثالث : حاجة الناس إليه

ويعتبر هذا العامل من أهم العوامل المؤثرة في تحديد قيمة العمل ، وإذا كان العاملان الأولان وهما : مقدار العمل وشرفه ، من العوامل التي



تتحدد على أساسها قيمة العمل ، فإن حاجة الناس إلى ذلك العمل تعتبر عاملا أكثر أهمية في تحديد قيمة العمل .

ومن هذا المنطلق ، وهو منطلق الحاجة ، ترتفع قيم بعض الأعمال إذا كانت ضرورية ، وبخاصة فيما تشتد الحاجة إليها ، ولهذا فإن ابن خلدون يخصص فصلا خاصا للحديث عن أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ، ونحو ذلك ، لاتعظم ثروتهم في الغالب ، والسبب في ذلك أن الكسب ـ كما قدمناه ـ قيمة الأعمال ، وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران ، كانت قيمتها أعظم ، وكانت الحاجة إليها أشد ، وأهل هذه الصنائع الدينية لاتضطر إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ماعندهم الخواص ممن أقبل على دينه ، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر (ص ٧٠٦) .

وهذا النص يؤكد مذهب ابن خلدون في قيمة العمل ، وهو حجم الحاجة إليه ، فإذا كانت الحاجة إلى العمل كبيرة كانت القيمة كبيرة ، وإذا أمكن الاستغناء عن ذلك العمل لقلة الحاجة إليه كانت قيمته بحسب الحاجة ، والحاجة قضية نسبية ، فقد تكون الحاجة في وقت دون آخر ، وقد تكون في زمن دون آخر ، لأنها مما يخضع لمعيار نسبي ، وشخصي ، فقد تكون حاجة شخصية أو اجتماعية .

وإن قيم الأشياء بشكل عام ، وليس فقط قيم الأعمال ، تخضع لمقدار الحاجة ، وكلما اشتدت الحاجة إلى شيء ارتفع سعره ، وكذلك بالنسبة للأعمال ، فالأعمال التي تشتد حاجة المجتمع إليها تكون قيمها مرتفعة ، وتزداد ارتفاعا كلما نقص عدد القادرين على القيام بتلك الأعمال ، وتدخل عندئذ ضمن قانون الندرة ، وقانون العرض والطلب .

وأهل الصنائع الدينية في الغالب لاتعظم ثروتهم ، لعدم الحاجة إلى تلك الصنائع ، ولعدم حاجة معظم الناس إلى الاستعانة بهم ، ويستثنى من ذلك فئة من الخواص المقبلين على دينهم ، ويبدو أن ظاهرة الاستغناء عن العلماء كانت من مظاهر ذلك العصر ، ولهذا فإن ابن خلدون قد سجل ذلك ، واستشهد بهذه الظاهرة للحديث عن قيم الأعمال ، وأن تلك القيم تحدد من خلال حاجة الناس إليها .

وهناك سبب آخر أشار إليه ابن خلدون ، ولعله السبب الأهم ، وهو أن العلماء «لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة ، المشتملة على أعمال الفكر والتدبر ، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا ، لشرف صنائعهم ، فهم بمعزل عن ذلك» (المقدمة ٧٠٢) .

معايير متحركة

ولاشك أن العوامل الثلاثة التي ذكرها ابن خلدون وهي : مقدار العمل ، وحاجة الناس

إليه ، هي التي تحدد قيمة ذلك العمل ، ولذلك تختلف قيم الأعمال بحسب تلك الاعتبارات ، مما يجعل تلك القيم خاضعة لمعايير متحركة ، تتناسب بحسب التطورات الزمانية والظروف المكانية والحاجات الاجتماعية ، ولاعجب في ظل هذا الواقع أن يقع الاستغلال بشكل بشع في تحديد تلك القيم ، ذلك أن الطرف الأقوى قادر على استغلال الطرف الأضعف ، وفرض شروطه بطريقة لاتترك حرية الاختيار للطرف الآخر ، مما يجعل الأجور خاضعة ليس لمعيار القيمة الحقيقية للعمل ، وإنما تخضع للظروف العامة التي تحيط بذلك العمل ، من حيث القدرة التفاوضية لأطراف عقد العمل .

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث عن مقدار العمل وشرفه وحاجة الناس إليه كمعايير دقيقة لتحديد قيمة العمل ، فانه لم يتحدث عن عامل خارجي لايمكن إنكار أثره في تحديد قيمة العمل ، وهو التنافس في تحديد قيمته ، والتنافس يضعف القدرة التفاوضية لأحد أطراف العقد ، وهو الجانب الذي يجد نفسه مضطرا للقبول بقيمة للعمل أقل من القيمة الحقيقية ، بسبب كثرة العاملين ، وتنافسهم عليه ، مما يجعلهم في وضع استسلام للقيمة المعروضة .

وقد تحدث ابن خلدون في موطن آخر عن قيمة العمل ، واعتبر أن اغتصاب قيمته كله أو جزء منه ، يدخل ضمن الظلم المؤذن بالخراب . ذلك أن العمل هو وسيلة الكسب ، فإذا انتقص حق الإنسان بطل كسبه ، وإذا بطل كسبه وقع الظلم عليه ، وانتقص بذلك العمران البشري ، لأن العمران مرتبط بالمعاش ، وسلامة المعاش هو وسيلة العمران ، ولذلك فإن انتقاص قيمة العمل يعتبر من الظلم الذي يؤدي إلى عواقب سيئة .

وقال في صدد ذلك :

«فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك . فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم ، واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم ، واغتصبوا قيمة عملهم ذلك ، وهو تمولهم ، فدخل عليهم الضرر .» ◻



● طلب الطبيب الأمريكي رونالد جراي الطلاق من زوجته ماري، قال لقاضي محكمة لاس فيجاس:

- إن زوجتي يا سيدي مغرمة بتربية الفئران البيضاء، لقد أخفت عني هذه الهواية عندما تزوجتها، ولكني فوجئت بعد ذلك بفئرانها البيضاء في كل ركن من أركان المنزل، في غرفة النوم، على منضدة الطعام، تحت الوسادة. وقد تحملت ذلك كله، ولكن عندما شاهدتها تقبل فئرانها كل مساء قبل أن تأوي الى الفراش لم أعد أتحمل هذه الحياة!! . وردت الزوجة، فقالت: إن زوجها يغار من الفئران.

ولم يقتنع القاضي بهذه الحجة فأصدر حكمه بالطلاق.



(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

بين اليأس والرّجاء

صوتان لا بد أن يرتفعا في كل أمة ، ويجب أن يتوازنا ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر ، صوت يبين عيوب الأمة في رفق وهوادة ، ويستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها ، وصوت يظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها . والصوتان معا إذا اعتدلا كونا موسيقا جميلة متسقة تحدو الأمة إلى السير إلى الأمام دائما ، هي موسيقا الجيش تبعث الرجاء والأمل ، وتوحي بالنصر والظفر ، فان بغى أحد الصوتين كانت موسيقا مضطربة تهوش النفس وتدعو إلى الفوضى والارتباك ، وإذا كان « النشوز » في الموسيقا يكون منسجما كله ، ويشذ أحد أصواته لحظة فيكون « نشازا » يخدش السمع ويجرح النفس ، فما ظنك « بنشوز » كله « نشاز » ؟

مما يدعو إلى الأسف أن صوتا في الشرق علا كل صوت ، وهو ليس خير الأصوات وأحبها إلى النفس ، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة ، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطب فيهم ليسوا مؤمنين حقا ، فقد ارتكبوا من الأوزار ، واجترموا من الآثام ما أخرجهم عن الإيمان الحق ، وأبعدهم عن الدين الصحيح ، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء ، أو خسف بهم الأرض ، ثم يصب هذا المعنى كل أسبوع في قالب ، وكل القوالب تختلف أشكالها ، ويتحد معناها ، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس ، وانقطع به الرجاء ، إلا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل .

ودعاة اللغة والأدب يلحون في أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية ، وأن الأدب الأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم ، ولا شيء من ذلك في الأدب العربي ، وأن من شاء أن يفتح عينه فليفتحها على أدب أجنبي ولغة أجنبية ، وإلا ظل أعمى ، وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق في لغته وأدبه إلى الغرب في لغته وأدبه ، لا أن يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب .

ودعاة الاجتماع كذلك ولمو ، فليس في الشرق كله ما يسر ، قد جرده الله من كل حسن ، فلا طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة ، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو الى الاعجاب ، والقمر في الغرب أشد نورا منه في الشرق ، والبحر الأبيض قد جمل منه ما لامس الغرب ، وقبح ما لامس الشرق ، وكل شيء في عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس ، وينفر منها الطبع ، وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ما شاء لمن شاء قد جمع الحسن كله في ناحية ، وقال له كن الغرب فكان ، وجمع القبح كله في ناحية وقال له كن الشرق فكان . وهم اذا لم يقولوا ذلك كله جهارا آمنوا به إيمانا ، وصدرت عنه أقلامهم ، واتجهت اليه حياتهم .

ودعاة العلم من هذا الطراز ، فكتب العلم العربي إنما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار ، وماذا فيها الا تخريف أو تحريف ، قد كانت نتاج القرون الوسطى ، ونحن نتاج العصر الحديث . ومالي وللسياسة ودعاتها فالآخرون منها اتقاء نارها . وجالسنا صدى لهذا الصوت ، فلذا استثنيت عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق ، وطعن في حياة الشرق ، وتهجم على حال أمتهم ، وتجهم لكل ما يصدر منهم . وقلّ أن تسمع صوتا ينطق بمدح او بعجب ببطولة ، او يتغنى بعمل مجيد .

هذه نغمة مملولة كانت أجني على الشرق من كل عيوبه ، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها ، ومجد طارف وتليد تعتد به ، وتوجيهات قومية تدعوها الى الفخر والاعجاب .

تلك ظاهرة نفسية لا مجال لانكارها ، فاعتقد الغباوة في طفلك وكرر عليه اعتقادك تقتل كل ما فيه من ذكاء ، وأعلن أنه ذكي وشجعه على ما يبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ما عنده من عقل . وفي المثل الانجليزي « ادعوا الكلب عقورا فشنق » يعنون أنهم اعتقدوا في كلب سوءا وسموه عقورا وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما استوجب قتله .

لقد سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج ، ولمددت يده لانتشاله ، كفّر عن سقطته وعاد الى حاله ، وان أنت أريته أن سقطته لا تغتفر ، وأنه لم يصبح انسانا استمر يسقط أبدا . وكثير من الساقطين والساقطات لو أحسوا في الناس استعدادا لقبولهم ، وشعروا أنهم يفسحون لهم في صدورهم لعدلوا عن سقطتهم ، ونهضوا من عثرتهم .

***

وبعد ، فليس الشرق بدعا من الخلق ، إن امتاز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه . وان كان لكل أمة غربية محاسن ومساو فللشرق محاسنه ومساويه ، وان كانت مساوي الغرب لم تمنعه من نهوضه فلم تمنع الشرق مساويه من نهوضه ؟ أليس أحرى للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم .

أيها الدعاة : كسروا قيثارتكم هذه التي لا توقع الا نغمة واحدة بغيضة ، واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعتها طِبٌّ بأدواء النفوس عليم ، وأكثروا من ألحان تبعث الأمل ، وتدعو الى العمل ، وتزيد الحياة قوة ، ولا تشهروا برذيلة الا إذا أشدتم بفضيلة ، ولا تسمعونا صوت المعاول ، إلا اذا أريتمونا حجر البناء .

الدكتور أحمد أمين

مجلة الرسالة العدد السادس عشر أول سبتمبر ١٩٣٣



كتاب العربي مرآة العقل العربي



بقلم: الدكتور محمد عمارة

مازال قضية المرأة ومكانتها في المجتمع وعلاقتها بالرجل، تثير النقاشات الخلافية وبخاصة في العقدين الأخيرين. وتحاول بعض القوى والتيارات تفسير الدين الاسلامي وأحكامه في اتجاه سلب المرأة حقوقا حصلت عليها مع أن الرؤية المدققة للمنهج الاسلامي تؤكد غير ما يذهبون إليه.

من أصدق وأدق المصطلحات وأشملها في التعبير عن صنيع الاسلام وإنجازه الذي أحدثه ويحدثه بالنسبة للإنسان، مصطلح: «الإحياء»! فالإسلام إحياء كامل وعميق ودائم لكل من استجاب لدعوته، والتزم بمنهجه وسلك سبيله في خاصة نفسه وعامة أمره، وسائر ما تشتبك به شئونه من علاقات. وصدق الله العظيم إذ يقول (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) (الأنفال - ٢٤).

لقد تضمن هذا «الإحياء الإسلامي» ضمن ما تضمن، إخراج الذين اهتدوا بالإسلام من الظلمات إلى النور، وكذلك تحرير الإنسان المسلم مما كان يثقل ظهره ويقيد خطوه ويشل طاقاته، من القيود والأصفاد. «فالتحرير الإسلامي» مهمة من مهام «الإحياء الإسلامي» بالنسبة للإنسان. (الذين يتبعون

الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونَهُ مكتوباً عندَهُم في التوراةِ والإنجيلِ يأمرُهم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكرِ ويحلُّ لهمُ الطيباتِ ويحرّمُ عليهمُ الخبائثَ ويضعُ عنهمْ إصرَهُم والأغلالَ التي كانتْ عليهمْ)ـ (الأعراف ـ ١٥٧) ـ.

ولقد توجه هذا « التحرير الاسلامي » إلى الإنسان المسلم من حيث كونه إنسانا ، رجلا كان أو امرأة هذا الإنسان ، فكانت نظرة الإسلام إلى الرجل والمرأة باعتبارهما : « الإنسان المسلم » الذي يتوجه إليه الإسلام بالإحياء والتحرير ، يتساويان في ذلك مساواة الأعضاء في البدن الواحد ، وفي هذه النظرة الاسلامية بداية خيط فلسفة الإسلام ومنهجه في علاقة الرجل بالمرأة ، وموقف المرأة من الرجل وما عرف واشتهر بـ « تحرير المرأة » .

عضوان في بدن واحد

إن المساواة بين المرأة والرجل في « الإنسانية » ، هي حقيقة موضوعية تدركها كل الحواس ، وإن المساواة بينهما في التكاليف ، حقوقا وواجبات ، وفي الحساب والجزاء ، وفي ما يلزم للنهوض بالتكاليف من عقل وقدرات ، منحها الله لكل منهما وركبها فيه ، هي مما أجمع عليه الناظرون في فكر الإسلام ويجمعون .

لكن هذه المساواة التي قررها الاسلام بين المرأة والرجل ، والتي جعلت منهما عضوين في بدن واحد ، هو بدن الإنسان المسلم ، قد اعترفت بالواقع الطبيعي المتمثل في تميز المرأة بالأنوثة ، وتميز الرجل بالذكورة ، وبما لهذا التميز من حكمة استهدفت تكاملهما كما يتكامل الشقان المكونان للشيء الواحد ، فتجتمع لهما : المساواة والتكامل في الوقت نفسه ، مميزة تساويهما عن تساوي « الأنداد » !

وإذا كان تميز الرجل « درجة » ـ هي « القوامة » في بعض الميادين ـ هو الثمرة لتميز طبيعة الرجولة عن طبيعة الأنوثة ، استهدافا للتكامل المحقق لاستمرار النوع وتحقيق السعادة لأبنائه ، إذا كان ذلك هو لب الإضافة التي أنجزها المنهج الإسلامي في علاقة المرأة بالرجل ، ووضع كل منهما بالنسبة للآخر ، فإن المساواة بينهما في الإنسانية حقوقا وواجبات ، وفي التكاليف الاسلامية ، هي « فكر » الاسلام الذي جاء ليطور وضع المرأة ويحررها من القيود الاجتماعية والاقتصادية والعرفية والتي حلت من أثقالها ـ لأسباب تاريخية ـ أكثر وأثقل مما حل الرجال .

بل لانغالي إذا قلنا إن المرأة المسلمة في عصر البعثة قد مثلت بجهادها في سبيل حريتها وتحريرها ، « الواقع » الذي مثل علامات الاستفهام التي جاء الوحي الإلهي بتحريرها ، كي يجيب عنها ويستجيب للمشروع والعادل منها .

● ففي سنن الترمذي : أن الصحابية الجليلة المجاهدة المقاتلة ، بطلة يوم أحد ويوم اليمامة ـ والمواقع الكثيرة الأخرى ـ زوجة الشهيد وأم الشهداء ، أم عمارة ، نسيبة بنت كعب الأنصارية (١٣ هـ ـ ٦٣٤) قد جاءت إلى رسول الله ﷺ تتحدث باسم جماعة من نساء المدينة ، وتطلب مساواة المرأة بالرجل ، قائلة : يا رسول الله : « ما أرى كل شيء إلا للرجال ! وما أرى النساء يذكرن بشيء » ؟ ! فكان جواب الوحي الإلهي ، عن علامة استفهام « الواقع » هذه ، متمثلا في الآية الكريمة (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) ـ (الأحزاب :

٣٥) فكان تقرير الآية القرآنية المساواة - بالنص لفظا - الجواب الإلهي عما تخلق في الواقع من مشاعر صنعتها المظالم التي عانت منها المرأة أكثر من الرجل ، في حقب طويلة من التاريخ .

* وفي ترجمة ابن الأثير - بـ (أسد الغابة) - للصحابية الجليلة ، الخطيبة ، المجاهدة ، المقاتلة ، أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (٣٠ هـ / ٦٥٠ م) نقرأ كذلك أنها قد أتت إلى النبي ﷺ وهو جالس إلى الصحابة ، تعلن أنها إنما جاءت متحدثة باسم غيرها من النساء اللاتي احتجت آراؤهن على طلب مساواتهن في الأجر بالرجال ، مع تمايز الأعمال بين الفريقين ، أتت النبي فقالت :

« إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين ، يقلن بقولي ، وعلى مثل رأيي » ثم عرضت القضية . فاستحسن الرسول - ﷺ - منطقها ، حتى لقد التفت إلى أصحابه وقال : « أسمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ » .

- قالوا : لا يا رسول الله !

- فقال ﷺ : « انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء » .

وحدثها عن مساواة الإسلام بين المرأة والرجل في الأجر ، وعن مثوبة المرأة إذا هي نهضت بما هي أهل له ، عما أنجز الرجال من الصالحات لتكامل العملين وترافقهما في إقامة قواعد العمران . وعند ذلك انصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله ﷺ .

موجبات القوامة

وإذا كانت فلسفة المنهج الإسلامي في تمايز قدرات المرأة عن الرجل قد ارتكزت إلى تمايز طبيعة الأنوثة عن طبيعة الذكورة ، فإن الرسالة الخاتمة قد تركت آفاق الميادين التي تستطيع المرأة إجادة أعمالها لتطور ما لديها من طاقات وقدرات منبهة على ضرورة التناسق بين الطبيعة وما تؤهل له من أعمال استهدافا للحفاظ على فلسفة « التكامل » بين المرأة والرجل واتقاء لخطر « الندية » المنافي لحكمة الله من خلق الإنسان ذكرا وأنثى .

فالصحابية أميمة بنت رقيقة ، تحدث فتقول : « جئت النبي - ﷺ - في نسوة نبايعه ، فقال لنا : فيما استطعتن وأطقتن » رواه ابن ماجه - فنطاق وآفاق التكاليف والحقوق والواجبات ، هي ما تستطيعه المرأة وتطيقه ، لأنها أنثى ، وفق تحكيم الزمان وأعراف المكان ، وما تنميه أو تحجمه تنمية التربية من قدرات وإمكانات .

من هنا كان حديث الآية القرآنية عن المساواة بينهما في الحقوق والواجبات ، وعن « الدرجة » - درجة القوامة - التي تأهل لها الرجل بحكم رجولته ، في ميادين بعينها ،



حديث الآية التي تقول : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمعْرُوف ، وللرجال عَلَيْهِنَّ درجة والله عزيز حكيم) (البقرة : ٢٢٨). فالعرف - وهو متغير ومتطور - هو معيار ميادين المساواة في الأعمال والوظائف الحياتية ، لكن تظل الدرجة - درجة القوامة - قائمة في ميادين بعينها لارتباطها بـ « الثابت » ، وهو « الرجولة » و « الأنوثة » اللتان تمايزان دائما بين الرجل والمرأة واللتان ينعكس تمايزهما في ميادين بعينها .

وإذا كانت درجة القوامة هي القيادة التي تؤهل الرجولة الرجل لها في ميادين بعينها - (الرجال قوامونَ على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النساء - ٣٤) فان الاسلام لم يحرم المرأة من هذه « القوامة » - القيادة - حيث تؤهلها لها أنوثتها ، فالراعي هو القائد - القَوّام - والحديث النبوي يحدثنا عن تصيب المرأة في ميدان القوامة والرعاية والقيادة ، فيقول الرسول - ﷺ - : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسئولة عنهم ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

المنهج الإسلامي لتحرير المرأة

ولئن كان المنهج الاسلامي قد تميز بهذا الوضوح في تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في الانسانية ، وفي التكاليف ، حقوقا وواجبات وحسابا وجزاء ، وفي حصر التمايز بما يقتضيه تميز الأنوثة عن الذكورة ، وفي كل منها امتياز لجنسه يحرص على الحفاظ عليه العقلاء ، لأنه قاعدة وسر تكاملهما ، المحقق لسعادتهما جميعا ، فإن وضوح هذا الموقف الإسلامي قد ازداد عندما تجسد فكره هذا في التجربة الإسلامية الأولى ،



فلم يعد مجرد فكر نظري ، وإنما غدا واقعا يحياه الرجال والنساء .

● فبيعة العقبة التي هي عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى قد شاركت فيها امرأتان ، فكان للمرأة المسلمة نصيب في « الولاية السياسية » منذ ذلك التاريخ .

● وفي بيعة الرضوان - تحت الشجرة - التي كانت على « الحرب والقتال » ، شاركت النساء وشملهن - مع الرجال - قول الله سبحانه وتعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) (الفتح : ١٨) ، (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) - (الفتح : ١٠) .

● وحديث النساء الغازيات في غزوات الإسلام الأول ، والمقاتلات والمداويات والساعدات في المعارك ، شائع في مصادر السنة والسيرة والتاريخ .

● والتطبيق الاسلامي لوصايا القرآن بالأمومة ، ووصايا النبي بالنساء ، ولتحديد القرآن أن التنوع في الأنوثة والذكورة هو آية من آيات الله ، به تتحقق السعادة المتمثلة في « السكن » و « المودة » و « الرحمة » بين الزوج وزوجه (ومن

آياته أن خَلَقَ لكُم منْ أنفسكُمْ أزواجا لتسكنوا إليها وجَعَلَ بينكُم مودة ورحمة ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون) (الروم : ٢١) ونجد هذه المعاني القرآنية في كثير من نماذج الواقع المعاش منذ ذلك التاريخ .

إن دور خديجة بنت خويلد في حياة النبي ودعوته ، ودور عائشة في الدين والدنيا ، ودور الصحابيات اللاتي ملأت تراجمهن مجلداً في تراجم « ابن الأثير » لصحابة رسول الله ـ ﷺ ـ ودور أسماء بنت أبي بكر في رحلة الهجرة ـ هجرة النبي وأبي بكر ـ وفي منزل زوجها الزبير بن العوام ، وفي حقله ، وفي رعاية فرس قتاله ، ودورها في معاركه الحربية وغزواته ، وكذلك دورها في جهاد واستشهاد ابنها عبدالله بن الزبير ، وتصديها يومئذ لجبروت الحجاج بن يوسف الثقفي . إن دورها هذا ـ بل أدوارها ـ وهي في شيوخ المرأة المسلمة العابدة المقاتلة العاملة التي تزدان بالحشمة الإسلامية ، فلا تكشف سوى الوجه والكفين ، ولا تلبس ما يشف ولا مايصف ولا ما يجسّم . إن هذه النماذج إنما تترجم عن واقع جسّد فكر الإسلام في هذا الميدان .

وإذا كنا لاننكر ـ بل نبرز ـ أن تاريخنا الاجتماعي قد ساهمت في كثير من حقبه معالم « واقع » تنكر للكثير من « المثل » التي جاء بها الإسلام في « العلاقة الجامعة ـ والمميزة ـ بين الرجل والمرأة » ، حتى لقد أصاب المرأة المسلمة من المظالم أكثر مما أصاب الرجال ، وحلت من القيود أثقال مما حل الرجل ، الأمر الذي جعل ويجعل حريتها وتحريرها واحدة من مهام الإسلاميين ، وإذاكنا لاننكر ذلك ـ بل نبرزه وننبه إليه وندعو له ـ فإننا ننكر ونستنكر أن يتبنى المسلمون المناهج غير الإسلامية في فلسفة تحرير المرأة ، وفي نموذج هذا التحرير .

فالمنهج الإسلامي الذي قام على مساواة الرجل والمرأة في الانسانية ، وتكاملهما في وظائف الحياة ، يرفض مساواة « تماثل الأنداد » التي ساهمت الدعوة إليها في إطار الحضارة الغربية ، وفي فكر وواقع التغريب ببلادنا الإسلامية . فلا الرجل السوي يسعده تساويه بالمرأة كأنثى ، ولا المرأة السوية يسعدها مساواتها بالرجل ، في الرجولة ! ومن هنا تميزت وتتميز في المنهج الإسلامي ، فلسفة « التحرير الإسلامي للمرأة » بالانطلاق من الوسطية الجامعة ـ والمميزة في الوقت نفسه ـ بينهما ، كشقين متكاملين ومتساويين ، فمع التساوي في الانسانية تتمايز الطبيعة ، من حيث الأنوثة والذكورة ، تمايز وظيفة ودرجة ، لاتمايز سيطرة واستبداد وخضوع !

وإذا كانت فلسفة « التحرير » التي اعتمدت « تماثل الندية » قد جعلت صورة المرأة المتحررة ـ في المجتمعات التي طبقت تلك الفلسفة ـ هي صورة : « المسترجلة الاسبرطية » ، أو « الغانية الرومانسية » ، أو « إعلان السلعة وسلعة الإعلان الرأسمالية » ، فإن منهج الإسلام في هذا المقام يقول لنا : نعم ، لتحرير المرأة ، لكن ليس هذا هو نموذج التحرير ! □



قيل لحكيم: أي الرجال أفضل؟

قال: الذي إذا حاورته وجدته حليما، وإذا اختبرته وجدته حكيما، وإذا غضب كان حليما، وإذا ظفر كان كريما، وإذا منح منح جسيما، وإذا وعد وفى، وإن كان الوعد عظيما، وإذا اشتكى إليه وجد رحيما.



البيان

في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

[Q] قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ سورة المنافقون ٥ ـ ٨

نزلت بعد غزوة بني المصطلق سنة ٥هـ/ ٦٢٧م في عبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين .

قال زيد بن أرقم :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، وكان معنا بعض الأعراب . ثم كان أن اختلف أعرابي مع رجل من أصحاب عبدالله بن أبي ، فرفع الأعرابي خشبة وضرب بها رأس الرجل ، فأتى الرجل عبدالله فأخبره ، فغضب ابن أبي وقال : لا تنفقوا على من عند محمد ، حتى ينفضوا من حوله ، ويتركوا المدينة . ثم قال لأصحابه : « إذا رجعتم إلى المدينة ، فليخرج الأعز منها الأذل . (يعني أن المسلمين سيطردون محمداً [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، ولو أنكم أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد » .

وكنت حاضراً أسمع كلامه ، فقلت له : أنت والله الذليل القليل ، ومحمد في عز من ربه ومودة من المسلمين . والله لا أحبك بعد كلامك هذا .

فقال عبدالله : اسكت ، فإنما كنت ألعب (أي أن كلامه لم يكن على محمل الجد) . غير أني مشيت إلى رسول الله (ﷺ) فأخبرته الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال عمر : دعني أضرب عنقه يارسول الله . قال النبي : إذن ترعد له أنف كثيرة بيثرب ، (أي سيغضب لقتله أنصاره في المدينة . فقال عمر : فإن كرهت يارسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين حتى لا تغضب الأنصار) ، فمر سعد بن عبادة ، أو محمد بن مسلمة ، أو عبادة بن بشر (من الأنصار) فليقتلوه . فقال : إذن يتحدث الناس

أن محمدا يقتل أصحابه ، وأرسل رسول الله إلى عبدالله بن أبي فأتاه ، فقال له : أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني ؟ فقال عبدالله : والذي أنزل عليك الكتاب ، ما قلت شيئا من هذا قط ، وإن زيدا لكاذب .

وكان عبدالله في قومه شريفا عظيما ، فقال من حضر من الأنصار يارسول الله : « إنه شيخنا وكبيرنا ، لا تصدق عليه كلام غلام من الغلمان ، عسى أن يكون وهم في حديثه فلم يحفظ » فكان أن عذره النبي وصدقه وكذبني .

ولامني الأنصار على ما ذكرته لرسول الله وكذبوني . وجاء إليّ عمي فقال : « كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وكرهوك » فوقع علي من الغم ما لم يقع على أحد قط . واستحييت بعد ذلك أن أحضر النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما وفق رسول الله المدينة عائدا من الغزوة ، جلست في البيت لما بي من الغم والحياء . فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديقي وتكذيب عبدالله . فلما نزلت أتاني رسول الله فضحك في وجهي ، وأخذ بأذني وقال : « إن الله تعالى صدقك وأوفى بأذنك » (أي أظهر صدقك في إخبارك عما سمعت أذنك) . فما كان يسرني أن لي بها الدنيا . فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين على الناس .

ولقي النبي أسيد بن حضير ، فقال له رسول الله : أو ما بلغك ما قال صاحبكم عبدالله بن أبي ؟ قال أسيد : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال أسيد : فأنت يارسول الله والله تخرجه إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ولكن ، ارفق به يارسول الله ، فوالله ، لقد جاء الله بك إلى المدينة ، وقومه ينظمون له تاجا من الخرز ليتوجوه ملكا عليهم ، وإنه ليحقد عليك ، إذ يرى أنك قد سلبته ملكه .

وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

إنه بلغني أنك تريد قتل أبي لما بلغك عنه . فإن كنت فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله قد علمت الخزرج أنه ما بها رجل أبر بوالديه مني ، غير أني أخشى أن تأمر به غيري ، فيقتله ، فلا تسمح لي نفسي ، بأن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : بل نحسن صحبته ما بقي معنا .

ولم يكن عبدالله بن أبي قد وصل بعد إلى المدينة . فلما بلغها وأراد أن يدخلها ، جاء ابنه عبدالله ، ومنعه من ذلك ، وقال : وراءك ! قال : مالك ويلك ؟ قال : لا والله لا تدخلها أبدا ، إلا بإذن رسول الله ، ولتعلم اليوم من الأعز من الأذل .

وبلغ النبي الخبر ، فأرسل إلى عبدالله بن عبدالله بن أبي ، أن خل عن أبيك حتى يدخل . فقال : أما إذ جاء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعم ، وسمح لأبيه بالدخول .

والتف أصحاب عبدالله بن أبي حوله يقولون : يا أبا حباب قد نزلت فيك آيات شداد ، فاذهب إلى رسول الله ليستغفر لك . فلوى ابن أبي رأسه واستكبر وأبى أن يعتذر . فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ﴾ الآية □



من القلب

■ ذاكرة قوية

● بينما كان السائح في زيارة لإحدى القرى الأمريكية ، قدموه إلى هندي اشتهر بقوة ذاكرته فسأله السائح : ماذا كان إفطارك يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٤٩ ؟ فقال الهندي بيض . وبعد عشرة أعوام توقف القطار الذي يقل السائح مرة أخرى في نفس القرية ، وشاهد نفس الهندي في المحطة . فذهب إليه وقال له في مرح : كيف ؟ فقال الهندي : مقليا .

□□□

■ الحمد لله

● بعد أن كادت الزوجة تشرف على الغرق ، أسرع الزوج إلى رجل كان يقف على الشاطئ، وسأله : هل تعرف السباحة ؟

أجابه الرجل : كلا ، فتنهد الزوج وقال : الحمد لله .

□□□

■ انتبه

● بعد ليلة عامرة بالشراب في إحدى الحانات ، عاد الصديقان في السيارة إلى منزليهما . وفجأة صاح أحدهما :

انتبه ، لقد كدت تصطدم بعمود الإنارة

فدهش الآخر وسأله : ماذا تقول ؟ ألست أنت من يقود السيارة ؟

[illegible]

● الانسان لايذهب بعيدا جدا إلا عندما لا يدري أين يذهب .

(تاليران)

● لما كان السياسي لا يعتقد بما يقول ، فإنه يدهش كثيرا عندما يصدقه الآخرون .

(ديغول)

● الحرب شأن خطير جدا ، ولذلك لا ينبغي تركه للعسكريين .

(كليمنصو)

● الف رجل مسلح لا يستطيعون تجريد رجل عار .

(مثل تركي)



ديغول

ضحكات عالمية

◻ نعم ، ولكن

● سئل العالم البيولوجي «جان روستان» : هل صحيح أن الدماغ البشري يحتوي على ١٢ مليار خلية ؟

فأجاب : نعم ، هذا صحيح ، ولكن البطالة مازالت ضاربة أطنابها فيها .

◻◻◻

◻ إن كان

● أراد برنارد شو أن يسخر مما عرف عن نفور تشرشل من الناس فأرسل له كتابا يدعوه فيه لحضور إحدى مسرحياته في ليلة الافتتاح ، وقد أرفق مع الكتاب بطاقتين وذيله بالعبارة التالية . «وهكذا يمكنك أن تصطحب صديقا معك ، إن كان لك صديق» .

فرد عليه تشرشل بكتاب جاء فيه : «آسف جدا ، سأكون مشغولا في ليلة الافتتاح ، ولكني أعدك بأنني سأشهد العرض الثاني ، إن كان هناك عرض ثاني» .


برنارد شو


تشرشل



◻ ارتجـــال !!

● قال أبو المنهال . دخلت يوما على «مسلم الخاسر» ، وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي بعضها أم جعفر ، وبعضها جارية غير مسماة ، وبعضها أقواما لم يموتوا . وأم جعفر يومئذ باقية . فقلت : ويحك ما هذا ؟ فقال : تحدث الحوادث ، فيطالبونا بأن نقول فيها ، ويستعجلونا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد ، فنعد هذا قبل كونه فمتى حدث أظهرنا ما قلناه فيه قديما على أنه قيل في وقته

◻◻◻

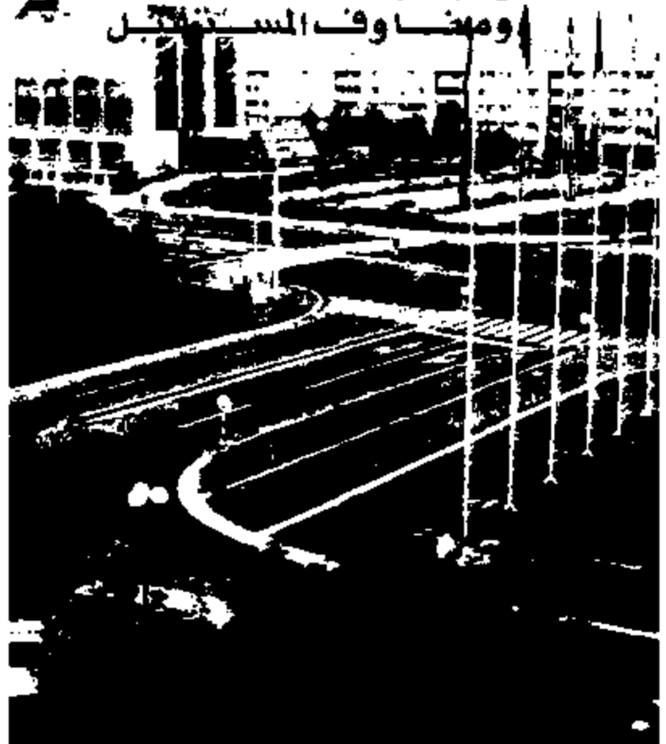
◻ المشاركة في العمل

● استأجر أحد البخلاء حطابا فاستكثر الأجرة ، فطمع في مشاركته في العمل ليتقص من الأجرة ، فجلس يقول : «هيه» لكل ضربة ضربها الحطاب . فلما انتهى أعطاه الأجرة . فتخاصما إلى حاكم فقال : هات الأجرة أقسم لكما . فشرع يلقي درهما درهما على صندوق ويقول : فالدرهم للأجير وطنينه للمستأجر .



يوغسلافيا

رياح التغيير ومخاوف المستقبل



استطلاع : محمود عبد الوهاب
تصوير : طالب العتيبي



على مفترق طرق العالم ترقد، عند المفصل الحرج بين الشرق والغرب، كانت أراضيها دوما مسرحا دراميا للهجرات ولقوافل التجارة وسنابك خيل الغزاة ومدافعهم، يختلط فيها الشرق والغرب، تاركا بصماته على الحياة والعمارة والناس، وحتى المشكلات. ولأن الجغرافيا لا تصنع التاريخ فقط، فقد أثر موقعها على تاريخها وحاضرها، ومستقبلها أيضاً. وفي لحظة حرجة من لحظاتها هبطنا إلى يوغسلافيا لنرى ونسمع ونلاحظ.

السادسة والنصف صباحا، الضباب يلف المدينة، بقايا الليل ما زالت عالقة في السماء، دفقات من خيوط المطر الرفيعة تسقط، لسعة برد خفيفة تصل إلينا، والسيارة تخترق بنا الشوارع الخالية في الطريق من مطار بلغراد إلى قلب العاصمة اليوغسلافية.

كدفقات المطر تتوالى صور وأفكار في الذهن، يقطع تواصلها صوت مرافقنا وهو يشير إلى مبان غير واضحة من الضباب والظلمة، ويسميها لنا

يوغسلافيا.. لا تخلو اليوم صحيفة أو نشرة أنباء من أخبارها اجتماعات، مناقشات، عمال يحتجون، إصلاحات اقتصادية، متاعب هنا وتوتر هناك. يقاطعنا مرافقنا ويقول: جئتم في وقت تغير الفصول وبدء هطول المطر. تتواصل الصورة: هل هو تغير في الفصول فقط أم أن هناك تغيرات أخرى أعمق وأبعد؟ من هنا سمع العالم قصص البطولة الخرافية لأبطال (البارتيزان)، ومن هنا جاء تيتو وأعلن لأول مرة في العالم عن تكوين كتلة عدم الانحياز التي تحولت إلى تكتل سياسي له دور فاعل.

يقول مرافقنا: اليوم يوم الأحد، ولذا فلن نتصل بكم اليوم، ولكن في الغد لديكم موعدا في الثامنة صباحا. تتوالى التساؤلات: من أين نبدأ؟ وعند أي جانب من الصور نقف؟ هل من تجربة التصحيحية والقوميات، وكيف استطاعت هذه الشعوب أن تنسج حياة واحدة متناغمة، أم من مناطق التاريخ المشترك حيث عاش الأتراك المسلمون هنا خمسة قرون كاملة، وتركوا آثارهم واضحة للعيان، أم من يوغسلافيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منهكة، واستطاعت أن تقيم في أربعين عاما فقط صناعات متطورة تغزو أسواق العالم؟

تصل بنا السيارة إلى شوارع المدينة، يقول مرافقنا: هذا الجزء من المدينة كان في ما مضى جزءاً من امبراطورية النمسا وهنغاريا، منذ ستين عاما فقط قبل إنشاء يوغسلافيا في عام ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

عند باب الفندق نصحنا مرافقنا آخر نصيحة، قال لنا: «لتغيير العملة للصرف «البنك» هو الأفضل، فالسعر من خلاله شديد الإغراء، ولا وجود للسوق السوداء، فقد انتهت بعدما خفضت الحكومة من سعر العملة» وتمنى لنا يوما طيبا، وانصرف ليتركنا ليوم كامل غرباء في مدينة غريبة.

«ساعات التجوال»

عندما فتحت باب الغرفة كانت المفاجأة، الغرفة شديدة الضيق، بالغة الصغر: أقرب ما تكون إلى ممر في أي بناية عربية، في منتصف الطريق بين غرفتي وغرفة زميلي المصور لقيته قادما في الحال بعد أن صدمته هو أيضا مساحة

الغرفة . وعندما سألت موظف الاستقبال عن سر صغر حجم الغرف على الرغم من مساحة الفندق الكبيرة ، واتساع أبهائه قال لي بوضوح : نحن شديدو الواقعية والعملية . فهذا يريد النزيل من الغرفة أكثر من فراش نظيف وحمام نظيف ، وهي ليست إلا مكانا مناسبا للنوم . أما المساحات الكبيرة فإنها بلا معنى وغير اقتصادية ولا تستغل ، ونفضل الاستفادة من المساحات في أبهاء للجلوس وقاعات للطعام أكثر وذلك لجذب رواد غير المقيمين بالفندق . انطلقنا نجوب الشوارع .

وشأن كل مدن العالم تنقسم بلغراد إلى قسمين : الجزء الحديث حيث المباني عصرية الطراز ، ذات واجهات زجاجية ، وشوارع متسعة ، وأدوار شاهقة ، والأشجار على جانبي الطريق ، ومساحات خضراء ممتدة . والقسم القديم حيث التاريخ والمباني العتيقة ، فالشوارع أضيق ، وبالتالي زحام المرور أشد ، خاصة أن المنطقة التجارية تقع في الجزء العتيق من المدينة . في وسط المدينة تلفت الانتباه المباني القديمة ، مبنى فندق موسكو تحفة معمارية من الخارج ، والفندق بني عام ١٩٠٦ ، ويحمل كل ملامح التصميم المعماري لتلك الفترة ، الطوب الفريد وعقود الحل الحجرية تحت النوافذ والشرفات ، والمقهى الممتد على الرصيف ، وغير بعيد عن الفندق مبنى البرلمان الاتحادي (بني في عام ١٩٢٩) ذو الأعمدة العالية ، والساحة الفسيحة ، ثم درجات السلم والتماثيل المعلقة على حواف مبنى . الشوارع في يوم الأحد هادئة ، عدد قليل من المارة يسكون بمظلاتهم ، يتقون قطرات المطر التي ينقطع ليعود منذ الصباح . في منتصف النهار امتلأت المقاهي بعض الشيء . الاقتراب من البشر بلا جدوى ، فلغة التخاطب ـ بخلاف لغة الإشارة ـ منعدمة ، فالناس يتحدثون «الصربوكرواتية» ، وقليلون الذين يتحدثون



خريطة توضح موقع يوغسلافيا الذي يتوسط قلب أوروبا .

لغة أخرى غيرها .

في المساء كان المطر قد انقطع ، فسألنا موظف الاستقبال بالفندق : أين يذهب الناس مساء في بلغراد ؟ بعد أن أفاض في الحديث عن أثر المتاعب الاقتصادية على سلوك الأسرة وعاداتها ، وأن كثيرا من العائلات أصبحت تفضل الإقامة في المنازل ، أعطانا اسما لشارع من شوارع بلغراد ، وقال لنا : ستعودون خمسين عاما على الأقل للوراء ، فالشارع كل ما فيه قديم ، وأرضه قطع من البلاط الأسود الصغير ، وعلى الجانبين مقاه ومطاعم وبنايات كلها من طابق واحد أو اثنين على الأكثر ، والبوابات والنوافذ ودرجات السلالم كلها وفق نمط البناء القديم من الخشب والطوب ، وفي وسط الشارع منصة خشبية تجلس عليها فرقة موسيقية تعزف الألحان الشعبية القديمة ، وعلى ناصية الطريق بائع متجول بالزي الشعبي القديم ، السروال الطويل الواسع ، والصديرية الحمراء المشغولة المطرزة ، وغطاء الرأس ، والحذاء ذو المقدمة الرفيعة المنثنية باتجاه القدم .





وتتفنن المطاعم والمقاهي في جذب الرواد ، مطعم يرتدي العاملون فيه الملابس التقليدية ، وآخر يقدم فرقة موسيقية تعزف الألحان القديمة . وتمتد المطاعم إلى خارج بواباتها ، وتنتشر المناضد في الطريق ، محاطة بسياج خشبي ، وفي وسط الطريق يتدافع الناس للتجوال والمشاهدة والجلوس على جانبي الطريق على المقاعد الخشبية المنتشرة ، للاستماع للموسيقا والتفرج على البشر .

« على مفترق الطرق »

تقع يوغسلافيا في الجنوب الشرقي من أوربا على الخط الفاصل بين الشرق والغرب ، وتشترك في حدودها مع اليونان من الجنوب ، وبلغاريا ورومانيا من الشرق ، وهنغاريا من الشمال الشرقي ، والنمسا من الشمال ، وإيطاليا من الشمال الغربي ، وألبانيا من الجنوب الغربي . وهي بموقعها هذا تدخل في نطاق ما يعرف بمنطقة البلقان ، باستثناء الجزء الشمالي الغربي ، فيدخل في نطاق أوربا الوسطى .

والبلقان منطقة جغرافية تحتل جنوب شرق أوربا ، وتشمل عدة كيانات سياسية هي بلغاريا ويوغسلافيا واليونان وألبانيا والقسم الأوربي من تركيا ، وبحكم هذا الموقع الجغرافي عند مفصل الحركة فإن هذه المنطقة كانت مسرحا للحروب والهجرات والخلافات الحادة حول الحدود بين الأقليات القومية ، وشاع في الأدبيات السياسية تعبير « البلقنة » الذي يعني عملية تجزئة ، تقوم على استغلال القوميات الصغيرة ، لتؤدي في النهاية إلى نشوء دول جديدة مستقلة ، وأصبح التعبير الذي ولد ليدل أصلا على تجزئة البلقان أكثر اتساعا ، ليشمل كل التجارب المماثلة .

ولأن الجغرافيا تصنع التاريخ في كثير من الأحيان فقد ساهمت العوامل الجغرافية المتعددة المتمثلة في الموقع والجيران في صنع تاريخ يوغسلافيا ، بدءا من موجات الهجرة المتوالية ، إلى استقرار القوميات المختلفة ، ثم قيام الجمهوريات والممالك القومية في الصرب ، وكرواتيا . وظل صراع القوى العظمى حول يوغسلافيا عنيفا حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، وبعد الحرب توحدت الجمهوريات ذات القوميات المتعددة في اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية الاشتراكية ، وأصبحت يوغسلافيا اليوم تتكون من جمهوريات صربيا وعاصمتها بلغراد ، وهي في الوقت نفسه العاصمة الاتحادية ، وجمهورية (كرواتيا) وعاصمتها زغرب ، وجمهورية (سلوفينا) وعاصمتها لوبيانا ، وجمهورية (البوسنة) و (الهرسك) وعاصمتها سراييفو ، وجمهورية (ماكدونيا) وعاصمتها اسكوبيا ، وجمهورية (مونت نجرو) (الجبل الأسود) وعاصمتها تيتوجراد ، بالإضافة إلى منطقتي حكم ذاتي ، وهما كوسوفا وفويفودينا وعاصمتها نوفاساد . وتحت القيادة التاريخية لبطل حرب التحرير ضد النازية الماريشال جوزيب بروز تيتو ، استطاعت يوغسلافيا أن تحافظ على وحدتها ، وأن تتناغم هذه القوميات المتعددة ، على الرغم من البدايات الصعبة ، وكان التحدي الذي واجهه اليوغسلاف أمام ستالين وحرصهم على عدم الرضوخ للسوفييت ، هذا التحدي الذي استمر حتى عام ١٩٥٦ كان دائما قويا ، ودعما للحلم القومي الذي جمع كل أبناء يوغسلافيا حول تيتو ، وحول التجربة لكي تنجح وكانت تجربة البناء والوحدة . ولكن قبل وصولنا إلى يوغسلافيا كانت تقارير الصحف تقول : إن بعض الجمهوريات تطالب بالانفصال وبالحكم الذاتي . ورأينا أن وصولنا لم يكن في موسم تغير الفصول فقط .

تبلغ مساحة يوغسلافيا حوالي ٢٥٥,٨٠٤ كيلو مترات مربعة ، وعدد سكانها ٢٢ مليون نسمة تقريبا ، وهي بذلك تحتل المرتبة التاسعة من حيث المساحة ، والمرتبة الثامنة من حيث

عدد السكان في أوروبا ، ومعظم أراضي يوغسلافيا هضبية ، فسبعين بالمائة من إجمالي مساحتها تزيد ارتفاعها على ٢٠٠ متر فوق سطح البحر . وتتميز الطبيعة اليوغسلافية بالتنوع والتباين الشديدين ، وتتعدد على امتداد يوغسلافيا الخصائص المناخية والجغرافية بين الأقاليم المختلفة ، بل حتى داخل كل إقليم ، مما أثر على توزيع الثروة الطبيعية والموارد ، ولذا فإن هناك أقاليم أكثر ثراء من أقاليم أخرى . وعلى مستوى آخر فإن الجمهوريات الأقرب إلى وسط أوروبا التي تقع في الشمال الغربي أكثر تقدما من حيث التقنية والأداء الصناعي .

ولقد انطلقت يوغسلافيا عقب تأسيس الجمهورية ، وفيما بعد الحرب العظمى الثانية ، في سباق مع الزمن للتطور الاقتصادي ، وتحقيق خطط تنمية طموحة ، وكان خلاف يوغسلافيا مع الاتحاد السوفيتي يمثل تحديا حقيقيا ، وحتى اليوم ما زالت هذه التجربة ماثلة أمام العيان .

يقول لي عصتني ، وهو مدير إدارة الشئون العربية والشرق الأوسط بوزارة الخارجية : « نحن ربما نغفر ، ولكننا لا ننسى ، لأننا لو نسينا ضاعت قيمة الدرس ، وأصبح التاريخ هباء بلا معنى . نعم نحن نعلم هذه التجربة لأطفالنا ، ونشرحها لهم ، ونقول لهم : إننا أثناء التحرير أسدينا خدمة عظمى للاتحاد السوفيتي عندما أوقفنا زحف النازيين مدة أسبوعين كاملين بقصص بطولة لا تصدق ، ونقول لهم - لأطفالنا - : إن قادتنا - تيتو ورفاقه وحزبه - جاءوا إلى السلطة لأنهم دافعوا عن الوطن عندما فر الجميع ، ولقد رفضنا أن نقلد تجارب أخرى ، ورفضنا الدخول في دائرة العلاقة الخاصة المقفلة ، وآمنا بعلاقات مفتوحة مع جميع دول العالم ، وآمنا أن الاشتراكية هدف له أكثر من طريق . وقلنا إن مجرد كون دولة ما قوة عظمى لا يبرر أن تخضع لها كل الدول . ونقول لأطفالنا : لقد دفعنا ثمن هذه المواقف ، فنحن عندما دافعنا عن وطننا في الحرب العالمية الثانية لم يساعدنا أحد ، وعندما تفاوض الكبار حاولوا أن يتجاهلوا أهمية ما قمنا به في مكافحة النازية ، ونظروا إلينا كمناطق نفوذ ، وعندما بدأنا خطط التنمية عقب الحرب لتحرير اقتصادنا والنهوض ببلادنا لم يساعدنا أحد ، ولكننا بنينا وطننا وصنعنا تاريخنا ، وهذا أهم ما يجب أن تدركه أجيالنا » .

إنجازات حقيقية

استطاعت يوغسلافيا على الرغم من صعوبات البداية أن تحقق نجاحا لا ينكره أحد ، وعلى مدى ٣٢ عاما ظلت يوغسلافيا تحقق معدل نمو في إجمالي الناتج القومي بمتوسط عام مقداره ٦٪ سنويا (١٩٤٨ - ١٩٨١) ، أي تضاعف الانتاج القومي سبع مرات خلال هذه السنوات ، وخلال الفترة نفسها بلغ معدل نمو العمالة ٥٪ سنويا ، مع ما يعنيه هذا من فرص عمل ، وقد طرأ خلال الفترة نفسها تعديل كبير في هيكل القوى العاملة ، فبينما كان يبلغ عدد السكان الزراعيين ٦٢٪ من مجموع السكان عام ١٩٤٧ انخفض في نهاية عام ١٩٨٢ إلى ٢٠٪ فقط ، كما تعدلت بنية التبادل السلعي ، فبعد أن كان ثلثا مجموع الصادرات عبارة عن منتجات أولية تناقصت نسبة المنتجات الأولية إلى ٦٪ من إجمالي الصادرات التي تبلغ قيمتها حوالي ٢٩ مليار دولار أمريكي ، منها ٦٦٪ سلع مصنعة تصنيعا تقنيا بالغ الدقة .

وبخلاف أثر هذا التطور في ارتفاع نصيب الأفراد من الدخل القومي ، وارتفاع مستوى المعيشة ، فإننا نلمس على مستوى العائلة والأسر الصغيرة أثر نجاح خطط التنمية خلال فترة ما بين ١٩٦٨ ، ١٩٨٢ ، فلقد طرأ الآتي : ازداد عدد العائلات التي تملك ثلاجات كهربائية في منازلها من ٢٥٪ من عدد السكان إلى ٩٠٪ ، وأجهزة التلفاز من ٢٨٪ إلى ٨٥٪ ،




Insa

والغسالات من ١١٪ إلى ٥٨٪ ، والسيارات من ٨٪ إلى ٣٦٪ .

وحتى ذلك الوقت كانت الحياة جميلة وهادئة والزمن رخاء ، ولا أحد يحس بنذر العاصفة القادمة ، وفجأة بدءوا ينتبهون إلى أنه مطلوب سداد القروض التي تم التوسع في خطط التنمية بواسطتها ، وأصبح تمويل التنمية مشكلة حادة ، تهدد صناعات بالتوقف ، وتهدد أقاليم وجمهوريات ـ خاصة تلك التي لا تتمتع بأي موارد طبيعية ، وتقوم كل صناعاتها على الاستيراد ـ بالأزمة الحادة ، وكما حدثني مسئول العلاقات الخارجية في التحالف الاشتراكي للشعب العامل اليوغسلافي ، واحد أبرز قادته : « كنا نقترض ، فكان كل شيء سهلا ميسرا والآن أصبح لزاما أن نسدد »

تبلغ قروض يوغسلافيا حوالي ٢٢ مليار دولار ، اقترضتها خلال السبعينات وأوائل الثمانينات ، لتمويل خطط التوسع في الاستثمارات وخطط التنمية ، وعندما احتاجت لقروض جديدة ناقش صندوق النقد السياسة الاقتصادية ليوغسلافيا ، واقترح خطط علاج وإصلاح كشرط لمنح قروض جديدة ، وبدأت يوغسلافيا ، في تطبيق سياسات إصلاح اقتصادي ، ومع هذه السياسات بدأت الاضطرابات ، وأضرب العمال ، وبدأ الناس يشعرون بوطأة الحياة . لماذا ؟ هذا ما سنتطرق إليه .

السمن والعسل

لم نصل إلى يوغسلافيا إذن في موسم تغير الفصول فقط ، فرياح التغير تهب من كل الاتجاهات ، مظاهرها هي تلك التي نسمعها في نشرات الأنباء وفي الصحف والمجلات .

ولأن الأمر ليس مزعجا بالقدر الذي يبدو لبعض الناس فإن مدن يوغسلافيا وجمهورياتها تشهد تدافعا من المستثمرين الأوربيين لدراسة السوق ، والاستعداد للدخول بقوة . وقد أتاحت لي الظروف أن أستمع لجانب من الحرب السرية التي تدور بين شركة أمريكية كبرى وأخرى اسبانية مشتركة للفوز بمشروع مجمع زراعي ضخم ، تبلغ استثماراته ١٥٠ مليون دولار ، ويستعد اليابانيون لإقامة مجمع سياحي ضخم في دوبروفنيك ، لؤلؤة الأدرياتيك ، ومجموعة شركات ألمانية غربية وسويسرية تدرس الدخول في الاستثمار في قطاع صناعات الحاسوب « الكمبيوتر » وتجهيزات محطات الكهرباء التي تدار بالطاقة النووية ، وهكذا . وكما قال لي أحد رجال الأعمال الأجانب الذي التقينا به صدفة في بهو الفندق وحادثنا ، فإن سوق الاستثمار في يوغسلافيا تمثل للمستثمرين الأوربيين طبقا من سمن وعسل ، لتوافر العمالة الفنية والكوادر العلمية المؤهلة تأهيلا عاليا ، والباحثين والقاعدة الصناعية المتطورة والسوق ، وماذا يريد المستثمر بعد ذلك ؟ قلت لمحدثي : ولماذا لا يقوم اليوغسلافيون بهذه المشروعات وحدهم ؟ ابتسم وهو ينهي حديثه : لأنه ينقصهم شيء واحد فقط ، هو عبارة عن بضع أوراق ملونة اسمها « بنكنوت » !!

سراييفو الفن والتاريخ والجمال

كنت أعرف أنها مدينة ذات تاريخ عريق ، وأنها تتميز بطابع معماري تاريخي فريد ، لكن لم أتوقع أنها بهذا القدر من الجمال والروعة . عندما هبطنا مطارها ذات مساء ، وصلت إليها محملا بتداعي التاريخ والجمال ، وخرجت منها بعد يوم ونصف نهار وأنا مفتون بها .

سراييفو جسر لجميع العهود الحضارية التاريخية التي ترك كل منها بصمته وطابعه ، مما جعلها متحفا حيا متنوعا ، يضم صور العظمة والمحنة ، تلتقي فيها وتلتحم آثار الشرق والغرب ، طبيعتها شديدة التنوع ، هضاب وجبال ، وسهول ، ومراع وحقول ، وخيوط فضية هي الجداول والينابيع والأنهار ، وجبال

مكسوة بغابات الصنوبر السامقة التي تلقي ظلالا كثيفة على أطراف السهل المتكسرة عند خط الأفق . لوحة لونية رائعة ، الأخضر هو اللون الغالب ، خضرة الأعشاب ، والحقول والمزروعات المحصودة بلونها الأصفر على القمة ، ويتدرج اللون الأصفر وفق درجة جفاف المحصول ، والسماء زرقاء عليها ظلال الظهيرة ، وخيوط الفضة تتقاطع على امتداد البصر .

على مفترق طرق البلقان كله تقع جمهورية البوسنة والهرسك التي تمثل سراييفو عاصمتها . مر من هنا التتار والبيزنطيون والرومان والأتراك والأوروبيون ، وكانت طرقها معبرا للتجار والغزاة والقياصرة والسلاطين والدراويش .

وتمثل البوسنة والهرسك جمهورية ضمن الجمهوريات التي تكون يوغسلافيا ، وقديما كانت كل منها مملكة قائمة بذاتها . وكانت البوسنة مملكة يحكمها آخر ملوك البوسنة ، « ستيفان توما شيفنش » ، وقد ظل الملك يتقهقر أمام جيوش السلطان « محمد الفاتح » من مدينة إلى أخرى ، ومن قلعة إلى أخرى ، حتى تحصن بعاصمة المملكة « يايتسي » ، و « يايتسي » مدينة مبنية على تل ، عندما تنظر إليها تبدو كشيخ أضناه السفر والزمن الطويل فتوكأ على تل ليستريح ، وفي أسفلها يجري نهران ، هما « فرباس وبليفا » ، والآن يجري نهر « بليفا » تعترضه الصخور فإنه يبدو كأنه يقذف بالمياه إلى أعلى تكريما للشيخ ، ويبدو منظر المدينة والشلال تحتها كأنه إكليل من الزهور البيضاء .

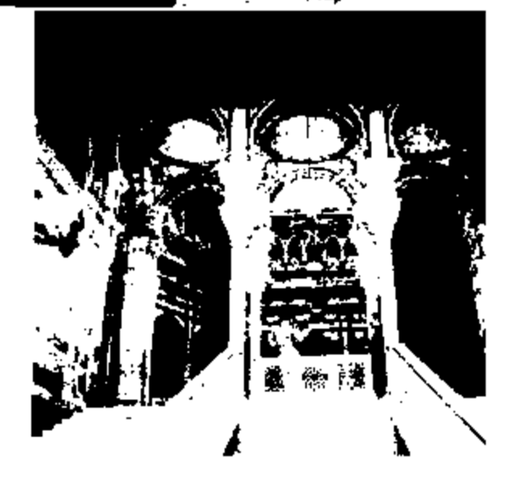
وفي ذلك الوقت من عام ١٤٦٣م كان العالم كله ينظر إلى هذه المدينة ، وكانت الامبراطوريات تترقب ، فقد كانت درعا أمام الشرق ، أمام الأتراك ، ولو سقطت « يايتسي » ـ كان العالم يتساءل ـ ماذا سيسقط بعدها ؟ كانت عيون العالم تنظر إليها ، والصلوات تقام لتبقى « يايتسي » تقاوم ، والقيصر في فينا ، عاصمة امبراطورية النمسا وهنغاريا ، يصحو كل صباح ليسأل : هل ما زالت « يايتسي » تقاوم ؟ وما زالت « البوسنة » تقاوم ؟ ويرسل المدايا لتتحصن المدينة ، إلى أن ذاع الخبر : « سقطت البوسنة » ، ولكن « يايتسي » تقاوم ، وازداد رعب أوروبا وممالكها ، وقاومت « يايتسي » بعنف . كان الشرق والغرب يتحاربان ، وفي لحظة بين الحياة والموت سقطت المدينة ، وسقط رأس فارسها وملكها ، سقط بالغدر وليس بالحرب ، وأيقن العالم أن السيف الذي سقط لن يرتفع ثانية زمنا طويلا ، فقد دعى الضباط الأتراك الملك « ستيفان » إلى سلطانهم للمفاوضات ، ولكن السلطان قال : إن الكلمة والأمان الذي منحه ضباطه لا يلزمه ، وارتفع السيف وسقط رأس الملك . بدأ التاريخ التركي في البوسنة . وبعد أقل من عشرين عاما احتل العثمانيون الهرسك أيضا ، وطوال خمسة قرون أصبحت البوسنة والهرسك جزءا من الامبراطورية العثمانية . وفي عام ١٨٧٨ ، وبعد هزائم العثمانيين ، وبدء تدهور الامبراطورية العثمانية . قرر مؤتمر برلين أن يعهد لامبراطورية النمسا وهنغاريا (أسرة هابسبورغ) بالسيطرة على البوسنة والهرسك . وقد استمرت التبعية حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى بسبب البوسنة والهرسك ، عندما كان ولي عهد النمسا يزور سراييفو ، وفي موكبه أطلق « جافريل لايرنسيب » الرصاص على ولي العهد فقتله ، واتضح بعد ذلك أن جافريل عضو بمنظمة اسمها « بوسنة الفتاة » التي تهدف إلى تحرير « البوسنة والهرسك » . وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تأسست عام ١٩١٨ ، في مؤتمر « فرساي » ، مملكة يوغسلافيا التي كان من ضمنها مناطق البوسنة والهرسك .

« طراز فريد »

طراز فريد من المهارة في « سراييفو » كلها ، فهي تضم في شوارعها أخلاطا للعصور المختلفة : بنايات من العصر التركي ، وأخرى







من عصر النمسا ، ومبان حديثة . ولكل مرحلة لها سماتها وملامحها المميزة . فقد ترك العثمانيون في البوسنة والهرسك الاسلام ، وفيها اليوم أكثر من مليوني مسلم من إجمالي المسلمين في يوغسلافيا ، وهم قرابة (٥ ملايين نسمة) ، وكان من نتائج إقامة العثمانيين فترة طويلة هناك أن انتشرت المساجد والمدارس والتكايا والمكتبات ، وقد تم بناؤها كلها وفق النمط السائد في التراث العثماني ، وهو طراز خاص ، يعتمد على التطابق الدقيق بين الخطوط العمودية وبين الأقواس الواسعة ، بينما يتميز الجزء النمساوي من مدينة سراييفو بالمباني المتأثرة بالهندسة المعمارية الأوربية السائدة في القرن التاسع عشر ، حاليات وتماثيل وإفراط في المساحات والارتفاعات .

انتقلنا فتدفقا في قلب المدينة ذات النمط التركي : الشوارع ضيقة ، خلف التدفق مباشرة الحي القديم ، محلات من الطوب والسقف من الخشب كلها باللون الأحمر ، تكية قديمة مهجورة كانت مخصصة للدراويش ، فيها غرف نوم وغرفة طعام رئيسية ، كان يقدم فيها الطعام في مواعيد الوجبات بعد صلاة الفجر ، وعقب صلاة الظهر ، وبعد صلاة المغرب ، في وسط الحي التركي ينتصب المسجد الكبير ، ساحة فسيحة وسطها نافورة مياه ، ثم مبنى المسجد . منصتان على يمين باب الدخول ويساره ، طراز العمارة يعتمد على الأعمدة والأقواس ، والمسجد من الداخل تحفة فنية رائعة من الزخرفة والنقوش الإسلامية ، وقد بنى المسجد « غازي خسرو بك » الذي كان واليا على البوسنة والهرسك بين عامي (١٥٢١ - ١٥٤١) ، وهو أكبر مسجد في يوغسلافيا كلها ، وقد وضع تصميمه وأشرف على بنائه مهندس اسمه « أمير علي » ، وقد بدأ في تشييده عام ١٥٣٠ وانتهى منه ١٥٣١م (٩٣٧هـ) .

وكان عهد « غازي خسرو » من أكثر عهود المنطقة ازدهارا ، فقد شهد عصره نهضة واسعة ، فابتنى بخلاف المسجد مدرسة ، ومد أنابيب المياه للبيوت ، وشيد مكتبة ، وخانا حياة للمتصوفين - تقويهم بلا مقابل - وبيتا للأقمشة ، « وكرفان سراي » أي بيتا للمسافرين ، وحماما . وقد كان تعداد سراييفو في ذلك الزمن ٨ آلاف نسمة فقط - أصبح الآن ٥٤٠ ألف نسمة - وفيها ٧٣ مسجدا ، وفي مسجد غازي خسرو هذا تقام الصلوات الخمس ، وتتم قراءة القرآن من الحفاظ ، وفي كل يوم جلسة توحيد وذكر بعد صلاة الظهر ، يقرؤون فيها جزءا من القرآن ثم يذكرون الله (لا إله إلا الله) ألف مرة . وتزدهر في سراييفو الصناعات اليدوية كالنقش على النحاس والفضة ، والحفر على الخشب ، كلها وفق الذوق الذي كان سائدا إبان العصر العثماني مع بعض التطورات والإضافات .

وفي سراييفو كلية للدراسات الإسلامية ، وهي الوحيدة من نوعها في أوربا . يقول الشيخ « حافظ حسين سوثيش » رئيس علماء يوغسلافيا : « لدينا في يوغسلافيا ٨٠٠ مسجد ومدرسة ثانوية إسلامية للبنين ، وأخرى للبنات ، وأربع مدارس دينية ، ولدينا ٣٥٠٠ إمام وواعظ وخطيب ، ونحن نبذل جهدنا في تعليم اللغة العربية ، وطبعنا معجمين (عربي - يوغسلافي) ، و (يوغسلافي - عربي) ، كما نقوم بنشاط في مجال الترجمة والطبع والنشر ، وقمنا بترجمة القرآن الكريم إلى اليوغسلافية . وتمويل المشيخة الإسلامية يتم من رسوم عضوية يدفعها كل مسلم ، بالإضافة إلى الزكاة وصدقة الفطر ، وعائد بيع الأضاحي ، وعائد الأوقاف .

« لؤلؤة الأدرياتيك »

على الرغم من أننا حاولنا لمدة أسبوع كامل الحصول على مقعدين في الطائرة المتجهة من سراييفو إلى « دوبرفنيك » إلا أننا فشلنا تماما .

فالرحلتان اللتان تقلعان يوميا لا مكان بهما مدة طويلة ، وأخيرا قالت موظفة الحجز في شركة الطيران : إنه لا أمل ، فالضغط دائم على خطوط المدينتين ، فكلتاهما من أبرز المناطق السياحية في يوغسلافيا ، « ودوبرفنيك » واحدة من أكثر المدن قدما وفتنة في العالم (هكذا قالت) . وعندما ارتفع حاجباي تعبيرا عن الدهشة قالت بحماس للمحب : دوبرفنيك مدينة لا تضاهيها مدينة في العالم ، واقرأ ماذا يسميها الأوروبيون وليس نحن ، انهم يسمونها « لؤلؤة الادرياتيك » ، واليونسكو تضمها تحت حمايتها الفنية كأثر تاريخي نادر المثال ، واذهب لترى بنفسك . وأشاحت وجهها عنا . خارج المكتب قال لي زميلي المصور : لماذا تجاهلت أمامها ودفعتها بصمتك لأن تندفع في الحديث بحماس لتقول لنا ما تعرفه عن « دوبرفنيك » ؟ قلت له : يا صديقي دعنا نرى كيف يتحمس الناس لبلادهم ، ويتحدثون عنها بحب ، لنقارن كيف نحن في وطننا العربي لا يهتم كثير من الناس بما هو موجود لدينا من كنوز التاريخ .

استقر رأينا على أن نستقل الحافلة من « سراييفو » إلى « دوبرفنيك » ، والمسافة كلها لا تتجاوز ٣١٠كم بحسابنا قلنا : إنها لن تزيد عن ثلاث ساعات تحركت بنا السيارة في الثانية والنصف ظهرا ، لنصل دوبرفنيك في التاسعة والربع مساء . سبع ساعات استغرقها الطريق ، قطعنا فيها ثلاثمائة كيلومتر عبر الجبال ، طرق صاعدة وهابطة ، ملتوية ودائرية في البداية كنا نجلس على حواف مقاعدنا ، نرقب الطريق مع السائق خوفا ، ومع الوقت وبعد الاطمئنان لقدرة السائق أدرنا وجوهنا لنرقب الطريق استمتاعا بالجبال ، وعبر الجبال تتنوع الطبيعة : قرى صغيرة تتمركز البيوت ذات الطابق أو الطابقين في منتصفها ، وتحيط بها المزروعات والحقول والحدائق ، في الأفق تبدو الطواحين التي ماتزال قائمة بالإضافة إلى أشجار الكروم والدخان الجبلي ، واللوز الأخضر . في جزء آخر تأخذ شكلا مختلفا : ساحات متسعة من الحقول ، وعلى رأس كل قطعة أرض بيت صغير ، وفي الخلف تبدو الماشية ، ثم تمتد الأرض ، وتهبط بنا السيارة لتهبط قلوبنا معها ، ثم تعود لترتفع . وفي الطريق مررنا على مدينة « موستار » - لم يكن مقررا لنا الوقوف - فحدقنا من النافذة ، ومع حركة السيارة في الهبوط والارتفاع كان يبدو مسجدها معلقا في الهواء ، حيث شيد فوق جبل يحيط بالمدينة . كان الوقت غروبا وأشعة الشمس وبقايا ضوء النهار تنسكب عليه ، ويصنع الضوء والظل والجبل والسماء المفتوحة لوحة رائعة فاتنة .

وصلنا إلى دوبرفنيك أخيرا ، حيث تمتد المدينة على شاطئ الادرياتيك ، ومناخها يشبه مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط ، والمدينة على سفح الجبل الممتد على شاطئ البحر . عندما تقف على الشاطئ وترفع ناظريك إلى المدينة تفاجأ بالمدرجات المنحوتة في الجبل ، مستويات متصلة ، كأنها طوابق ، بيوت ومنازل صغيرة ، وأشجار وخضرة ، والسيارات تسير ، وتصعد الطوابق بجعل المنظر متتاليا في مستوى ما ترى سيارة وخلفها حافلة سياحية ، ترفع عينيك إلى المستوى الذي يعلوه فتجد سيارات مختلفة ، وشكل البيوت والحدائق مختلفا ، تهبط إلى مستوى أدنى فتتغير الصورة ، وهكذا .

عند شاطئ البحر تنتصب المدينة القديمة ، لكنها مدينة ليست ككل المدن ، إنها حياة من نوع شديد الخصوصية .

« المدينة القلعة »

قنطرة خشبية متحركة تفصل بين المدينة القديمة وما عداها ، ترتفع القنطرة ويغلق باب المدينة ، وتصبح قلعة حصينة ، ظهرها جهة الباب مؤمن تماما ، وسور عال شاهق الارتفاع يتجاوز ٢٢٠ مترا يحيط بها من كل جانب في





دائرة كاملة ، ولا منفذ بعد ذلك إلا المرفأ على البحر ، هنا كانت مملكة « دوبروفنيك » القديمة ، تتحصن هنا ، ولا يصبح أمام الغزاة منفذ للدخول . وداخل القلعة مدينة كاملة ، حياة بأسرها ، سوق ، محلات ، منازل ، مقاهٍ ، أربعة آلاف نسمة ما زالوا حتى اليوم يمارسون حياتهم داخل المدينة القلعة ، التي يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادي . وازدهرت فيها حياة كاملة . أنشئت فيها أقدم صيدلية في العالم عام ١٣١٧م ، وفي بدايات القرن الرابع عشر أقيم بها ولأول مرة في أوربا كلها ملاجيء لأطفال ، ودور رعاية للعجزة . وفي المدينة كنيسة بناها الملك « ريتشارد » قلب الأسد ، هدية منه للمملكة عندما مر عليها عقب عودته من حملته الفاشلة على القدس . وفي الكنيسة بعض آثار الملك ريتشارد وهداياه الثمينة التي منحها للكنيسة ، ومنها تمثال لصغير أحضره من القدس .

والمدينة بالداخل شارعان رئيسيان عريضان ، عرضهما يتجاوز الاثني عشر متراً ، أرضيتهما من الطوب الصخري الأسود ، وبين الشارعين تتواصل حارات صغيرة عديدة ، ممر صغير فيه أبواب البيوت والمقاهي والبارات في الدور الأرضي ، ثم درجات سلم لتنتقل إلى حارة أخرى بالنمط نفسه . وفيها درجات سلم أخرى تسلمك إلى حارة جديدة ، وهكذا تتوالى مدرجات ، وتتفرع حارات . خلف نوافذ البيوت وعلى الشرفات أصص الورد والنباتات الخضراء ، واللبلاب يمتد ليكسو الجدران ، والمقاهي ممتلئة بالبشر سائحين ومواطنين ، والشوارع شديدة الازدحام : بشر يتجولون وآخرون يتفرجون على البشر ، وصف ثالث يسير جيئة وذهابا بلا هدف ، نبض كامل وحقيقي ، وازدحام بلا مشاكل . فالمدينة لم تعرف من المدنية إلا الماء والكهرباء والصرف الصحي ، أما عدا ذلك فلا سيارات ولا دراجات ولا ضجيج ، إلا أصوات البشر وهدير موج البحر .

في الميناء ترسو القوارب الصغيرة ، والمراكب التي تمخر عباب الادرياتيك ، في رحلات منظمة للجزر المحيطة « بدوبروفنيك » ، وحول الميناء مقاهي الرصيف التي لا تخلو أبدا من البشر ، نهارا ينتظرون في رحلات للجزر ، أو في انتظار موعد إبحارهم ، وفي المساء يستمتعون بمنظر البحر الذي تنعكس عليه الأضواء من مدرجات الجبال ، ومدرجات الحارات ، فتنة كاملة . لا ينقطع السياح عنها طوال أشهر الربيع والصيف ، من نهاية مارس وأول ابريل حتى أوائل اكتوبر ، وفي الشتاء يلف الهدوء المدينة ، ويبقى فيها ساكنوها ، وتهدأ حركة المقاهي ، ويتركها عدد من أرباب المهن الخدمية عائدين إلى القرى المحيطة بها ، بعد أن ينتهي موسم الثروة والعمل ، شأن كل المدن التي تبيع التاريخ والسياحة للقادمين .

« العرض الجماعي »

كان وصولنا إلى دوبروفنيك مساء يوم الجمعة ، وموعد مغادرتها عصر الأحد ، وعندما سألنا عن أقرب القرى المحيطة لنرى صورة حية للقرية اليوغسلافية ، قالوا لنا : عليكم بزيارة قرية « شيلي » صباح يوم الأحد ، حيث سترون نموذجا للقرية التقليدية في هذه المنطقة كلها . الوصول إلى القرية كان مشكلة ، فسيارات الأجرة لا تعمل وفق نظام العداد الآلي ، ولكن بالاجتهاد الشخصي ، وكم من مسافة قطعناها بسيارتين مختلفتين ، وفي كل مرة ندفع أجرا مختلفا ، ولهذا فقد استقر رأينا على أن نستقل الحافلة . تحركنا من « دوبروفنيك » في الثامنة صباحا ، وصلنا إلى « شيلي » في العاشرة إلا ربعاً . عند هبوطنا وجدنا عشرات الحافلات السياحية التي تنقل أفواج السياح . طريق القار « الاسفلت » - الطريق العام - يشق القرية

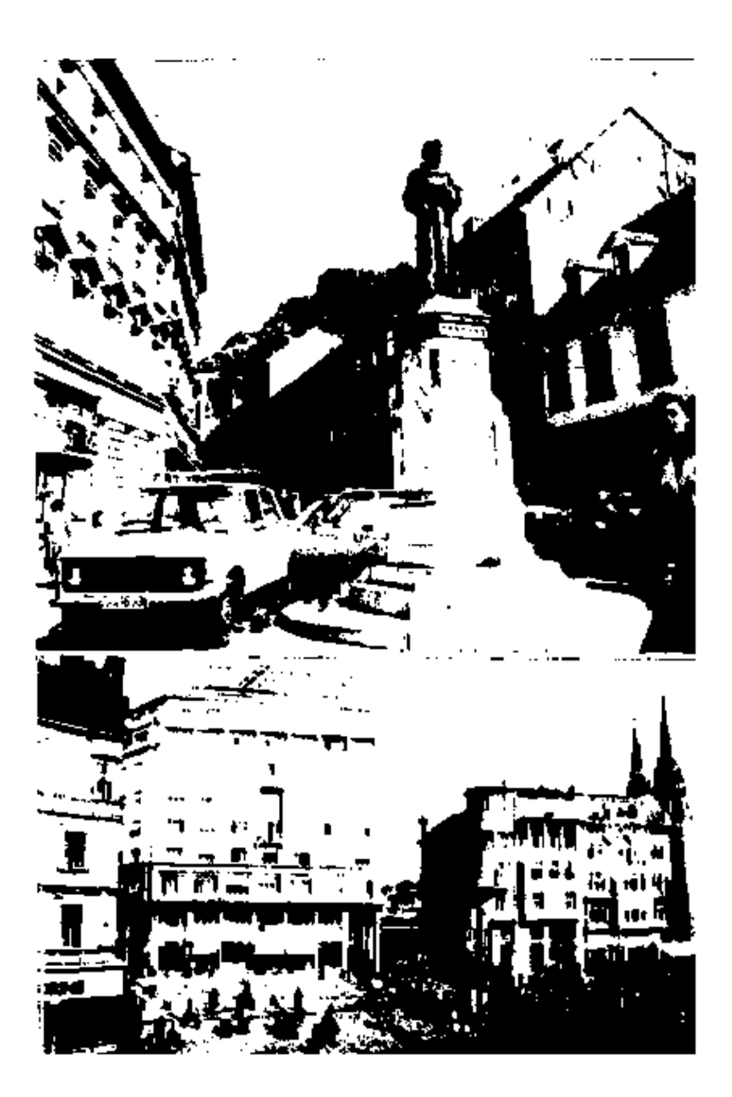
نصفين ، إلى اليسار المزارع وحقول الكروم ، وإلى اليمين ساحة القرية الرئيسية ، حيث مبنى الكنيسة ، والمقاهي والمتحف ومبنى المدرسة ، وبعض بيوت السرلة ، ومحلات تجارية . فور عبور طريق القار « الاسفلت » ، على الجانبين يقف أهل القرية لبيع منتجاتهم : مشغولات يدوية ، (مفارش) للمناضد ، قمصان للنساء مشغولة باليد ، أحذية خفيفة مبطنة بالوبر للاستخدام المنزلي ، عنب ، ملابس نسائية ، تحف خشبية ، وزحام من البشر ، وكل أهل القرية يرتدون الملابس الوطنية القديمة نساء ورجالا ، وعجائز وشبابا ، حتى الأطفال . على درجات السلم العريض المتسع أمام الكنيسة تراصت أفواج السياح جلوسا ، بينما انطلق بعض الناس إلى المقاهي ، وتدافع آخرون في زحام كثيف لتجربة مجانية للنبيذ المنتج في القرية ، (كانت الساعة قبل الحادية عشرة صباحا) ، ويدخل بعضهم إلى الكنيسة لتأدية صلاة يوم الأحد ، وآخرون يقفون أمام المعروضات للمساومة ولمسها للشراء .

كلما اقترب عقربا الساعة من الحادية عشرة أصبح الزحام شديداً ، والكل يتجه للساحة المواجهة للكنيسة ، وخلف الكنيسة والساحة تمتد مزارع الكروم ، وفي مقهى جانبي جلس بعض المواطنين من سكان القرية ، في ثياب يوم الأحد النظيفة ، يتحادثون ، ويشاهدون التلفاز ، ويحتسون النبيذ (ما زال الوقت صباحا) ، وقبل الحادية عشرة بعشرة دقائق بدأت الحركة في الساحة : أجهزة صوتية ، آلات موسيقية . وفي الحادية عشرة تماما بدأ رجال ونساء بالملابس الوطنية القديمة في تقديم الرقصات الشعبية والغناء الشعبي ، عرض مدته نصف ساعة (اختتموه برقصة مشتركة بين الحضور والراقصين ، رجل من الحضور مع فتاة من الراقصات ، والعكس ليؤديا رقصة مشتركة ، الرقصات بها ملامح من رقصات شرقية ، الدبكة اللبنانية تحديدا ، والموسيقا بها نغمة وإيقاع من الشرق) .

وفي نهاية الرقص شكرت الفرقة جميع الحضور (لتشريفهم) قريتهم . وخوفي من الازدحام الذي بدأت ملامحه تتجمع وتتضح على مخرج طريق واحد ، درت وزميلي من خلف مبنى الكنيسة وخلف المتحف لنخرج إلى الطريق العام ، لنجد الباعة الذين كانوا يرتدون الملابس الوطنية يخلعونها عنهم ، لتظهر من تحتها ملابسهم المدنية الحديثة ، فقد انتهت المسرحية ، وانتهى العرض الجماعي الذي شاركت فيه القرية كلها ، لتبيع للسياح رائحة الماضي ، وتأخذهم في رحلة إلى تاريخ قديم . وبعد ذلك عرفت من أحد موظفي شركات السياحة في المدينة أن شركات السياحة مجتمعة هي التي نظمت هذه المسرحية بالاتفاق مع أهل القرية . والمنافع في النهاية تعم على الجميع .

« تترقب »

في طريق عودتنا من القرية كانت الشواطئ الجبلية قد امتلأت بالرواد ، الكل يغسل همومه في مياه البحر ، وعديد من الفنادق تنتشر على طول الطريق ، فيوغسلافيا واحدة من أهم بلدان أوربا للسياحة ، وفي العام الماضي فقط سجلت أكثر من ١١٠ ملايين ليلة مبيت ، وزارها أكثر من مليوني سائح للإقامة ٣ أيام فأكثر ، دفعوا د.٣ مليارات دولار أمريكي ونصف مليار ، وتنوع طبيعة يوغسلافيا وثراؤها التاريخي سيان مهمان في كونها منطقة جذب سياحي ، وبالإضافة إلى ذلك فإن انتشار العيون والحمامات الطبية التي تستخدم مياهها في علاج كثير من الأمراض أوجد نوعا خاصا من السياحة ، وهو السياحة العلاجية ، ولذلك فإنهم على الرغم من كل المتاعب يخططون للارتفاع بعدد الأسرة من مليون و٣٥٠ ألف سرير إلى (٢) مليوني سرير في أول الموسم السياحي الصيفي القادم ، خاصة أن يوغسلافيا لا ينقطع عنها السياح صيفا وشتاء ، ففي الشتاء





للتزلج على الجليد ، أو للصيد الشتوي في الجبال . ويأمل المسئولون عن السياحة أن يزداد الإقبال بعد تخفيض قيمة العملة ، فالدولار الواحد يساوي (٣٢٠ دينارا) تقريبا ، أي أن المائة دولار تساوي ٣٢٠ ألف دينار ، ولتقريب صورة الأسعار ذهبنا في المساء بعد يوم عمل طويل لم نذق فيه طعاما ، إلى مطعم في أفخم فنادق بلغراد ـ لم نكن نقيم فيه ـ وتناولنا وجبة طعام فاخرة ، ودفعنا عن شخصين ٥٥ ألف دينار ، وصحيح أن التضخم قد ألهب الأسعار ، ولكن للأسف فإن هذا لا يستشعره ويكتوي بناره إلا المقيمون أبناء البلد ، خاصة مع تدني المرتبات ، فمثلا نائب رئيس مجلس إدارة لأحد أكبر المجمعات الزراعية الصناعية يبلغ مقدار مرتبه مالا يتجاوز ٢٥٠ دولاراً ، ووزير العادي في الوزارة مرتبه في حدود ٣٥٠ دولارا . صحيح أن المرتب وحده ليس مقياسا ، فهناك خدمات ورعاية تقدمها الدولة ، ولكن ما يعنينا هنا أن مسئولي السياحة يراهنون على زيادة عدد السياح ، ويترقبون مواسم أكثر ازدحاما ، علها تبعث الرواج في الاقتصاد الذي يعاني من مشكلات التغير .

رياح التغيير

في مبنى أنيق شاهق الارتفاع ، كان لقاؤنا في التحالف الاشتراكي للشعب العامل اليوغسلافي ، وهو أكبر وأوسع منظمة سياسية واجتماعية في يوغسلافيا (١٤ مليون عضو فقط !) يلخصون المشكلة بقولهم : نعم لدينا مشكلة اقتصادية ، وبداية الحل دائما صعبة ،

كسنوات البداية التي ما زلنا نذكرها ، ولكن الإصلاح ضروري ومهم ، والأزمة أن بعض القوى البيروقراطية استغلت مناخ الظروف الاقتصادية ، ولرغبتها في التمسك بالحكم والسلطة السياسية بدأت تغذي تيارات الانفصال ، فبدأت ترتفع نغمات لا معنى لها

جمهورية تقول : نحن أكثر غنى وتقدما من جمهورية أخرى ، أو نحن نصدر للخارج نصف صادرات يوغسلافيا . ولذلك فإلى جانب الإصلاح الاقتصادي فإن السياسات والإجراءات الجديدة تهدف إلى فصل الاقتصاد عن السلطة السياسية في الجمهوريات ، أي نزع أظافر القوى البيروقراطية التي تحشر بها تجربة الوحدة .

في الطريق لمقابلة وزير الاقتصاد الاتحادي أخذ ذهني يرتب نقاط الأزمة كالتالي ـ قروض ـ عجز في ميزان المدفوعات ـ عجز في السيولة النقدية والعملة الصعبة ـ كثير من الصناعات التي تستورد موادها الأولية مهددة بالتوقف ـ خفض قيمة العملة أدى إلى ضعف قوتها الشرائية . فجأة صرخ سائق السيارة ومرافقنا كأنما اشتعلت النار فجأة في ثيابها . سألت : قال مرافقنا : إن عرض أنباء الثالثة الذي كان يذاع في تلك اللحظة أفاد أن تقريراً رسميا لوزارة الاقتصاد يقول : إن معدل التضخم اقترب من ٢٢٠٪ ، نعم مائتان وعشرون بالمائة . !

عدت لورقة ملاحظاتي ، أضفت إليها الخبر الأخير ، معنى ذلك أن تكلفة الحياة اليومية أصبحت أكثر ارتفاعا ، وسط هذه الأزمات الاقتصادية الخانقة ـ ما زلت أسجل في دفتر ملاحظاتي ـ ترتفع أصوات قوى سياسية داخل بعض الجمهوريات تطالب بالانفصال وبالحكم الذاتي .

مع « رادوسلاف بوجيتش » وزير الاقتصاد الاتحادي حاولت في الوهلة الأولى أن أفهم ، وقلت له : ماذا يحدث بالضبط في يوغسلافيا ؟

ابتسم الرجل وقال : هذه بداية جيدة ، فالكل يأتي ويبدأ في طرح آرائه ، فليأتون الآن الراغبون في الإصلاحات ، ما يحدث هو أننا نطبق سياسة إصلاح اقتصادي جديد ، تعتمد على مفهوم الحرية في الأسعار ، وترك تحديد السعر

لقوى السوق ، والحرية في الاستيراد ، وحرية سعر الصرف ، وعلى الرغم من أننا بدأنا في هذه السياسات إلا أن استجابة الناس لها ليست بالدرجة الكافية ، ولكن المؤشر الإيجابي أن سوق العملات الأجنبية يسير بشكل مرضٍ ، وما حققته سياسة سعر السوق الجديد من آثار - تمثلت في ارتفاع حصيلة الدولة من العملات الأجنبية - مؤشر جيد ، يرتبط بهذا ارتفاع معدل التضخم ، ولكن التضخم موجود في كل الاقتصاديات ، وفي كل النظم الاقتصادية ، وفي تقديري أنه مؤشر لرخاء ، ولكنه سيعود للهبوط والاستقرار ، عندما يتوازن سعر التكلفة مع سعر البيع ، وبعد أن تؤتي هذه السياسات الجديدة ثمارها . وما نحتاجه هو مزيد من الوقت ، خاصة أن هذه الاجراءات مقدمة لتعديلات جوهرية في دستور البلاد . وستتيح هذه التعديلات إطلاق حد ملكية الأفراد في القطاع الزراعي من ١٠ هكتارات للفرد إلى ٣٠ هكتارا للفرد ، وفتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية ، وحق فتح الحساب في المصارف بالعملات الأجنبية للأجانب ، وكذلك حق استرداد العملة وإخراجها من البلاد ، وباب الاستثمارات مفتوح في كل الميادين والقطاعات بلا حدود . اللهم إلا في قطاعي التعليم والتأمين فقط .

وفي تقديري أن هذه السياسات ستحقق استقراراً للسوق ، وتفتح الباب للاستثمارات ، وتحسن من وضعية الاقتصاد .

قلت لوزير الاقتصاد الاتحادي : ألا تلاحظ الشبه بين ملامح هذه الإجراءات وبين سياسات إعادة التكيف التي يطرحها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ؟ وألا يعد هذا تراجعا عن السياسات الاشتراكية ؟.

بهدوء أجاب الوزير : نعم هناك بعض التوافق بين هذه الاجراءات وسياسات الصندوق والبنك

ولكننا نراعي ظروف بلدنا وطبيعتها ، أما عن التجربة الاشتراكية فاعتقد ان الفرق هو : من يصنع القانون في المجتمع ؟ ومن المالك ؟ في مجتمعنا المالك هو العمال ، وهم أولئك الذين يصنعون القانون ، ولذلك لا خوف على التجربة الاشتراكية .

ما زلت أبحث عن تفسير أوضح . نعود مرة ثانية لمسئول العلاقات الخارجية في التحالف الاشتراكي اليوغسلافي فيقول : نحن واعون بأننا ندخل مرحلة جديدة ، والنتائج لا يمكن التكهن بها كلها ، ولكن بدون مخاطرة لا يتم التقدم والتطور .

هل تقاوم؟

ونحن نغادر بلغراد أخذت أتأمل وأقطع الوقت بحساب المسافة والزمن بينها وبين العواصم الأوروبية ، وتأكد لي أنها من جراء وقوعها في موقع وسط ، بالغ الحرج والدقة والأهمية . فقد عانت طوال تاريخها ، ولم يتركها العالم أبدا كي تهدأ ، وتتفرغ للبناء والتنمية والانطلاق ، وكانت المشاكل والتحديات هي قدرها ، واستطاعت في مدة سنوات طويلة بإرادة أبنائها وبقيادة تاريخية ، أن تحقق الحلم الذي داعب أجيالا مضت ، استطاعت أن تبني وطنا ، وتصوغ حياة أفضل ولكن الزمن الآن ليس رخاءً ، والرياح تهب وتعصف ، والسفينة بلا قبطانها الذي حرر وجمع ووحد ، والتحدي حرج وكبير ، ولذلك فبعدما عدنا وطوال وقت إعداد الموضوع كنت كقيصر التماثيل ، أصحو كل صباح وأسأل هل ما زالت تقاوم ؟ ولكنني لا أملك هدايا أرسلها لكي تتحصن ، كل ما أملكه مع كل العرب ، أصدقاء يوغسلافيا - قدر من الحب والمواقف المشتركة ، والتاريخ المتشابه ، ونتمنى لها أن تظل تقاوم ، وألا يسقط السيف من الفارس الذي يتوسط البلقان .□

[illegible]

اللشمانيا

[illegible]

سطح الأرض ، ويصل إلى [illegible]
لذلك فإن نشاطها يزداد في [illegible]
وتتغذى على دم الإنسان أو الحيوان [illegible]
تمتص دم إنسان أو حيوان مصاب (مثل الكلاب
أو الثعالب أو الجرابيع حيث تعد هذه الحيوانات
مستودعاً لطفيل المرض) يكون هذا الدم محملاً
بطفيل مرض اللشمانيا ، الذي يتكاثر في معدة
الحشرة ثم يصل إلى لعابها . وعند لدغها إنسان
أو حيواناً سليماً فإنها تحقن هذه الطفيليات في
جسمه مسببة له المرض . وتتغذى حشرة الرمل

[illegible]

اللشمانيا الحشوية

هذا النوع من المرض يعرف [illegible] (الكلازار) [illegible] انتشار واسع في مختلف مناطق العالم فقد وجدت حالات في كل

* أستاذ مساعد بكلية الطب ، جامعة [illegible] بالمملكة العربية السعودية .



● الليشمانيا الأنفية المخاطية بسبب القرح في منطقة الأنف



● الليشمانيا الجلدية في الخدين

من أفريقيا - منطقة الشرق الأوسط - الهند - الصين - منطقة حوض البحر المتوسط - جزء من أمريكا الجنوبية - الاتحاد السوفيتي . والمرض ينشأ من الإصابة بنوعين من طفيل اللشمانيا ، إما اللشمانيا الدونوفاني (هذا الطفيل يوجد في منطقة الهند) أو اللشمانيا «الانفانتم L. INFANTUM» واللشمانيا الحشوية يندر وجودها في منطقة الشرق الأوسط ، ما عدا حالات قليلة العدد اكتشفت حديثا في المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية والسودان .

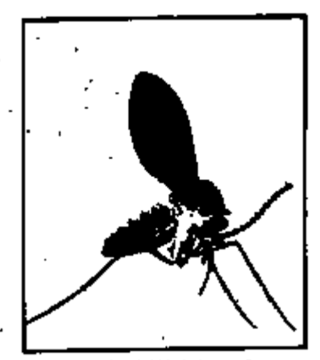
أما أعراض مرض اللشمانيا الحشوية ، فإنها تحدث بسبب اللدغ بواسطة حشرة الرمل الناقلة لطفيل اللشمانيا من نوع الدونوفانية ، أو الانفانتم ، والإصابة الأولية في موضع اللدغة غالبا ما تكون غير واضحة ، ولكن إن ظهرت فإنها تسبق الإصابة الحشوية . والفترة اللازمة لبداية ظهور أعراض المرض ، أو ما يسمى فترة الحضانة لهذا المرض ، تختلف كثيرا من شخص إلى آخر ، لكنها تتراوح في الغالب ما بين شهرين وأربعة أشهر . وغالبا ما تظهر الإصابة في البداية على الأشخاص المقيمين في المنطقة التي يستوطن فيها المرض ، وقد تكون شديدة ، أو قد تكون تدريجية ، حيث يشكو المصاب من ارتفاع في درجة الحرارة ، ونافض ، وتعرق ، وضعف عام ، وإسهال ، وكحة ، وتضخم في الكبد والطحال . ويتقدم المرض يتسمّر جلد المصاب في منطقة اليدين والقدمين والبطن والجبهة (ومن ذلك عرف المرض باسم الكالا الأسود) ، ثم يصاب الشخص بالصفراء والانتفاخ في البطن ، والموت غالبا ما يكون سببه الإصابة العارضة بمرض آخر . وقد تتداخل هذه الأعراض مع أعراض الإصابة بأمراض أخرى مثل الملاريا ، والحمى التيفية ، والسل الرئوي ، وحمى البروسيلا . وللتأكد من الإصابة باللشمانيا : يستوجب إجراء الفحص للخزعة المصاب التي تُظهر أجسام ليشمان دونوفان في الدم ، أو في رشفة من نخاع العظم ، أو الكبد أو الطحال . ومما تجدر الإشارة إليه أن اختبار اللشمانيا الجلدي في حالة نشاط المرض غالبا ما تكون سالبا .

اللشمانيا الجلدية

كما تمت الإشارة سابقا إلى أن هذا النوع من المرض يحدث نتيجة لدغة من حشرة الرمل الحاملة لطفيل اللشمانيا المدارية ، في منطقة الشرق الأوسط ، وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط . ويعتقد بأن هذا النوع من اللشمانيا نشأ في وسط قارة آسيا ، وانتقل منها إلى دول منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا . وفي منطقة الخليج ودول الشرق الأوسط ، يعرف هذا المرض بأسماء عديدة ، مثل حبة بغداد ، أو القرحة الشرقية ، أو حبة حلب .

وتوجد حالات في منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج ، وكذلك في العراق وإيران والسودان . ويصيب هذا المرض الرجال والنساء على حد سواء ، وفي جميع الأعمار ، سواء البالغين أو الأطفال . وفي بعض المدن في منطقة الشرق الأوسط - التي يستوطن فيها المرض - جزء كبير من السكان ، يوجد بأجسامهم آثار على شكل ندبة ، تدل على سبق الإصابة بهذا المرض . والإصابة الأولى بالمرض ، غالبا ما تعطي الجسم مناعة دائمة ، ضد إعادة الإصابة ، وحتى لو تعرض الشخص للإصابة فإن شكل المرض يكون أقل حدة . وفي المناطق التي يستوطن فيها المرض تحدث الحالات طوال السنة ، ولكن غالبا ما تكثر الحالات ، خصوصا في منطقة الشرق الأوسط والخليج ، في الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة (أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر) .

إن الإصابة بهذا النوع من اللشمانيا ، تسبب إما بظهور قرح تشفى تلقائيا ، أو بطفحات



● حشرة الرمل الناقلة لداء اللشمانيا

مزمنة ، أو ربما تسبب قرحا جلدية منتشرة ولكن الأخيرة يبدو أنها الحالة الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط . وفي موضع اللدغة بحشرة الرمل تظهر الإصابة سريعا في البداية ، على شكل احمرار وحكة ، تشبه لدغة البعوض ، وبعد فترة تتراوح بين أسبوعين إلى ثمانية أسابيع تكبر في الحجم لتصبح في شكل عقدة ، وتستمر في الزيادة ، حتى تصل إلى حجم (١ - ٢ سم) ، وأحيانا أكبر من ذلك . هذا الانتفاخ قد يتحول إلى قرحة تبدأ في إفراز قيح ، إذا كانت الإصابة بطفيل اللشمانيا المدارية الكبرى أو ربما يبقى جافا مغطى بقشور إذا كانت الإصابة بطفيل اللشمانيا المدارية الصغرى . وفي بعض الأحيان ، تصاب هذه القرح بالبكتريا ، مما تزيد حدة الالتهاب في موضع التقرحات . وغالبا ما تظهر الإصابة على الأجزاء المكشوفة من الجسم مثل الوجه ، والأذنين ، واليدين ، والذراعين ، والقدمين ، والساقين . وتقتصر الإصابة بهذا النوع من المرض على الجلد ، ولا تشمل الأعضاء الداخلية من الجسم .

اللشمانيا الأغشية المخاطية

الإصابة بهذا النوع من اللشمانيا يكون سببها لدغة من حشرة الرمل الناقلة لطفيل اللشمانيا ، المسمى اللشمانيا البرازيلية ، وسميت بذلك ، لاكتشاف هذا الطفيل في منطقة حوض نهر الأمزون في أمريكا الجنوبية . وحالات الإصابة بهذا النوع من المرض قليلة جدا في منطقة الشرق الأوسط . وغالبا ما تكون إصابة الأغشية المخاطية إصابة ثانوية للإصابة بالتقرحات الجلدية .

وبداية ظهور أعراض الإصابة بهذا النوع من المرض تسبقه الإصابة الجلدية ببضعة أسابيع أو شهور ، وقد تتأخر إلى عدة سنوات . والأجزاء الأولى من الجسم التي تظهر فيها الإصابة هي منطقة الخرطوم . ويكون الرعاف والاحتقان في الجيوب الأنفية أول بداية لأعراض ظهور المرض ، وتبدأ الإصابة في حجم رأس عود الكبريت ، ثم تكبر وتقرح الأغشية المخاطية في الجيوب الأنفية ، وسرعان ما تتلف هذه الأغشية ، مسببة تشوهات واضحة في منطقة الحاجز الفاصل للأنف . وأحيانا ينتشر المرض إلى الأغشية المخاطية المجاورة في الفم ، وقد يسبب ذلك في انسداد الفتحات التنفسية الأنفية ، وظهور أمراض في الجهاز التنفسي ، بما فيها التهاب الرئتين ، وغالبا ما تكون أمراض الجهاز التنفسي الشديدة سببا في وفاة المصابين بهذا المرض .

طرق العلاج

غالبا ما تشفى الإصابة بهذه اللشمانيا الجلدية تلقائيا دون أي علاج ، ويستغرق شفاء هذه التقرحات مدة سنة إلى سنتين ، وأحيانا قد تطول إلى أكثر من ذلك ، ولكن عندما تترك هذه التقرحات لتشفى تلقائيا فإنه من المحتوم أن تترك ندبات مشوهة ، وبالخصوص في منطقة



● سيدة مصابة بالليشمانيا الجلدية

الوجه ، وهذه التشوهات غير مرغوب فيها ، خصوصا إذا كان المصاب أنثى . ولتجنب حدوث ذلك يجب أن يبدأ العلاج للإصابة بأسرع وقت ، قبل أن تنتشر القرحات ، ويلزم التخلص من الإصابة البكتيرية الثانوية سريعا .

أما بالنسبة للاصابة بالليشمانيا الحشوية فإنها قد تؤدي إلى موت المصاب إذا ما تركت دون علاج ، وكما ذكر سابقا فإن سبب الوفاة غالبا ما يكون الإصابة العارضة بمرض آخر . وأحيانا تعود الإصابة مرة أخرى بعد الشفاء التام بالمعالجة ، وهذه الانتكاسة تحدث حتى بعد سنتين من فترة العلاج . ولكن معظم حالات الليشمانيا الحشوية تستجيب جيدا للعلاج .

وتجدر الإشارة إلى أن وسائل العلاج المتوافرة حاليا ضئيلة ، ففي حالة الإصابة بالليشمانيا الجلدية ، إذا لم تكن القرحات شديدة ، فإنه يمكن معالجتها موضعيا بالحرارة ، أو تعريضها للأشعة ، أو الأشعة تحت الحمراء ، أو بالتبريد أو بحقن مركبات الأنتيمون الخماسية موضعيا في داخل القرح .

وقد استخدمت مركبات الأنتيمون الخماسية ، مثل ستيبو جلوكونات الصوديوم (البنتوستام) ، أو ميجلومين أنتيمونيت (جلوكنتايم) لعلاج جميع أنواع الليشمانيا ، وذلك بحقنها في العضل أو الوريد . أما الحالات التي لا تستجيب لهذا النوع من المعالجة فيمكن استخدام عقاقير أخرى مثل بنتاميدين أيزيثيونيت ، أو أمفوتراسين ب ، أو زرقات الوبيورينول .

ولابد من توافر ثلاثة عناصر رئيسية في المناطق التي يستوطن فيها المرض - وهي :. مستودعات الطفيل في الحيوان ، وحشرة الرمل الناقلة للمرض ، والإنسان المصاب . ولمكافحة هذا المرض يمكن اللجوء إلى القضاء على عائل طفيل الليشمانيا (الكلاب أو الثعالب أو الجرابيع) ، أو التخلص من حشرة الرمل . وذلك برشها بالمبيدات الحشرية . أما بالنسبة للإنسان فيمكن حمايته إما برش المنازل بالمبيدات الحشرية أو تغطية نوافذ الغرف في المنازل بالسلك ، أو باستعمال الناموسية التي لا تسمح بدخول الحشرة من خلالها . ومن المعروف أن الشخص إذا أصيب بالليشمانيا فإنها تعطيه مناعة دائمة ضد المرض ، فقد تم حديثا ، استنادا إلى تلك الملاحظة ، التفكير في تطوير نوع من اللقاح لكي يستخدم في تطعيم الأشخاص الذين يعيشون في المناطق الموبوءة . وستشهد السنوات القادمة تقدما ملموسا في طرق الوقاية من داء الليشمانيا في هذا الاتجاه . □







[illegible]

- القصيدة [illegible] [illegible] فلسطين
- القصيدة العربية [illegible] واكتشفت صوتها الخاص في حالة [illegible]
- أريد للمرأة العربية أن تظل عربية . وأن تتوازن مع العصر

اختفت في القصيدة الحديثة موضوعات النفاق الاجتماعي واستعاد الشعر كبرياءه

تمتد مسيرة الشاعر نزار قباني مع الشعر على مدى أربعة عقود من الزمن ، أنتج خلالها خمسة وثلاثين كتابا ، في الشعر والنثر ، منذ بداية الخمسينيات حتى أواخر الثمانينيات . وهي تجربة حافلة ، تتميز بنوع من الاستثناء في تاريخ الشعر العربي المعاصر ، من حيث الموضوعات التي يثيرها في شعره ، والتصريحات التي يطلقها في أحاديثه ، والزوابع التي أثيرت حول شعره ، بدءا بإحدى جلسات البرلمان السوري في الخمسينيات التي طالب فيها النواب بطرده من السلك الديلوماسي بسبب قصيدته « خبز وحشيش وقمر » ، وانتهاء بقصائده الثلاث الأخيرة عن انتفاضة الحجارة في الأرض المحتلة ، ومرورا بقصائده الصدامية التي أشعلت النيران حوله خلال آراء بعض النقاد الذين استثارهم شعره للنقاش سلبا أو إيجابا .

وإذا كان « أرشيف » الشاعر يشتمل على مئات المقابلات والحوارات التي عقدت معه على مدى أربعين عاما ، فإنه يبقى في جعبته الحافلة ما يقوله حول موضوعات ثقافية ، وأدبية وحياتية أساسية في واقعنا الراهن ، أو تطلعنا المستقبلي ، كما في هذا الحوار .

وقد أجرى الحوار معه الكاتب جان ألكسان :

● في الأحاديث التي أدليت بها ، والحوارات التي عقدت معك على مدى أربعين عاما كان لك في الشعر أكثر من تعريف . نذكر منها على سبيل المثال :

- الشعر عملية صدامية .

- الشعر عملية استشهاد على الورق .

- الشعر هو الناس ، وهو الشارع .

- الشعر حزب معارضة وليس حزب موالاة .

ما التعريف الذي تطرحه الآن للشعر ، بعد هذه المسيرة الطويلة مع القصيدة ؟

- أطرح جميع هذه التعريفات ، مفصلة ومجتمعة . وأرفض التعريفات المعاكسة التي يقول أصحابها إن القصيدة مجرد عملية تطريب أو تخدير ، يسمعها الإنسان العربي في أمسية ، ثم يعود إلى حالته الأولى . فالشعر في حقيقته - كما أقول دائما - عملية صدامية ، بل وعملية استشهاد على الورق ، ووظيفة الشعر أن يحرض الانسان على نفسه ، ولا شعر حقيقي دون تحريض .

الشاعر يجب أن يكون دائما في قلب المعركة ، في قلب التاريخ . ومن هنا فإن الشعب العربي لم يعد يخدع بالشاعر الماشي الذي يستسلم للطمأنينة ، ويطلب « بوليصة » تأمين على شعره . إن الشعب العربي لايقبل الدجل ، ولا يقبل الغش ، ولا يقبل شاعرا يدلس عليه . فهو يكشف زيفه بإحساسه الفطري الأصيل .

الحقيقة كلها أو لا شيء

● هل كنت دائماً صادقاً مع قرائك وجمهورك ، أي ألم تضطرك ظروف معينة لأن تقول نصف الحقيقة ؟

- أنا لا أتدجل على قرائي وجمهوري ، كنت صادقاً معهم على مدى أربعين عاماً دون انقطاع ، كنت أعايشهم في همومهم الصغيرة وقضاياهم الكبيرة ، ولو لم أكن كذلك لما استطعت أن أقف على قدمي أربعين سنة وأنا أتنقل من منبر إلى منبر ، وتزداد جماهيريتي يوماً بعد آخر .

وفي جميع مراحل هذه المسيرة كنت جزءاً من التاريخ العربي ، بمواقفه ، بحسه ، بطموحه ، بوحدته .

شاعر وحدوي ، وشاعر قضية

● هل تعد نفسك إذن شاعر قضية ؟

- أجل ، أنا شاعر قضية ، وأنا شاعر وحدوي وقومي ، وضد جميع أشكال التجزيئية والطائفية والمذهبية .

● هل يعني هذا أنك ترفض الألقاب التي أطلقت عليك ، شاعر الدانتيل ، شاعر المرأة .

- لا أكترث بما يعلقون عليّ ومن شعري من نعوت ، فأنا لم أقل في شعري سوى الحقيقة ، وإني لا أحترف الإثارة ، لكني رسمت حبي بالكلمات على أشجار الحدائق العامة ، وأعطيت الناس الحق في أن يشموا أريج هذا الحب .

المرأة الوديعة ليست مهزومة

● ألا تفاجئ القارئ أيها الشاعر عندما تقول له : إن المرأة في شعر نزار قباني ليست قضية ؟ وما رأيك في التهمة المطروحة حول هذه الفكرة ، وهي أن المرأة في شعرك كانت مجرد هوية للعبور إلى الجماهير والاستيلاء على انبهار الناس ؟

- قد تكون المرأة وردة في ثوب سهرتي ، لكنها تتحول أيضاً إلى سيف بقبضتي ، المرأة عندي أرض خصبة ، ووسيلة من وسائل التطوير والتحرير ، وأنا أربط قضيتها بقضية التحرير الاجتماعي للرجل وللمرأة على السواء ، لقد قلت لك : إنني شاعر قضية ، والمرأة جزء من القضية ، ثم إن أنوثة المرأة ليست مرادفاً للضعف ، هناك معادلة يجب ألا تتجاوزها المرأة ، الضعف الإنساني ، والضعف الجسدي ، وليس الضعف النفسي ، فوداعة المرأة شيء يختلف عن كونها امرأة مهزومة أو مسحوقة ، وأنا أريد من المرأة العربية أن تظل عربية ، عربية في خصرها وعينيها ، وأن تظل محتفظة بكل ملامح أصالة المرأة الشرقية ، لكني أريد لها أيضاً أن تكسر وتدمر عالم الحريم ، أريدها أن تتوازن مع العصر .

وقد قلت في جميع أحاديثي دائماً ، وأكرر ذلك اليوم : إنني حولت المرأة في شعري من ذبيحة ، من مسخ يؤكل بالأصابع ، إلى زهرة مزروعة في حديقة المجتمع .

● وماذا عن المرأة التي ليست ضعيفة وليست زهرة ، المرأة العاملة مثلاً ؟

- ومن قال : إن المرأة العاملة ليست زهرة فواحة ، إنني على الرغم من كل القهر الذي فرض على المرأة ، متفائل بحاضر المرأة العربية ومستقبلها ، ولا يمكن تحرير مجتمع والمرأة فيه جارية .

الحب في عصر الخراب

● والحب ؟

- الحب في عصر الخراب العربي هذا لم يعد

ممكنا . لقد سقطت الجماليات تحت أمطار هذه البشاعات . لقد قلت في إحدى قصائدي :

إذا كان عصري ليس جميلا
فكيف تريدينني أن أجمّل عصري ؟
وإن كنت أجلس فوق الخراب ،
وأكتب فوق الخراب ،
وأعشق فوق الخراب ،
فكيف سأهديك باقة زهر ؟
وكيف أحبك
حين تكون الكتابة رقصا
على طبق من نحاس وجمر ؟
وإن كانت الأرض مسرح قهر
فكيف تريدينني أن أصالح قهري ؟
يريد المماليك أن يملكوني ،
وأن يشربوا من دمائي وحبريَ ،
يريدون رأس القصيدة كي يستريحوا
وللشعر والحب قوضت أمري .
أحبك برقا يضيء حياتي
وقنديل زيت بداخل صدري
فكوني صديقة حرفي
وكوني ورائي بكل حروبي
وسيري معي تحت أقواس نصري

. . . . .

إذا كان شعري لا يتصدى
لمن يسلخون جلود الشعوب
فلا كان شعري

● أنت قلت لي مرة في أحد أحاديثنا : إن الحب تحول إلى حب سياسي .

- هذا صحيح . وإنني لا أستطيع أن أحب امرأة لا مبالية تجاه هموم الوطن وقضايا الأمة ، لا تهتم بقراءة الجريدة ولا تتابع أنباء ثورة الحجارة ، وبالمناسبة فإن وراء أطفال الحجارة نساء صامدات ، أخوات ، وبنات ، وزوجات وأمهات ، وحبيبات .

« ثورة الحجارة تعيد كتابة تاريخنا »

*** مادمنا في حديث ثورة وانتفاضة الحجارة في الأرض المحتلة ، ماذا تقول في هذه الانتفاضة ؟**

- قلت مقولتي في ثلاثية أطفال الحجارة التي صدرت مطبوعة في السنة الأخيرة ، وهي تضم ثلاث قصائد . أطفال الحجارة ، الغاضبون ، دكتوراة شرف في كيمياء الحجارة . وقلت أيضا . إن هذه القصائد الثلاث كتبها أطفال الحجارة بأصابعهم الصغيرة المتعبة الدامية ، ولم أكتبها أنا ، هم الذين كتبوا ، وهم الذين ألقوا ، وهم الذين نزفوا ، وهم الذين أمروني فأطعت ، وحرضوني فصرخت ، ولابد لنا من الاعتراف أن أساتذتنا وأسياد الأدب العربي في هذه المرحلة هم أطفال الحجارة . فهم الذين بعثروا أوراقنا ، ودلقوا الحبر على ثيابنا ، وطردونا من وراء مكاتبنا المكيفة الهواء .

إنجازات الشعر الحديث

*** ننتقل إلى الشعر الحديث ، ما أهم الإنجازات التي حققها هذا الشعر في رأيك ؟**

- حقق عدة إنجازات أهمها :

١ ـ هندسة القصيدة العربية ، إذ حولها من قصيدة مسطحة تعتمد على التوازي والتناظر في تركيبها إلى قصيدة ذات أبعاد ثلاثة .

٢ ـ اعتمد طريقة التأليف « السيمفونية » في كتابة القصيدة ، أي طريقة النغم المركب لا النغم البسيط الذي يعيد نفسه كدقات الساعة من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها .

٣ ـ أنهى استقلال البيت عن بقية أجزاء القصيدة وانفصاله التام عنها ، وبهذا استعادت القصيدة العربية وحدتها العضوية بعد أن كان كل بيت فيها قائماً بذاته .

٤ ـ خفف الشعراء كثيراً من غلواء القافية وقسوتها ، فلم تعد تلك الجدار الذي يقطع نفس الشاعر ويدمي جبينه .

٥ ـ لم تعد القافية لافتة مرور حمراء تخرج في وجه الشاعر : « قف » وهو في ذروة اندفاعه وتدفقه . لكنها أصبحت واحة في الطريق يمكن للشاعر أن يقصدها أو لا يقصدها حسب مزاجه وخط رحلته .

٦ ـ اختفت في الشعر مواضيع النفاق الاجتماعي كالمديح ، والهجاء ، والتكسب والارتزاق عن طريق الكلمة ، وهكذا استردت القصيدة العربية كبرياءها .

٧ ـ تغيرت نظرة الشاعر العربي إلى الأشياء ، فلم يعد يحوم حول قشرتها الخارجية ، وإنما صار يتسرب إلى ضميرها ويفحصها بمنظور ثقافته ووعيه وتجربته الإنسانية .

الحاسوب « الكومبيوتر » لا يكتب قصيدة

● ما رأيك في عصر الحاسوب « الكومبيوتر » الذي نعيشه ؟

ـ « الكومبيوتر » لا يحل قضايا ، فهو أعجز من أن يكتب قصيدة أو رسالة غرام ، وإنسان العصر مهما سافر في غابات العقلانية فإنه عائد حتماً إلى حالة الطفولية ، إلى الرومانسية ، إلى الشعر ، وهذا مطلب في عصر حضارة تمتلك نفسها بنفسها وتلتهم منجزاتها .

● هل هي إذن دعوة للرجوع إلى عصر الرومانسية ؟

ـ الرومانسية والروحانية ضمانتان لأنه يجب أن تظل منطقة ما خارج حدود الاكتشاف لا نصل إليها بالعقل والمنطق . نحن حين نحب يحضر عقلنا وننصرف كالأطفال ، في حالة الحب لا تبلغها الرجال الملتصقة بـ « الكومبيوتر » ، بل إلى قدرة التقييد .

« القصيدة خرجت من بيت الطاعة »

● نعود إلى القصيدة العربية ، هل نستطيع أن نقول إن الأرض التي مشت عليها هذه القصيدة خمسة عشر قرناً ، قد ضربها زلزال مفاجئ غيّر تركيبها العضوي والبيولوجي تماماً ؟

ـ القصيدة العربية انفصلت عن شجرة العائلة وخرجت من « بيت الطاعة » ووصاية الأسلاف . اكتشفت صوتها الخاص ، بعد أن كانت مجموعة من العادات اللغوية والبلاغية أصبحت مع مرور الزمن شكل المسلّمات التي لا تقبل الجدل أو النقاش . باستثناء الأصوات المنفردة . فإن غالبية القصائد العربية كانت في حقيقتها قصيدة واحدة ، تنقل عن نموذج محفوظ في الذاكرة وسابق للتجربة ، وتورث العصر

● الحب لم يعد ممكناً في عصر الخراب العصري والبشاعات التي اغتالت الجماليات

السياسي دخل الشعر في العتمية المطلقة وصارت القصائد موتا مكرورا .

ولقد استمرت القصيدة - الموت - متماثلة على حياتنا خمسة قرون لايجرؤ أحد على دفنها ، وحين خرج الإنسان في مطلع العشرينيات من غرفة التخدير وبدأ يستعيد وعيه الوجودي والسياسي ، ويسترد تفكيره المحجور عليه ، أدرك أن وضعه الجديد يحتاج إلى كلام جديد ، وأن الخروج من عصر الانحطاط لايكون إلا بالخروج من ثياب عصور الانحطاط ، وعقلية عصور الانحطاط ، وقبل كل شيء من لغة عصور الانحطاط ومفرداتها .

« قارة لم تكتشف »

● عودة ثانية إلى المرأة ، هل تستطيع أن تقول : إن رحلتك في عالم المرأة قد جعلتك تكتشفها ؟

- الادعاء بأنني اكتشفت المرأة ادعاء فارغ ، قلت هذا منذ حوالي ثلاث عشرة سنة لإحدى المجلات المصرية ، وأقوله اليوم ، أنا لا أريد أن أرتكب هذه الحماقة ، أعتقد أن وهم المرأة أجمل منها ، وأن الاقتراب منها كثيرا مؤذ للحلم ، الإضاءة المبالغ فيها تقتل الحلم ولهذا يجب أن تبقى المرأة في منطقة وسط ، بين الإضاءة والتعتيم .

« أرفض جميع النقاد »

● سؤال أخير مختصر : لماذا تخاصم النقاد ؟

- باختصار أجيب : لأن النقاد العرب لم يضيفوا زاوية من الشعر العربي ، فقد كان الشعر العربي كعمل إبداعي سابقا لكل عمل نقدي ، أما بالنسبة لي فعبر مسيرتي الطويلة هذه على مدى أربعين عاما لم أستفد من كلمة نقد واحدة ، يترك الناقد شعري ويتناول سيرتي الشخصية وشؤوني الصغيرة الخاصة ، وأنا أفضل أن أقدم نفسي للقارىء كما أنا ، وليس بالصورة التي يكونها الناقد على مزاجه . □

مروءة سقاء



● يقول القطب الصوفي الكبير ذو النون المصري : من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاء بغداد . فقيل له : وكيف ؟

فقال : لما حملت إلى بغداد ، رمي بي على باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجل أنيق الشكل ، بيده كوزان ، فسألت : أهذا سقاء السلطان ؟

فقيل لي : لا ، هذا ساقي العامة ، فأومأت إليه أن اسقني ، فتقدم وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة المسك ، فقلت لمن معي : ادفع إليه دينارا ، فدفعه إليه ، ولكنه رفض قائلا : لن آخذ منك شيئا . فقلت له : لم ؟ فقال : أنت أسير ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئا وأنت في موقفك هذا .



[illegible]

لميخائيل باختين

بقلم : غالب هلسا

اكتشاف الناقد باختين في السبعينيات جاء كالصدمة في الاتحاد السوفيتي والغرب . كيف خفي عليهم واحد من أكبر نقاد وعلماء الجمال وفلاسفة ولغويي هذا القرن ، إن لم يكن أكبرهم ؟ لقد استمر يكتب أكثر من خمسين سنة دون أن ينتبه أحد لوجوده ، ثم يصبح فجأة وبسرعة خاطفة مالىء الدنيا وشاغل الناس ، فيقال عنه : « إن كتابه عن تفسير جماليات دستويفسكي يمكن مقارنته بفن الشعر لارسطو ، ولكنه يختلف عن ارسطو الذي يتحدث عن عمل (مغلق) ، في أنه يقدم مفهومات جمالية لنص (مفتوح) » . فما هو تفسير هذا الغياب والظهور المفاجيء ؟

ولد باختين في عام ١٨٩٥ ، وتوفي عام ١٩٧٥ ، بدأ يكتب عن دستويفسكي في عام ١٩٢١ ، وفي عام ١٩٢٢ كتبت صحيفة تصدر في بطرسبورج خبرا بأن باختين ينوي نشر كتابه ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر إلا في عام ١٩٢٩ . وقد أثار الكتاب عند صدوره ضجة إذ كتب عنه أناتولي لوناتشارسكي الذي كان وزيرا للتعليم آنذاك ، مقالا طويلا يمتدح فيه الكاتب .

في هذه السنة ١٩٢٩ ، تم اعتقال باختين لسبب غير مفهوم ، ووضع دستويفسكي في قائمة المحرمات . وبسبب صحته المعتلة (إذ كان يعاني مرضا في العظام أدى إلى بتر ساقه) اكتفى بنفيه إلى كازاخستان .

ثلاثين عاما عاش « باختين » ، وكتب في ظل النسيان ، وفي خمسينات هذا القرن ، اكتشف عدد من دارسي الأدب الشبان في موسكو كتاب باختين عن دستويفسكي ،

ولدهشتهم الشديدة اكتشفوا أن المؤلف ما زال حيا ، ويرأس قسم الأدب الروسي والعالمي في جامعة سارانسك . أخذ هؤلاء الشبان يلحون على باختين ليصدر طبعة ثانية من كتابه ، تلكأ طويلا ، ولكن الشبان لاحقوه فصدرت الطبعة الثانية من الكتاب في عام ١٩٦٣ . ثم توالى صدور كتبه الكثيرة التي لم يحاول نشرها من قبل « نشر له بعض الكتب قبل ذلك بأسماء مستعارة » .

الشكل «البوليفوني»:

« البوليفونية » مصطلح موسيقي يعني تعدد الأصوات في إطار وحدة عضوية ، وقد وصف بها « باختين » الشكل الروائي الذي ابتدعه دستويفسكي وتمايز به عن غيره . يقول باختين : نعتبر دستويفسكي واحدا من أعظم المجددين في مجال الشكل الفني ، لقد ابتدع في رأينا نمطا جديدا كلية ، أسميناه النمط « البوليفوني » . هذا النمط من الفكر الفني نجده في روايات دستويفسكي .

حتى يتضح ما يعنيه باختين « بالبوليفونية » علينا أن نشرح هذا الشكل الروائي الآخر الذي يسميه باختين برواية الصوت الواحد ، التي يمثلها تولستوي وكل الروائيين في العالم ، باستثناء دستويفسكي .

رواية الصوت الواحد مصاغة بمفهوم الوحدة العضوية الأرسطي ، منقول من المسرح إليها ، يمكننا تفسير ذلك بإيجاز ، إن الرواية تشبه الجسد الحي ، حيث كل عضو من أعضاء الجسد له وظيفة محددة ، وتتحدد هذه الوظيفة من علاقته بالجسد الحي ككل . ولهذا لا يمكن لأي عضو من الأعضاء أن يستقل بوظيفته عن الجسد ، ولا أن يكتسب معناه إلا بهذه العلاقة .

ففي رواية الصوت الواحد تتخذ الشخصيات والأحداث والمواقف كامل دلالتها من خلال اندراجها في سياق الرواية ككل ، إذا فصلنا أي عنصر من هذه العناصر عن جسد الرواية فقد معناه ، وأصبح كعضو ميت انفصل عن الجسد ، وألقى بعيدا ليذوي ويموت .

وإذا افترضنا أن العضوية تكتسب خصائصها من وجود الحياة في الجسد ، فإننا نستطيع القول إن الحياة هي صوت الجسد ، الحاكم المطلق الذي يخلق العضوية ، ويحدد مسارها ، وتفاعل أجزائها . الحياة هنا هي صوت المؤلف الذي يسيطر على شخوص روايته ، ولا يتيح لهم التحرر من (مونولوج) المؤلف نفسه . وفي هذا النمط من الروايات ، قلما يتاح للشخصيات أن تتحرر ، وتصبح حيوات كاملة ، تروى حكاياتها ، إذ هي في الغالب أدوات يستعملها المؤلف لتحقيق مطالب محددة مسبقا .

وإذا مضينا أبعد من ذلك في المقارنة بين الجسد الحي ورواية الصوت الواحد قلنا إن هذا النمط من الرواية سوف يصاب بداء خطير إذا استقل عضو من أعضائه ومارس حياته الخاصة . فللشخصية في داخل الرواية وظيفة محددة ، إذا تم تجاوزها ، أو تغييرها ، أصبح البناء الروائي مهددا بالسقوط . وهذا يعني أن خضوع الشخوص الروائية لديكتاتورية المؤلف ضرورة حياتية ، تضمن عافية الرواية ، وتحافظ على منطقها الداخلي .

على هذه الخلفية نستطيع أن نحدد الجديد في الرواية « البوليفونية » كما كتبها دستويفسكي .

يحدد باختين الخطوط العامة لرواية دستويفسكي فيقول : إن قراءة هذا الكم الكبير من أدب دستويفسكي تخلف انطباعا يختلف عن قراءة أي أديب آخر . نتبين أننا لسنا أمام مؤلف واحد يكتب الروايات والقصص ، بل في مواجهة العديد من الأفكار الفلسفية التي أطلقها مفكرون متعددون ، من أمثال بشكين في (الأبله) ، وستافروجين في (الشياطين) ، و راسكيلنكوف في (الجريمة والعقاب) وإيفان كارامازوف والمفتش الأكبر في (الأخوة

كارامازوف) وغيرهم . لهذا السبب تم تجزيء دستوفسكي إلى سلسلة من المواقف الفلسفية الجاهزة والمتناقضة ، يدافع عن كل منها إحدى شخصياته .

أين يقف المؤلف من هذا الخليط ؟

يقول باختين : « من بين هؤلاء نجد وجهات نظر المؤلف الفلسفية ، ولكنها لا تحتل بأية حال المكان الأول . . إن الشخصية الروائية في أعماله تقدم نفسها كشخصية مستقلة وذات سلطة ، ولهذا تبدو الشخصية الروائية وكأنها ليست أداة لخطاب المؤلف ، بل شخصية قائمة بذاتها حاملة لخطابها الخاص بها » .

ويضيف باختين أن الوزن الكبير لشخصيات دستوفسكي الروائية قد حطم المستوى المونولوجي للرواية ويقول :

« إن دستوفسكي مثل بروميثيوس بجرته ، لا يخلق عبيدا لا صوت لهم ، بل بشرا أحرارا قادرين على الوقوف جنبا إلى جنب ، وعلى الاختلاف معه ، وقادرين حتى على الثورة عليه » .

وعي المؤلف ووعي الشخصية :

لكن ما تقدم قد يجعل البعض يعتقد ان وعي المؤلف لهذا النمط من الرواية سوف يكون سلبيا . إنه يبدو كحاكم لا سلطة له ، ولا معرفة بتوجيه أمور رعيته . إذ كل انسان يقول ويفعل ما يعن له . فهل هذا صحيح ؟

يقول باختين : « من المناسب هنا أن نؤكد مرة أخرى الصفة الايجابية والفاعلة للموقع الجديد لمؤلف الرواية « البوليفونية » . إنه لأمر مضحك الظن بأن وعي المؤلف لا يجد تعبيرا عنه في روايات دستوفسكي ، إن وعي المبدع في الرواية « البوليفونية » موجود دوما وفي كل موضع في الرواية ، وهو وعي فاعل إلى الحد الأقصى . ولكن وظيفة هذا الوعي وأشكال فعله تختلف في هذا النمط من الرواية ، عنه في الرواية ذات الصوت الواحد : فوعي المؤلف لا يحيل وعي شخوصه إلى أدوات ، ولا يضفي عليها تحديدات مستهلكة وحاسمة ، إن وعي المؤلف يدرك ويقبل وعي الآخرين بأنه وعي لا حدود له ، وعي منفتح ، كوعي المؤلف نفسه . إنه لا يعيد خلق عالم من الأدوات والوسائل ، بل وعي الآخرين وعوالمهم ، يعيد خلقهم بانفتاحهم الحقيقي الذي لا يصل أبدا إلى حالة التحدد والانغلاق . (وهذا في نهاية الأمر هو جوهرهم الحقيقي) » .

الحوار المنظم :

بعد تحديد الملمح الأساسي للرواية « البوليفونية » ، وهو استقلال الشخصيات عن ايديولوجية المؤلف ، ما هي السمة الأساسية « لمونولوج » هذه الشخصيات الذي تعبر به عن نفسها ، سواء اتخذ هذا « المونولوج » صفة الحديث إلى النفس أو الحديث إلى الآخرين ؟

يجيب باختين أنه الحوار الذي لا ينقطع مع الآخر ، مع مخاطب حاضر أو مفترض ، وانطلاقا من مفهومه للحوار يقيم نظريته في اللغة ، وفي الانسان .

ما الذي يعنيه باختين بالحوار (Dialogue) ؟

الحوار يتخلل اللغة عندما تصبح قولا ، كلاما منطوقا ، وبهذا يصبح القول هو الطاقة التي تربط بين وعي الانسان الداخلي والعالم الخارجي عندما نتحدث أو نكتب ، فتلك لا يشير إلى أفكارنا فقط ، بل يدلنا على كيفية تفاعلنا ، وأسلوب تفاعلنا هو الحوار مع الذات ومع الآخر ، إن انتفى الآخر ، انتهى الحوار وانتهت الذات .

يقول باختين : « في الحوار يصبح العالم الخصم ، وإسكاته قضاء على منطقة الحوار التي يحيا الخطاب فيها » .

يقوم الحوار على سوء فهم متبادل اكثر مما يقوم

على التطابق المتبادل في الفهم ، إن تعدد اللغات ، كما يقول بحور الانسان ، لأن هذا التعدد يقيم فجوة بين الشيء وبين الكلمة التي تدل على ذلك الشيء ، ولهذا السبب كانت الرواية أكثر حرية من الملحمة ، لأن أبطال الرواية لا يرتفعون إلى مستوى الموقف الفني يتم وضعهم فيه . هذا الاختلال في التوازن بين اللغة ومدلولاتها ، بين الأبطال الروائيين والمواقف الروائية ليس مدعاة لليأس ، بل دافعا للحياة . إن تفاعل نظامين في الفهم مختلفين ومتمايزين هو الوسيلة الوحيدة لخلق حدث روائي .

بهذا يقيم باختين « كونا شاملا مبنيا على الحوار الدائم » كما تقول مترجمة كتابه الأمريكية كارلي امرسن . ويتحدث باختين طويلا عن علاقات الحوار ، وسوف نحاول هنا أن نوجز قوله إلى الحد الأقصى .

حوار المساكين

دعونا نتابع الآن كيف نقل باختين مفهومه عن الحوار إلى دستوفسكي .

كانت رواية « المساكين » هي أول رواية كتبها دستوفسكي ، وقد كتبت على شكل رسائل . والسمة المميزة للرسالة هي الشعور الحاد لدى كاتبها بوجود طرف آخر يحاوره ، وهو - هنا - الشخصية التي كتبت لها الرسالة

والرسالة ، كأحد أساليب الخطاب ، عملة بإحساس قوي يأخذ في الاعتبار ردود فعل المخاطب ، وكذلك استجاباته المتوقعة .

هذه العلاقة بالطرف الآخر للحوار - وهو هنا طرف غائب - تتسم بالحدة ، وهذه الحدة عند دستوفسكي تبلغ حدها الأقصى .

ومنذ روايته الأولى هذه أنشأ دستوفسكي اسلوبا في الكتابة ، جعل عمله الابداعي بكامله ، يتسم اساسا بالتوقع الملهوف والحاد لرد الطرف الآخر . إن دلالة وابعاد هذا الأسلوب في أعماله اللاحقة كانا كبيرين : فاهم اعترافات أبطاله مفعمة ومتخللة بحساسية قصوى نحو ما سيقوله الآخرون عنهم ، ولردود فعل الآخرين نحو حديث هذه الشخصيات إلى نفسها وعن نفسها .

لا يقتصر هذا التوقع على تلوين وأسلوب الكلام ، بل يمتد إلى بنية اللغة نفسها ، تتبين ذلك عندهم كلهم ابتداء من تحفظات وخداع النفس المشحونين بالتوتر عند غوليادكن (بطل المساكين) ، وانتهاء بالجموح الأخلاقي « والميتافيزيقي » لدى ايفان في رواية (الاخوة كارامازوف) . وفي رواية (المساكين) يبدأ دستوفسكي في تجريب اسلوب الانسان المسحوق في الحديث عن نفسه ، وهو عمل بخشية وخوف وخجل من استجابات الآخرين . إنه يتقدم بخطابه وهو يلقي « نظرة جانبية » وجلة ومحتقرة ، نحو الآخر . ولكن هذا الحديث يحمل ، في الوقت نفسه ، تحديا كامنا .

مثال ذلك : أسكن في المطبخ ، أو على الأصح وحتى أكون أكثر دقة ، هنالك حجرة قرب المطبخ (ومطبخنا - على أن أقول لك نظيف - ومضيء ولطيف جدا) حجرة صغيرة ، ركن متواضع ، أو على الأصح أن المطبخ حجرة كبيرة ، لها ثلاث نوافذ ، وهنالك حاجز يتخلل الجدار الداخلي ، مما يجعلها تبدو كأنها حجرة أخرى ، مسكن إضافي ، إنها واسعة ومريحة ، وهنالك نافذة وكل شيء ، في الواقع كل ما أحتاجه . حسنا ، هذا هو ركني الصغير لهذا لا تتصوري يا حبيبتي أن هنالك شيئا آخر يتعلق به ، أي دلالة غامضة تتصل به : « إنه يعيش في المطبخ ! » حسنا إذا أصبتك ، فإنني فعلا أعيش في المطبخ ، خلف الحاجز ، ولكن ذلك لا أهمية له . أعيش مستقلا تماما ، بعيدا عن أي شخص آخر ، بهدوء وراحة . وفي الحجرة سرير ومائدة وكرسيان وخزانة ، وقد علقت

أيقونة كذلك . هنالك مساكن أحسن ، ذلك مؤكد . وقد تكون هذه المساكن أحسن كثيرا ، ولكن الشيء المهم هو الراحة ، لقد رتبت كل شيء بنفسي للحصول على أكبر قدر من الراحة ، كما تعلمين . وعليك ألا تتصوري شيئا خلاف ذلك »

يعلق باختين على هذا النص المأخوذ من رواية « المساكين » بقوله : « يكاد ديفوشكين يلقي بعد كل كلمة نظرة جانبية على الطرف الآخر الغائب من الحوار : يخشى أن تظن أنه يشكو ، لذا فهو يسعى منذ البدء أن يحطم ذلك الانطباع الذي تثيره أخبار السكن في مطبخ ، فهو لا يريد أن ينغصها وما شابه .

إن تكراره تكلمات معانيها كانت نتيجة لمحاولته تأكيدها ، ومنحها معنى إضافية في ضوء استجابات الطرف الآخر من الحوار المتوقع »

بالإضافة إلى هذا فإن ديفوشكين يتوقع عبر خطابه استجابات شخص آخر ، شخص غريب عنه . يصف هذا الغريب في إحدى رسائله الموجهة إلى حبيبته :

« أتوقع أنك لم تعرفي بعد كيف يكون الغرباء . الأفضل أن تسأليني وسوف أحكي لك كيف يكون الغرباء ، أعرفهم يا حبيبتي ، أعرفهم بشكل جيد جدا ، إذ كان علي أن آكل خبزهم . إنهم حقودون يا فارنكا ، حقودون ، حقودون إلى حد مدمر ، سيعذبون قلبك باللوم ، واختلاق الأخطاء ، والنظرات الشريرة » .

إنه يشعر دوما بالنظرات الشريرة التي يوجهها الشخص الآخر إليه ، وهي نظرات إما أن تكون لائمة ، أو أن تكون ما هو أسوأ من ذلك في نظره ، أو أن تكون ساخرة ، لأن الأشخاص الذين يتسمون بالكبرياء ، يشعرون أن أسوأ نظرة يمكن توجيهها إليهم هي نظرة الإشفاق .

تحت سطوة نظرة الآخر . هذا فإن ديفوشكين دائم التلصص ، والتنصت على ما يقوله الآخرون عنه . إنهم يقولون خلف ظهره : « المسكين موسوس له نظرة مختلفة لدنيا الله ، إذ ينظر متسائلا ويلقي نظرات قلقة حوله مراقبا كل كلمة تقال ، ويتساءل هل يتحدثون عنه » .

وعي الشخصية متأثر بوعي الآخر لها :

إن تكيف الشخصية الروائية لخطاب ووعي الشخص الآخر ، هي في جوهرها السمة الأساسية لكل أعمال دستويفسكي ، إن موقف الشخصية الروائية من نفسها يرتبط بشكل كامل بموقفه من الآخر ، وبموقف الآخر منه . إن وعيه لنفسه يمر عبر خلفية وعي الآخر به ، أي « أنا من أجل نفسي » موضوعة على خلفية « أنا من أجل الآخر » ولهذا فإن كلمات الشخصية عن نفسها تصاغ تحت التأثير الدائم لكلمات الشخص الآخر عنه .

إن هذه السمة قد تم تطويرها في أعماله المختلفة عبر أشكال متنوعة ممثلة بمضامين متعددة ، وعلى مستويات ووحية مختلفة . في رواية (المساكين) يفتتح الوعي الذاتي للرجل المسكين على أرضية وعي موجه له ، ومضاد اجتماعيا له . إن تأكيده لنفسه يظهر لنا كصراع خفي أو حوار مختف مع شخص آخر ، حول شخص صاحب الخطاب

في أعمال دستويفسكي المبكرة ، تعد هذه السمة تعبيرا بسيطا ومباشرا فالحوار لم يستقر في داخل الشخصية ، ولم يتقدم إلى ذرات فكره وتعبيره ، إن عالم شخصياته في هذه الأعمال ما زال صغيرا ، ولم يتحول أبطاله بعد إلى ايديولوجيين إن تدني مستواهم الاجتماعي ، وبؤسهم جعل تطرفهم الجانبية الداخلية وصراعهم الداخلي مباشرا ومحددا . لم تمتلك بعد هذه الشخصيات ذلك الغليان الداخلي

الذي يتطور في أعمال دستويفسكي الأخيرة إلى أبنية ابستيمولوجية متكاملة . إلا أن الطابع العميق للعلاقات الحوارية لوعي الذات وتأكيدها موجود هنا بأقصى درجة من الوضوح .

يورد باختين نصا آخر من رواية (المساكين) يقول ديفوشكين في إحدى رسائله : « منذ يوم أو يومين قال يفستا ايفانوفتش في حديث خاص ، إن أهم فضيلة يتمتع بها المواطن هي الحصول على النقود ، وقال مازحا (أنا أعلم أنه كان يمزح) إن الخلق الفاضل يعني أن لا يكون الانسان عبئا على الآخرين . حسنا أنا لست عبئا على أحد ، لقمة خبزي ملكي أنا ، صحيح أنها حاف وقد تكون جافة أيضا ، ولكنني حصلت عليها بمجهودي وقد كرستها لاستعمال شرعي ليس فيه ما الام عليه . لماذا ، وما الذي أستطيع فعله ؟ أنا أعرف أنني لا أقوم بعمل كبير من خلال النسخ ، رغم ذلك أنا فخور أن أعمل وأحصل على خبزي من عرق جبيني . وماذا في ذلك في أن أكون ناسخا بعد كل شيء ؟ أي ضرر في كوني ناسخا بعد ؟ يقولون « إنه ناسخ » ولكن ما المهين في ذلك ؟ أرى الآن أنني ضروري ، أنني لا غنى عني ، وأنه ليس هنالك من داع لأن أقلق نفسي بهذا المراء . حسنا ، فلأكن فأرا ، إن كان ذلك يعجبكم ما دمتم ترون تشابها بيني وبين الفأر ، ولكن هذا الفأر ضروري ، هذا الفأر مفيد ، ولكنكم تعتمدون على هذا الفأر ، ولكنكم تمنحون مرتبا لهذا الفأر . إذاً فهذا هو الفأر الذي تتحدثون عنه !

يكفينا حديثنا عن هذا الموضوع ، رغم أنه يخصني ، لم أقصد أن أتحدث عن ذلك مطلقا ، ولكنني انفعلت بعض الشيء ، بالاضافة إلى هذا فإنه أمر ممتع أن يقوم الانسان بين آن وآخر بإنصاف نفسه » .

وفي حوار أكثر حدة يتكشف وعي ديفوشكين بنفسه ، عندما يتعرف على نفسه في رواية غوغول « المعطف » إنه يقرأ الحكاية ويتصور أنه هو شخصيا المقصود بها ، فيسعى لدحضها من خلال نقاشه لها ، باعتبارها هجوما عليه .

ولكن دعونا نتوقف قليلا ، ونتأمل عن قرب البنية التي تتشكل عبر « الكلام المترافق مع نظرة جانبية » .

إن غالبية عبارات النص المقتبس تم اختيارها حتى تعكس وجهتي نظر : رؤية المتحدث التي يريد للآخرين أن يقتنعوا بها ، ورؤية الآخر .

إن تضمين عبارات الآخر في حديث ديفوشكين يبدو أكثر وضوحا في النص المقتبس الثاني . إن عبارات الآخر المضمنة موضوعة داخل قوسين : « إنه ناسخ » في السطور التي سبقت هذه العبارة تتكرر كلمة (ينسخ) ثلاث مرات ، وفي كل مرة من هذه المرات الثلاث ، تبين جرس كلمة الآخر (ينسخ) مقالة ضمنا ، ولكن جرس ديفوشكين يقمعها . إن جرس الآخر هنا يتصاعد بالتدريج :

« أنا أعلم أنني لا أقوم بعمل كبير من خلال النسخ وماذا في ذلك . . . في أن أكون ناسخا ؟ أي ضرر في كوني ناسخا؟ (إنه ناسخ) . »

الصوتان حاضران في هذا النص ، لا يغيب أحدهما للحظة واحدة .□



● دعك من الكسل فهو الصدأ اللي يلصق بألمع المعادن
● العبودية أثقل من الحرب .
● الرجاء هو البستاني اللي يحرث القلب .



● مزلج في روسيا في القرن الماضي

الرحالة العربي المنسي

بقلم : فارس المنصوري

تمتلىء المكتبة العربية بكتب وموضوعات الرحالة العرب الذين جابوا الأرض من أدناها ـ المعلوم في أيامهم ـ الى أقصاها . وتشهد لهم آثارهم التي ضمنوها مشاهداتهم عن الطبيعة والبشر باللماحية والذكاء ، فاستحقوا التخليد والشهرة ، إلا أن بعضهم لم ينل حظ أقرانه من الشهرة ، منهم الرحالة أبو حامد الذي يتناوله الكاتب بالتعريف مستعرضا رحلاته في ثلاث قارات .

برز العرب فيما برزوا في القرون الوسطى بأدب الرحلات الذي كانوا فيه من السابقين والمبدعين ، ومازالت أسماء مشاهير الرحالة مثل ابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان وغيرهم حية مثل الكتب التي ألفوها وأغنوها بالمعلومات والملاحظات الدقيقة . على أن بين هؤلاء السياح القدامى رحالة غلب الظلام على ذكره طوال قرون ، واضمحل صيته بين الناس .

لكن ذكره اليوم أخذ ينبعث الى الوجود من جديد على صفحات الكتب والمجلات ، بفضل بعض المؤرخين والباحثين الذين فطنوا إلى ما في آثاره الأدبية من المشاهدات والملاحظات الثمينة ذات القيمة التاريخية والجغرافية ، مثل وصفه بعض الحيوانات المنقرضة وحديثه عن عظام الماموث المدفونة في شرقي روسيا ، وذكره لأصناف البضائع التي كانت القبائل الافريقية تتجر بها عبر الصحراء الكبرى . وأخيرا وليس آخرا ، وصفه الدقيق المفصل للتزحلق على الجليد (سكي) وللمعدات التي كان قاطنوا المناطق الثلجية يستعملونها للتنقل على الجليد في شرقي روسيا .

وقد نشرت مجلة انكليزية تختص برياضة التزحلق على الجليد مؤخرا نبذة عن هذا الرحالة الطلعة ، مبينة بأن وصفه المدون في القرن الثاني عشر الميلادي لمعدات التزحلق يعد الحلقة المفقودة في تاريخ التزحلق الجليدي في العالم .

نشأته

هذا الرحالة هو أبو حامد الذي وصلنا منه كتابين هما « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » و « المعرب عن بعض عجائب المغرب » ، ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان قد ألف غيرهما . وقد كتب هو نفسه في مؤلفه « المعرب » يقدم نفسه للقارىء : « مولدي بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس ، فيها أربعون مدينة ، ومولدي في مدينة تسمى غرناطة » .

واسمه الكامل هو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الإقليشي الغرناطي ، ونسبه الأول الى قرية قيس القريبة من غرناطة ، أما نسبه الثاني ، الإقليشي فدلل على أن موطن أسرته الأصل كان في بلدة اقليش التي تتبع اليوم مديرية كوينكا بإقليم قشتالة الجديدة ، الواقع وسط أسبانيا . والمرجح أن أسرته هاجرت الى منطقة غرناطة بعد سقوط اقليش بيد الأسبان .

ـ لا نعلم شيئا عن نشأة أبي حامد في الاندلس ، لكنه غادر موطنه الى غير رجعة فيما يبدو وهو في حوالي السابعة والعشرين ، مدفوعا بدافع السفر والسياحة ، وحبا في التعرف على الأقطار الأخرى . فطاف بأرجاء المغرب الأقصى الى أن بلغ مدينة سجلماسة ، وكانت يومئذ مركزا تجاريا مهما على حافة الصحراء الكبرى ، حيث تلتقي القارة السوداء مع شطرها الأسمر . ومن هناك واصل ترحاله الى تونس ، فزار أهم معالمها ، ثم ركب البحر متجها الى الاسكندرية .

أبو حامد في مصر

وفي الاسكندرية لم يترك بقعة جديرة بالمشاهدة إلا وذهب ليزورها ، فزار فيما زار المنار الشهير الذي كان يعد في عداد العجائب السبع في العالم القديم ، ووصفه وصفا دقيقا . بل لم يكتف بالوصف وإنما زاد عليه برسم بقلمه على هامش المخطوطة يمثل المنار . وكمعظم معاصريه من العرب عزا أبو حامد بناء المنار الى ذي القرنين ، وهو الاسم الذي عرف به الاسكندر الأكبر لدى العرب ، بينما في الواقع كان باني ذلك الصرح الذائع الصيت هو الملك بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق . م) أحد أجداد كيلوباترا من الملوك الهليين الذين حكموا مصر الى أن أسقطهم اغسطس قيصر روما في القرن الميلادي الأول .

وفي الاسكندرية أيضا زار رحالتنا معبد سيرابيوم الشهير ، كما دخل المغارات وجال في الأنفاق المعروفة بالكاتاكومب . ثم غادر المدينة قاصدا القاهرة ، فدخلها سنة ٥١٢هـ . وفي كتابه نجد وصفا لمعالم العاصمة الفاطمية بمساجدها ومعابدها الفرعونية ، وللأهرامات ومسلة عين شمس ، ولمقياس النيل ، لكنه لم يتحدث عن الجامع الأزهر ، ويبدو من الصفحة التي قدمها عن الوضع السياسي السائد في البلاد

أنه لم يكن من مؤيدي الحكم الفاطمي ، ولعله اتخذ هذا الموقف لكونه - كما سنذكر في المقال - قد كتب كتابه « المعرب » وأهداه الى صديقه وولي نعمته الوزير العباسي ، ومن ثم كان عليه أن يحابي العباسيين على حساب الفاطميين .

بقي رحالتنا في مصر حتى سنة ٥١٥هـ ، ثم غادرها الى دمشق حيث درس الحديث الشريف في المساجد ، لكنه لم يفقد أبداً رغبته في السياحة والتفرج على معالم المناطق التي يحل فيها ، فقد انطلق غرباً ليشاهد بعلبك ، وشرقاً ليتعرف على تدمر ، ثم واصل ترحاله بعد فترة قاصداً بغداد ، فبلغها في ٥١٦هـ وأقام فيها نحو أربع سنوات .

صداقة مع وجيه بغدادي

وكان من حسن حظه أن تعرف في عاصمة العباسيين على رجل من أعيان المدينة ووجوهها وهو يحيى بن هبيرة الشيباني الذي تولى - فيما بعد - الوزارة في عهد الخليفة المقتفي وخلفه المستنجد ، ولقب بذي الوزارتين ثم أطلق على نفسه اسم عون الدين .

وتنعقد أواصر الصداقة بين الرجلين ، فيفتح الوجيه البغدادي بيته العامر للرحالة الغرناطي ، ويستضيفه ويضع تحت تصرفه مكتبته الغنية بشتى المؤلفات القيمة الثمينة ، ويحبه مادياً ليتفرغ للسفر والترحال . وبفضل هذه الرعاية يتمكن صاحبنا الأندلسي من اشباع نهمه في السياحة والتجوال ، فيتخذ من بغداد قاعدة ومحوراً لأسفاره الممتدة شرقاً وشمالاً وغرباً وجنوباً .

ويمكننا أن نتتبع خط تنقلاته مستعينين بالتواريخ التي يوردها في كتابيه . ففي ٥٢٤هـ ، أي بعد ثماني سنوات من نزوله بغداد ، نجده في أبهر بايران ، ونعلم منه أن تلك المنطقة كانت مركزاً مهماً لصناعة السلاح وتصديره الى الأقطار القريبة والبعيدة ، إذ يكتب : « بالقرب من دربندنا (تقع في الطرف الجنوبي الغربي من بحر

● من مخطوطة « المعرب » بخط يده مع رسمه للوح الشكل على الهامش

قزوين) جبل عظيم في أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زريه كاران (كلمة فارسية تعني صناع الجلود) يعملون الآلات جميعاً للحروب ، من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرماح والقسي والنشاب والخناجر (..) جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يعملون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين وهم أكثر الناس خيراً ومالاً ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية » .

ولقد شغف أبو حامد ببلاد خوارزم حتى أنه اجتازها ثلاث مرات ، وعبر منها الى بلاد البلغار ، علماً بأن المقصود هنا هو موطن البلغار الأصلي ، وكان يقع في شرقي روسيا في ذلك العهد ، أي قبل أن يرحل البلغار الى بلادهم الحالية غربي البحر الأسود . ونعلم من رحالتنا أيضاً أن البلغار كانوا في عهده يدينون بالإسلام وليست المسيحية .

أقام رحالتنا في مدينة تدعى سجسين ، وأهاليها هم مزيج من عدة قبائل تركية العنصر ، بينهم الخزر والقز والسطور ، وهم جميعا من المسلمين وعلى مذهب الإمام الشافعي . ونفهم من حديثه أنه استطاب الإقامة في تلك البقعة النائية على الرغم من بردها القارص ، وبعدها عن مراكز الحضارة ، فتزوج وأسس لنفسه أسرة .

والمعروف الآن أن مدينة سجسين التي اندثرت فيما بعد - ربما بسبب تخريب المغول لها عندما غزوا روسيا - كانت تقع قرب مصب نهر فولجا ، ثم انبعثت فوق خرائبها مدينة جديدة تدعى اليوم استراخان .

كتب رحالتنا عن تلك البلاد التي يكسوها الجليد معظم أشهر السنة :-

« ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبر . ولقد مات لي بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقي الميت كالحجر » .

حوار مع الملك

من أهم فصول كتاب « المعرب » هو ذلك الذي يدور حول مشاهدات رحالتنا في تلك البلاد التي يسميها باشغرد أو انقورية ، وهي طبعا هنغاريا أو المجر . إذ أقام فيها قرابة ثلاث سنوات أصبح إبانها رئيسا روحيا للجالية الإسلامية الكبيرة التي كان معظم أفرادها قد نسوا العربية ومعها الكثير من فروض الإسلام . وقربه ملك المجر إليه ، ودار بينهما في أحد الأيام الحوار الظريف التالي بعد أن علم الملك أن أبا حامد حرم على أبناء الجالية الإسلامية شرب الخمر وأباح لهم اقتناء الجواري والتزوج من أربع نساء :-

- الملك : ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوي الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر .

- أبو حامد للمترجم : قل للملك شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى . النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر ، وذلك يزيد في القوة . والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ويصير كالمجنون يزني ويقتل ويكفر ولا خير عنده ، ويعطي سلاحه وفرسه ويضيع ماله في طلب لذته ، وهم هاهنا جندك ، وإذا أمرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه الشراب . فإذا علمت ، إما تقتله أو تضربه أو تطرده أو تعطيه خيلا وسلاحا يفسده أيضا . وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم ذلك لحرارة طباعهم ، وأيضا فإنهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثر جندك .

- الملك للمسلمين : اسمعوا من هذا الشيخ فهو عاقل ، فتزوجوا ما شئتم ولا تخالفوه .

ويعلق رحالتنا على ذلك بقوله « ذلك الملك خالف القسيسين ، واستباح الجواري . ذلك الملك يحب المسلمين » .

وأراد أبو حامد أن يعرج على سجسين ليتفقد أسرته التي تركها هناك ، وذلك في طريق عودته الى بغداد لمقابلة صديقه الوزير . فاشترط عليه ملك هنغاريا أن يترك ابنه حامد في البلاد ، وكان ابن رحالتنا الأكبر قد تزوج سيدتين مسلمتين في هنغاريا . ثم سلمه الملك خطاب توصية الى ملك الصقالبة .

وعبر رحالتنا البحر الأسود ، واجتاز جنوب روسيا في طريقه الى خوارزم ، لكنه قبل أن يتوجه الى بغداد أخذ طريق الحج الى الديار المقدسة ، فأدى فريضة الحج ، ثم اخترق الصحراء النجدية قاصدا العراق . وفي بغداد عكف على تأليف كتابه « المعرب » الذي أهداه الى صديقه الوزير عون الدين لكنه كان مستعجلا العودة الى هنغاريا ليجتمع بابنه حامد وبأسرته هناك ،

والتمس من حسام الدين أن يتوسط له لدى مسعود الأول ملك السلاجقة في آسيا الصغرى، ليأذن له في اجتياز بلاده، حيث أن الطريق البري عبر قونية، ومن ثم البوسفور والبلقان أقصر بكثير من الطريق الذي كان قد استعمله في القدوم الى العراق من هنغاريا.

كتابه الثاني

لكن لما تأخر الإذن (أو « الفيزا » بلغة عصرنا) سافر أبو حامد الى الموصل، وهناك استفسر عن الطريق الى قونية. لكن أثناء إقامته في الموصل طلب إليه أحد علمائها الشيخ «معين الدين اربيلي»، أن يؤلف كتابا آخر عن أسفاره ورحلاته، فاستجاب رحالتنا لهذا الطلب وكتب كتابه الثاني الذي وصل إلينا، « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ». وتدل عبارة الختام أنه انهى مؤلفه هذا في الثالث من ربيع الثاني عام (٥٥٧هـ). وكان قد بلغ من السن عتيا، والطريق الى باشقرد طويل شاق، ينهك قوى الشاب، فكيف الحال إذا كان المسافر قد طعن في السن وبلغ العقد التاسع من عمره؟ على أن الحنين للاجتماع بأسرته وأولاده ظل يستبد بالشيخ الرحالة الى حد أنه طلب من قراء كتابه أن يدعوا له ليرى ذويه قبل أن يفارق هذه الحياة. ترك الموصل قاصدا حلب ليصبح أكثر قربا من قونية. وبعد فترة غادر حلب صوب دمشق، ولعله مثل الكثيرين من أبناء وطنه الأندلسيين كان يرى في دمشق - مدينة الأمويين الذين وضعوا أسس المجد العربي في الأندلس - وطنا ثانيا بعد غرناطة التي كان قد غادرها الى غير رجعة قبل ذلك التاريخ بأكثر من ستين عاما.

وفي دمشق توفي رحالتنا عن عمر ناهز الثانية والتسعين، وكان ذلك في سنة ٥٦٥هـ (حوالي ١١٧٠ ميلادي) تاركا للأجيال كتابيه « المعرب » و « التحفة ». وظل ذكره يرد على ألسنة الدارسين والعلماء، واستشهد بكتاباته عدد منهم، بينهم الأديب والجغرافي وعالم الحيوان. كما أفرد له المؤرخ الكبير المقري مكانة في باب أعلام الأندلس ضمنها كتابه المرجعي عن تاريخ المسلمين في أسبانيا، « نفح الطيب »، الذي نشر في مصر في أوائل القرن السادس عشر، وبعد سنوات قليلة من طرد المسلمين من أسبانيا بأمر من الملك فيليب الثالث.

الغربيون أول من اكتشفه

وفي عالم الاستشراق والاستعراب في القرنين التاسع عشر والعشرين أثار إنتاج أبي حامد اهتمام عدد كبير من الأساتذة الأوربيين المتخصصين بالأدب الجغرافي العربي، بينهم المستعرب الفرنسي «غابرييل فيران» الذي حقق « التحفة » ونشر المخطوطة في المجلة الآسيوية في ١٩٢٥. كما تولى المستعرب الاسباني « سيزار دوبلير » تحقيق « المعرب » ونشره مع ترجمة أسبانية في مدريد عام ١٩٥٣. إلا أن إنتاج الرحالة الغرناطي بقي محصورا في نطاق ضيق يقتصر على الباحثين والعلماء دون أن يصل الى جمهور القراء. وعلى حد علمنا لم يطبع كتابا أبي حامد في الوطن العربي حتى اليوم، إلا أن العلامة الدكتور «حسين مؤنس» أسدى خدمة جليلة لأدب الرحلات حينما أفرد لرحالتنا أكثر من خمسين صفحة في كتابه القيم الممتاز عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (المطبوع في مدريد).



● الترحال في القرن السادس عشر للبلاجي

أما لماذا لم يفز أبو حامد بشهرة مماثلة لتلك التي نالها رحالة آخرون مثل ابن بطوطة وابن جبير؟ فالسبب في ذلك أوضحه الأستاذ مؤنس بجلاء حينما كتب واصفا إنتاج الرحالة الغرناطي بأنه لا يدخل في عداد كتب الرحلات ، كما أنه ليس إنتاجا جغرافيا خالصا ، وإنما هو مزيج من ذلك كله . فمشكلة أبي حامد تكمن في قلة حظه من الثقافة ، وفي ولعه بسرد أخبار العجائب والأمور الخارقة لقوانين الطبيعة ونواميسها ، وكتبه هي خلط من الأخبار والمعلومات ، سيئة الترتيب ، ركيكة التتابع ، يقفز المؤلف فيها من موضوع الى آخر دونما تمهيد أو تحضير ، وبلا سلاسة في السرد . فبينما يصف فنار الاسكندرية إذ به يقفز ليصف صنم قادس في أسبانيا فاصلا ذلك المرة تلو الأخرى ، ودافعا القارىء الحديث الى التمني لو أن رحالتنا انتهج ما انتهجه ابن بطوطة الذي أتى بعده بقرنين من الزمان ، حينما كلف الشيخ ابن جزي كاتب السلطان المغربي أن يرتب له مادته ويعيد صياغتها بأسلوب أدبي مستساغ .

ومواطن المأساة في كتابات أبي حامد ، أن الرجل كان حاد الذكاء ، دقيق الملاحظة ، عظيم النشاط ولولا انجرافه مع تيار عصره ، وميله الى اشباع رغبة معاصريه في الاستماع الى حكايات الأعاجيب والخوارق لترك لنا وثيقة تاريخية جغرافية اجتماعية أدبية من شأنها أن تضعه في مصاف الكلاسيكيين .

وصفه للأساطير والواقع

بيد ان ايثار رحالتنا للخرافة على الحقيقة في بعض ما كتبه ، لا يعني مطلقاً أن إنتاجه كله يستحق الإهمال ، لأن بمكان الباحث المدقق أن يخرج بمادة قيمة تستحق الدراسة العميقة ، وهي تشمل حتى أساطير رحالتنا لا سيما أن بعضها دخل في كتب لاحقة أُلفت بعد وفاته بفترة طويلة ، وبينها عمل أدبي من أروع ما أبدعته المخيلة البشرية ، هو « ألف ليلة وليلة » الذي ندرسه اليوم ليس بسبب قيمته الأدبية فحسب ، وإنما لأهميته الفولكلورية الشعبية أيضا .

فمثلا ، أبو حامد تحدث في أحد كتبه عن الطائر الاسطوري « الرخ » الذي نجده في قصة السندباد . كما أن احدى القصص التي يرويها انتقلت بكاملها الى « ألف ليلة وليلة » . بيد أن الجانب المهم في مساهمة رحالتنا في أدب الرحلات العربي الكلاسيكي يكمن في ملاحظاته الدقيقة التي نراها مبعثرة في كتاباته وبينها وصفه لعظام الماموث ، ذلك الحيوان المنقرض منذ ملايين السنين ، وقد شاهدها أبو حامد في شرقي روسيا : « ويوجد في أرضهم من عظام قوم عاد ، السن الواحد عرضه شبران ، وطوله أربعة أشبار ، ومن طوله لنكبه خمسة أبواع . ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير » . كما أنه يصف : « ويوجد تحت الأرض أنياب الفيلة ، أبيض كالثلج ثقيل كالرصاص ، الواحد وزنه مائتا طن ، وأكثر لا يدرى من أي حيوان هو . يقطع ويحمل الى خوارزم وخراسان ، ويتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك ، كما يتخذ من العاج . وهو أقوى من العاج لا ينكسر . . . » .

كما تحدث رحالتنا عن كثير من الحيوانات الحية والمخلوقات المائية ، ومع أنه يمزج الخرافة بالحقيقة إلا أن الكثير من أسماك البحر المتوسط التي يصفها بدقة هي مخلوقات حقيقية مازالت تعيش بهذا البحر . وهذا أيضا ينطبق على وصفه لسمك « السترجن » الذي يعيش في بحر قزوين ، وعلى حديثه عن الكافيار الذي هو اليوم أغلى نوع من الطعام في العالم . كتب عن السترجن والكافيار يقول : « ليس في السمك شوك ولا عظم في رأسها ، وليس لها أسنان . كأنها ألية الحمل محشوة بلحم الدجاج (..) يخرج من بطنها دهن يكفي السراج شهرا ، ويخرج من معدتها من طري (بطارخ) السمك نصف منّ ، ويُعقد فيكون أحسن من كل قديد في الدنيا ، في لون الكهرباء أحمر صافيا يؤكل مع

الخبز كما هو ، لا يحتاج أن يطبخ ولا يخبز » .

وكتب أيضا عن الشيتل المجري الذي انقرض في وقت لاحق ، ولولا أن الرحالة «هيربنشتاين» شاهد هذا الحيوان في القرن السادس عشر ووصفه وصفا مطابقا لخديث رحالتنا ، لقيل عن أبي حامد إنه مرة أخرى أطلق العنان لخياله ، واخترع حيوانا أسطوريا جديدا ، يضيفه الى مجموعته من الحيوانات الخرافية .

الحلقة المفقودة

على أن قمة المشاهدة والملاحظة في كتابات أبي حامد تأتي ضمن ما كتبه عن شرقي روسيا ، وذكره لألواح الانزلاق عبر الجليد في «المعرب» . وهذه هي الفقرة التي أدت الى إعادة لتقييم مساهمة أبي حامد في أدب الرحلات في القرون الوسطى .

« الطريق الى يورا (شعب من شعوب سيبريا) في أرض لا يفارقها الثلج أبدا ، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا ينحتونها ، طول كل لوح باع وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان من الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقرب بين اللوحين التي تكون في رجليه شكال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل (أي الساق) وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير ، مثل رأس الإنسان ، خفيفة ، يعتمد على تلك العصا على الثلج ويدفع العصا خلف ظهره ، كما يدفع الملاح في السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ولولا تلك الحيلة لم يمكن لأحد أن يمشي هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد البتة ، وأي حيوان مشى عليه يغوص في ذلك الثلج فيموت فيه ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنه يمشي عليه بخفة وسرعة . . . » .

ولمزيد من الإيضاح ، رسم أبو حامد لوح الانزلاق على هامش الكتاب الذي خطه بيده ، وكتب تحته « صفة الألواح التي يمشون عليها » ومخطوطة « المعرب » محفوظة اليوم في أكاديمية التاريخ في مدريد . □





● انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى دون أن يترك من حطام الدنيا درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل.

● وحينما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة تنازل عن كل ما يملكه إلى بيت المال، وقد طلب الى زوجته أن تفعل مثل ذلك ففعلت، وكانا - هو وهي - من أغنى أغنياء بني أمية.

● وحينما توفي صلاح الدين الأيوبي لم يجدوا في بيته سوى سبعة دنانير، وصلاح الدين هو الذي حرر الأقطار العربية من قبضة الصليبيين، واسترد بيت المقدس من الأسر، ومكن الأزهر الشريف من القيام بدوره الجليل في خدمة الاسلام والمسلمين.



بقلم : ريتا عارف الرفاعي*

« حالما تقلع الطائرة يصبح للسير قوانين ونظم ، ويتحول الفضاء الفسيح أمامها طريقا محددا بأرقام وزوايا ، وليس مجالا فسيحا بلا حدود ، بل يتم السير فيه وفق قواعد صارمة ، تحددها اتفاقيات ، وتنظمها قوانين » .

بعدما اخترق فدائي قبية « خالد العربي » أجواء فلسطين المحتلة ، بطائرته الصغيرة ، متخطيا بها مناطق المراقبة وأجهزة الرادار ، بل مناطق معلومات طيران « اسرائيل » كلها ، أعاد القضية الفلسطينية إلى الذاكرة ، إلى ذاكرة العالم ومركز الضوء . فلقد اختار موقعه العربي الصادق ، عندما كسر حاجز الخوف العربي المستحكم . ولما هبط طيار ألماني مغامر ، في وسط الساحة الحمراء في موسكو ، لدهش العالم من المفاجأة ، وتراءى لبعض آخر أن الأجواء مفتوحة أمام كل طيار ، فما أن يقلع بطائرته عاليا في الجو ، حتى يتحول إلى طائر طلق ، لا تعيقه حدود الدول ، ولا أنظمة المراقبة الجوية . كأنما الطيران هو المرادف للانعتاق من قيود الأرض ، ومن أنظمة المرور على الطرق ، التي تقيد السائقين والمشاة .

لكن الواقع يختلف تمام الاختلاف ، إذ تعد قواعد مراقبة الفضاء ، أشد صرامة بكثير من قواعد المرور على الطرق . ومع أن الطيران المدني يسمح بحرية الطيران ، إلا أنه يخضع لقواعد ونظم ، من شأنها تأمين سلامة الطائرات ، ومنع اصطدامها ببعضها في الأجواء وحمايتها من الارتطام بالمنشآت والأجسام العالية ، إضافة إلى ضمان تدفق الحركة الجوية

* مهندسة بدائرة الطيران بدولة الامارات العربية المتحدة .

بدون تأخير . فالسير على الطرق البرية ، لا يتأثر بالطقس ، كما أن بوسع سائق السيارة التوقف على جوانب الطرق ، بدون أن يعيق تدفق الحركة . بينما يستحيل على قائد الطائرة التوقف في الجو ، بل عليه متابعة الرحلة ، وعليه اتباع زاوية انحدار محددة حين الهبوط أو الاقلاع ، لحماية طائرته من العوائق ، أثناء الهبوط في المطارات . وعندما يتوجب على قائد الطائرة اجتياز الضباب والغيوم ، أثناء الطيران في الطقس السيء أو الطيران الليلي ، تكون الرؤية متعذرة ، كما لا تتحقق سلامة الطيران ، مالم يزود الطيار بالمعلومات الجوية ، عند اجتيازه مناطق معلومات الطيران ، حيث تساعده المعلومات على اتمام رحلته بأمان .

وضعت المنظمة الدولية للطيران المدني المعروفة اختصارا بـ « ايكاو » ، خلال الاربعينيات ، قواعد وأنظمة لعمليات الطيران المختلفة على مختلف الارتفاعات ، وكان الهدف من ذلك حماية الطائرات ، وتأمين سلامة الطيران ، كما وضعت قواعد للاتصالات بين الأرض والجو ، لتزويد الطائرات والطيارين بالمعلومات الملاحية خلال الرحلات . وغدت مراقبة الحركة الجوية من أهم العمليات في المطارات ، إذ يتم بها متابعة الطائرات خلال تحليقها عبر الطرق الجوية ، كما يتم تزويدها بالمعلومات عند دخولها مناطق المراقبة المحيطة بالطائرات ، أو توجيهها إلى نقاط الانتظار في الجو ، أو الهبوط ، وبعدها تتولى المراقبة الأرضية قيادة الطائرة إلى مكان وقوفها المحدد في ساحة الوقوف ، إما بجوار محطة الركاب أو محطة الشحن .

أثر الرؤية البصرية على الطيران :

في ساعات النهار ، وخلال الطقس الجيد ، عندما يخلو الجو من الضباب والغيوم ، وتصبح الرؤية بأفضل شروطها ، يتمكن الطيار من



● غرفة المراقبة « في برج المطار » بأحد المطارات الدولية .

خلال قمرة الطائرة ، من رؤية الفضاء الممتد أمامه أو حوله ، فيرى الطائرات المحلقة بجواره ، والعوائق من جبال ومرتفعات ومنشآت بدون الاستعانة بالآلات أو التجهيزات . في حين أنه يضطر للاستعانة بالتجهيزات إذا تعذرت الرؤية . وتميز أنظمة الطيران ، بين قواعد الطيران البصري VFR وبين قواعد الطيران الآلي-بالاعتماد على الآلات IFR الذي يطبق في الطيران الليلي وظروف الرؤية السيئة .

ومن المتعارف عليه أن يعد الطيار خطة رحلته ، ويحدد فيها الطرق الجوية التي سيسلكها ، من مطار الإقلاع إلى مطار الهبوط ، كما يحدد مستوى ارتفاع الطيران ، وقواعد الطيران ، ويتقيد بنوع الطائرة وأجهزتها ، ومستوى المطار الذي سيهبط عليه ، فالطائرات غير المجهزة بالآلات ، تستطيع الطيران وفق قواعد الطيران البصري فقط ، ولا يمكنها التحليق خلال الضباب أو عتمة المساء ، بينما تستطيع الطائرات المزودة بالآلات الخاصة بالرؤية ، أن تطير وفق النظامين ، البصري والآلي معا .

المجال الجوي ، واقليم معلومات الطيران VTR / FIR

يعد الفضاء الرحب الذي يمتد فوق حدود كل دولة ، وفوق مياهها الاقليمية ، مجالا جويا لهذه الدولة . ويفتح المجال الجوي ، أمام الطائرات المدنية النظامية ، فتعبره بيسر وسهولة ، متنقلة من مجال جوي إلى آخر ، حتى تصل إلى المطار الذي تقصده . وخلال عبورها المجال الجوي ، تكون في ضيافة تلك الدولة ومسؤوليتها . فتتزود منها بالمعلومات الجوية عن الطقس والعوائق والمسالك والمعلومات الأخرى التي تضمن لها سلامة الطيران . وما أن تغادر المجال الجوي إلى غيره ، حتى تتحول إلى معلومات الدولة الأخرى المسؤولة عن الطيران عبر مجالها الجوي .

وكما أن لكل دولة مجالها الجوي ، فإن لها أيضا إقليم معلومات الطيران الخاص بها . ويغطي عادة اقليم المعلومات القطاعات الجوية الوسطى ، أو العليا التي تمتد إلى ارتفاعات غير محدودة في الفضاء . ويحد إقليم المعلومات نقاط مراجع لاسلكية معرفة ، تنطبق على الحدود الادارية للدولة أو لا تنطبق . وينقسم المجال الجوي ، وإقليم معلومات الطيران إلى مناطق مختلفة ، تتألف من :

- مناطق المراقبة الجوية .
- مناطق المراقبة النهائية ـ حول المطارات .
- الطرق الجوية Airways .

ارتفاعات تحليق الطائرة :

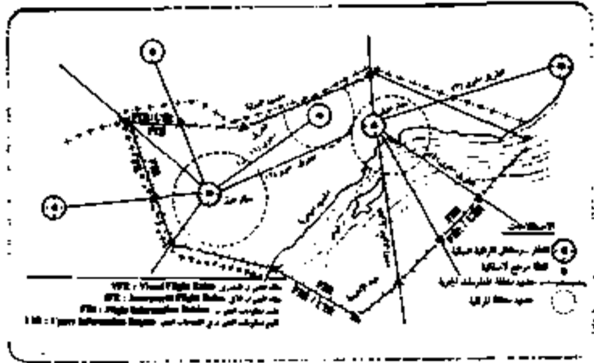
يستطيع قائد الطائرة الماهر وحده ان يحول الرحلة الجوية إلى نبع من الثقة والاطمئنان ، ويستطيع أن يلهب الفضول في صدور المسافرين عبر الأجواء ، كما يستطيع أن يكشف غموض الرحلة الجوية وخفاياها . في رفقة كهذه ، يتمكن المسافر من تكوين فكرة عن الطرق الجوية ، وارتفاعات الطيران ، وشروط الطقس في الأعالي ، ومعلومات أخرى يقدمها قائد الطائرة ، فالطائرة تحلق في الجو على ارتفاعات مختلفة ، تقع ضمن مستويات تختلف فيما بينها : بالارتفاع عن سطح البحر ، وبالضغط الجوي . وتتميز ارتفاعات الطيران ، اصطلحت « ايكاو » على استخدام اختصارات للدلالة على مستوى تحليق الطائرة وارتفاعها ، وما يقابل هذا المستوى من ضغط جوي . واختصار هذا المصطلح « فل » أو (F.L) ، أي سوية الطيران . وعدت السوية رقم صفر هي سوية سطح البحر والضغط الجوي على سطح البحر ، وتتزايد هذه الأرقام تبعا للارتفاع ، بينما يتناقص الضغط الجوي . ومن المعروف فيزيائيا أن الضغط الجوي يتناقص كلما ارتفعنا عن سطح البحر ، حيث تنخفض قيمته إلى النصف على ارتفاع ١٨٠٠٠ قدم « يعادل ٥,٨ كيلومتراً » ، والجدول التالي يبين بعض مستويات الطيران المعروفة دوليا :

رقم مستوى الطيران « F.L. »	الارتفاع عن سطح البحر	
	بالمتر	بالقدم
F.L.ـ صفر	صفر	صفر
F.L.ـ١٠	٣٠٠	١٠٦٠
F.L.ـ ١٠٠	٣٠٠٠	١٠٠٠١
F.L.ـ٢٠٠	٦١٠٠	٢٠٠٠٠
F.L.ـ٣٠٠	٩١٥٠	٣٠٠٠٠
.. الخ ..	.. الخ ..	.. الخ ..

ويطلق على قطاعات الجو التي يزيد ارتفاعها عن سطح البحر ٢٠٠٠٠ قدم بالقطاعات الجوية العليا .

مراقبة الأجواء :

برج المطار ـ في أي مطار من المطارات ـ مهما صغرت درجته ـ هو الدماغ أو مركز تفكير الحركة الجوية ، وتتوقف سلامة الطيران أثناء



● مخطط عن اقليم معلومات الطيران.

التحليق أو الهبوط والاقلاع ، على يقظة العاملين في تلك الأبراج وخبرتهم وهم يقضون طوال يومهم أمام الأجهزة الدقيقة ، يشرفون على مساحة كبيرة في الجو ، يصل قطرها إلى حوالي ٤٠ كيلومتراً حول المطار . ومن البرج يمكن الاتصال بقمرة الطائرة ، ومخاطبة قائدها ، وتزويده بالمعلومات اللازمة حول الهبوط ، والإقلاع ، والطقس ، والعوائق ، وغير ذلك . ويساعد برج المطار عدد من المحطات اللاسلكية التي تعمل منارات مرشدة ببث ذبذبات محددة ، تستقبلها الأجهزة الدقيقة في الطائرات ، وتستدل بها على الموقع والمسافات ، إضافة إلى المراقبة بالرادار الذي يرصد حركات الطائرات على الطرق الجوية المختلفة .

الطرق الجوية :

هي المطارات ، موانيء سقف الجو ، تبتدىء منها الرحلة الجوية ، وفيها تنتهي . صورتها وحدها تبقى في الذاكرة ، وتتراكم فيها الصور فوق الصور ، عن مطارات متعددة ، تنتمي إلى أمكنة وبلاد بعيدة ، قد يحتفظ المسافر من كل واحد منها ذكرى ترتسم داخل القلب ، وتعود أحياناً ، أو تغيب مع سيل الذكريات البعيدة . أما الطرق الجوية فهي أشياء مختلفة ، لا يتعامل المسافر معها غالباً ، لكنه يحس بها بمرور الزمن ، فهو يراها قصيرة حيناً كلمح البصر ، ويجدها حيناً آخر طويلة لا تنتهي .

والرحلات الجوية ، والطيران بين قطر واخر ، أو بلد واخر ، تستخدم مسالك جوية معروفة ، تشبه إلى حد كبير الطرق البرية التي تستخدمها السيارات في التنقل والنقل بين المدن على سطح الأرض . وتختلف الطرق الجوية باختلاف مستوى التحليق ، فمنها الطرق الجوية ذات الارتفاع المنخفض التي يتراوح مجالها بين ١٢٠٠ ـ ١٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، والطرق الجوية ذات الارتفاعات العالية التي يتراوح مجالها بين ١٨٠٠٠ قدم ـ ٤٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وكذلك تختلف الطرق الجوية باختلاف أغراضها ، فمنها الطرق الجوية

الوطنية الداخلية ، والطرق الجوية الاقليمية التي تصل بين المطارات في مناطق متقاربة ، والطرق الجوية الدولية التي تجتاز القارات . وأيا كانت هذه الطرق ، فلابد لها من المرور فوق محطات خدمة الطيران التي تنتشر على مسارات الطرق الجوية ، ويقدم من خلالها خدمات مختلفة ، منها معلومات عن الطقس ، وجاهزية المطارات ، وتحديد مواقع الطائرات التي تفقد إمكانية الاتصال ، أو الطائرات التي تضيع في الجو ، وغيرها . ويحدد الطريق الجوي عادة بزاوية مساره من الشمال ، وبطول الطريق ، ومستوى الطيران المحدد له . ويتراوح عرض الطرق بين (٨ - ١٠ أميال بحرية) ، ما يعادل ١٥ - ١٨,٥ كيلومتراً . وتسعى إدارات الطيران المدني لجعل الطرق الجوية ضمن مجالاتها الجوية مستقيمة ، وبأقصر طول ممكن ، لتخفيض تكاليف تشغيل الطائرات ، ولاختصار زمن الرحلات ، وبذلك تصيب عدة عصافير بحجر واحد .

ويتم اختيار مستوى الطيران في الطرق الجوية تبعا لطبيعة سطح الأرض ، فللطرق الجوية التي تمر مساراتها فوق المناطق الجبلية يكون فيها مستوى التحليق مرتفعا ، وأحيانا تكون من الطرق ذات الارتفاعات العليا ، في حين أن الطرق فوق المناطق المنبسطة والصحراوية تبقى ضمن الطرق ذات الارتفاعات المنخفضة التي تتراوح سوية الطيران فيها بين F.L. ٤٠ - ٥٠ أو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . ويصدر كل قطر من الأقطار التي تتعامل بالطيران المدني مخططات للطرق الجوية ، تبين عليها الطرق بالأرقام والأحرف وفق المصطلحات الدولية ، لتمييز الطرق الجوية عن بعضها . وتتجمع المخططات المختلفة بمخطط دولي واحد ، يبدو العالم فيه صفحة منبسطة ، تمتد على سطحها الطرق الجوية ، كالشرايين المتشابكة ، تتقاطع وتتوازى ، وتلتقي في المطارات وفوق المحطات المتخصصة بخدمات الطيران . وقد يغدو أحد هذه الطرق كشريان يصل بين القارات الست ، أو يصل بين قارتين ، كالطريق الجوي R-19 الذي يصل بين قارتي أوربا وآسيا ، ويمتد بين مطارات يوغسلافيا ، واليونان ، وسوريا ، والأردن ، والسعودية ، وقطر ، والامارات العربية المتحدة ، وسلطنة عمان .

المساعدات الملاحية :

كما تهدي المنارات في عرض البحر الملاحين إلى موانئهم تقوم المساعدات الملاحية بالدور نفسه عبر الأجواء ، فهي تؤمن تقديم المعلومات التي تضمن حماية الطائرات من الاصطدام ببعضها ، أو حمايتها من العوائق المرتفعة .

وتتألف المساعدات الملاحية من إشارات وأجهزة لاسلكية ، وأنوار ، فالمنارات الجوية الموضوعة في محطات أرضية ، تضم أجهزة إرسال (راديو) ومرشدات ذات اتجاهات متعددة ، تعمل بترددات متوسطة أو عالية جدا ، يتعارف عليها العاملون بمجالات الطيران اختصارا بـ VOR أو ILS،NDB . وتستقبل أجهزة الطائرة ، أثناء تحليقها في الجو ، الإشارات اللاسلكية الصادرة عن هذه المرشدات ، فيستدل منها الطيار على مساره الصحيح خلال شروط الطقس المختلفة ، أو حتى خلال انعدام الرؤية . وبأجهزة الاتصالات جو - أرض (إرسال واستقبال) يتم ارسال معلومات الطقس ، مستعملة في الارسال ترددات متوسطة بين ٣٠٠ - ١٠٠٠ كيلوهرتز ، أو الترددات العالية التي تتراوح بين ١٠٠ - ٤٠٠ ميغاهرتز .

منطقة معلومات الطيران العربية

يغطي المجال الجوي فوق الوطن العربي عدة مناطق معلومات للطيران ، تتجاور وتتلاقى فيما



● برج المطار في مطار أبو ظبي الدولي

بينها ، ويجري التنسيق فيما بينها حين انتقال الطائرات من منطقة معلومات إلى أخرى . وعندما تقوم طائرة ما ، برحلة طيران بين أربعة مطارات عربية ، بالطائرة النفاثة السريعة من نوع : بوينغ B-747 مثلا ، لابد لها من التنقل بين أربع مناطق معلومات طيران . وخلال فترات زمنية متقاربة . وقد تجتاز الطائرة النفاثة السريعة المجال الجوي لبعض الأقطار العربية في مدة لا تتجاوز ٢٠ ـ ٣٠ دقيقة ، وهذا يفرض على الطائرة سرعة الانتقال ما بين منطقة معلومات عربية إلى منطقة معلومات عربية أخرى ، مما يتطلب سرعة التنسيق ، إلا أن هناك فرصة لاحتمالات الوقوع في الخطأ ، أو احتمالات سوء الفهم ، وسوء تفسير المعلومات حين التنسيق ، مما قد يؤدي إلى أخطار التصادم بين الطائرات في الجو ، ويزيد في احتمالات وقوع الحوادث الجوية .

وربما تنبسط على صفحة الحلم ، للعاملين في مجالات الطيران في الوطن العربي ، صورة فضاء عربي موحد ، تتحد فيه مناطق معلومات الطيران ، ومراقبة الأجواء ، وتنطلق من منطقة المعلومات العربية للمعلومات ، وتنسق لمناطق معلومات إقليمية ، هي منطقة معلومات مهمتها الجمع والتوحيد والتنسيق ، بل فلتقل مهمتها جمع التشرذم الجوي ، لتشكل منه فضاء عربيا موحدا حاملا القوة والحضور في آن واحد . □

الإنسان: هو المخلوق الوحيد الذي يولد باكيا ويعيش شاكيا.

البخيل: رجل يقتر جوعا ليقتل ورثته بالتخمة.



منتدى العربي



● تظل قضية ماذا تقدم في وسائل الإعلام ، واحدة من قضايا التنمية ، فالقيم والسلوكيات التي تبثها هذه الوسائل تؤثر في ثقافة ووجدان الشعوب . وإذا كان الكبار عرضة للاختراق وغسل الدماغ في بعض الأحيان . فما بالنا بالصغار الذين تمتد أصابع التشويه الى المواد الإعلامية والأفلام الموجهة إليهم أيضا . ●

وأفــــلام الأطفــال أيضــا !

بقلم : عبد الرحمن حمادي

أذكر أنني في بيروت بقيت أسبوعا أحاول الدخول للصالة التي تعرض فيلم (القط الطائر) ، وما نجحت إلا بالحصول على بطاقة من السوق السوداء . ولقد ذهلت حينما اكتشفت أنني أمام أحد أسوأ الأفلام عدائية وتشويها لصورة العربي .

الفيلم من إنتاج شركة مترو غولدن ماير الشهيرة ، وهو موجه للأطفال والناشئة أساسا ، بيد أنه بتقنياته وطرافة موضوعه يجعل الكبار قبل الصغار يتسابقون لمشاهدته ، ويتحدث عن قط صغير جميل ، يأتي من كوكب بعيد ، كل سكانه من القطط ، وهذا القط يملك قوة خارقة في السيطرة على الأشياء ، وذلك بسوار معلق في عنقه .

ويسعى عالم أمريكي للاستفادة من السوار بعد أن يقيم علاقة صداقة مع القط ، وهدف العالم الأمريكي أن يحل مشكلة المجاعات في العالم الثالث (لنلاحظ الصورة المشرقة للإنسان الغربي) ، بيد أن عصابة خطيرة تظهر فجأة ، وتحاول السيطرة على السوار ، لتسيطر به على العالم ، وهذه العصابة تلبس اللباس العربي التقليدي ، وتتسلح بالسيوف المعقوفة ، ويتخاطب أفرادها بأسماء إسلامية عربية (أحمد ـ محمد ـ جعفر) ، لكن لابد (للشر العربي أن يهزم) ، كما يقول الفيلم ، وذلك من خلال تصدي العالم الأمريكي للعصابة (للسلمة) وتدميرها

إنه فيلم لا يذكر العرب مباشرة ، ولكن من

الواضح أنهم ما صنعوه إلا ليشوهوا من خلاله صورة العرب . وليغذوا أطفالهم وناشئتهم قبل بالغيهم أن الخطر في العالم مصدره العرب . وعلى الغرب أن يسعى لتدمير هؤلاء العرب قبل أن يدمروا العالم .

والسؤال :

كيف مر مثل هذا الفيلم علينا لنعرضه في أقطارنا ؟

المتطــــــاد :

فيلم آخر من إنتاج شركة مترو جولدن ماير أيضا ، يتحدث عن رحلة علمية لعلماء أمريكيين في منطاد ، ومعهم مساعدة شقراء جميلة . وفي رحلتهم يتعرض منطادهم لعطل ، فيقعون في أسر جماعة من المتوحشين ، أكلي لحوم البشر في أفريقيا . بيد أنهم بعد سلسلة من المغامرات ينجحون في الهرب بمنطادهم . ولقد هم الأفارقة بطهيهم وأكل لحومهم .

ثم يصل بهم منطادهم الى صحراء شاسعة . ويحلق فوق مدينة إسلامية ، ترتفع فيها المآذن بكثرة . وإذ يرى سكانها المنطاد يظنونه شيطانا سماويا . فيخرون ساجدين برعب . ويهرع المؤذنون للمآذن يكبرون ويهللون لله أن يصد عنهم هذا الشيطان

ويهبط العلماء بمنطادهم ليتزودوا بالمؤونة من هذه المدينة العربية التي تسرح فيها الخيال . ويعيش سكانها وسط القاذورات والبهائم . والذين ما أن يطمئنوا الى أن هؤلاء الهابطين عليهم بشر مثلهم ، حتى يقودوهم الى أميرهم في قصره الكبير

والأمير المسلم هذا محاط بالحريم ورجال الدين الاسلامي ، يقرأ القرآن . ويرتكب الفواحش . هكذا يقول الفيلم . وما أن تقع عيناه على المساعدة الشقراء حتى يسيل لعابه على لحيته ، ويقرر اغتصابها وضمها الى حريمه (لتراجع الأفلام التي حللها الدكتور جاك شاهين وكيف أنها تصور العربي شبقا) . ثم تدور مغامرات يجابه فيها الأمريكيون سكان المدينة المسلمة الذين كلما شعروا بالهزيمة سجدوا مبتهلين لله أن ينصرهم ، وفي النهاية ينجح العلماء في إنقاذ مساعدتهم الشقراء (بالطيران بها) ، وقد أوشك الأمير المسلم أن يفترسها .

إنه فيلم مملوء حقدا وعدوانية على العرب ، ولا يوفر وسيلة في تشويه الاسلام والمسلمين ، مصورا إياهم بصورة أسوأ بكثير من صورة آكلي لحوم البشر المتوحشين . وخلافا لما عهدناه في هذا النوع من الأفلام ، لا ينتهي الفيلم بتدمير المدينة العربية المسلمة ، بل يتركها في محاولة إقناع ضمنية للمشاهد بأن المسلمين والعرب خطر قائم مستمر ، يجب أن تتكاتف الجهود لصده وإبادته .

أفـــلام أخـــرى :

القائمة طويلة كما قلنا ، ومنها تلك التي تعرضها في أقطارنا ، كفيلم (مغامرات في مصر) للثنائي بودسبنسر وترانس هيل ، حيث مغامراتهما الشيقة هذه المرة تدور على أرض مصر . وتبدأ هبوطهما في مطار القاهرة الدولي بكل حداثته وحضاريته وسعته ، ثم ينتقلان لمدينة القاهرة التي هي عبارة عن خيم وإبل تسير في شوارع صحراوية ، وأناس بجلابيبهم العربية التقليدية يحاربون بالسيوف المعقوفة ويمتطون الابل . ويهربون عند سماعهم أصوات الطلقات النارية من مسدس سبنسر وهيل « !

وحتى أفلامهم التي تظاهروا فيها بالحيادية لم يخرجوا فيها من أسر نظرتهم العدائية للعرب ، ومحاولاتهم الدائبة لتشويههم . كما في فيلم (عملية ميونخ) ، فقد عرض الفيلم في جميع الأقطار العربية . وفي « إسرائيل » ، كفيلم تحدث بحيادية عن عملية ميونخ الشهيرة ، لكن الحقيقة أن الغمس استمر على العرب طوال مشاهد الفيلم بشكل غير مباشر ، قد لا ندركه نحن العرب ، لكن يدركه المشاهد الغربي الذي هيأته السينما الأمريكية والغربية بصورة سابقة عن العرب ، فقائد العملية العربي مثلا حينما يشاورون بالتفاوض معه أو بجعله

يلوث ، يرسلون له عشيقة شقراء ، وسرعان ما يلين أمامها ، ويكاد يستسلم لها ، وللمطالب التي تنقلها . ويعلن الفيلم مرة أخرى أن العربي لا يستطيع مقاومة شبقه تجاه الأنثى ، وهي الصورة التقليدية عن العربي في السينما الغربية والأمريكية .

ما العمل ؟

إنها أمثلة فقط في حديث لا أراه يضيف إلا يسيرا إلى مئات الكتابات التي ظهرت ، ينبه أصحابها إلى الحرب السينمائية الخطيرة التي يشنونها بشراسة على العرب والاسلام ، ولا يختلون بالعلم وتقنياتهم لجعل تلك الحرب أشد شراسة وفاعلية من حرب الطائرة والمدفع ، ومع ذلك أسأل كما تساءل غيري : ما العمل ؟

سؤال أقترح أن تكون الاجابة عنه بحوار شامل مسؤول على صفحات (العربي) ، حوار يطرق أهل السينما العربية ، ويشاركهم فيه المعنيون بأمور الاعلام في الحكومات العربية ، وعسى أن يكون مثل هذا الحوار خطوة تحقق المثل القائل : إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة □



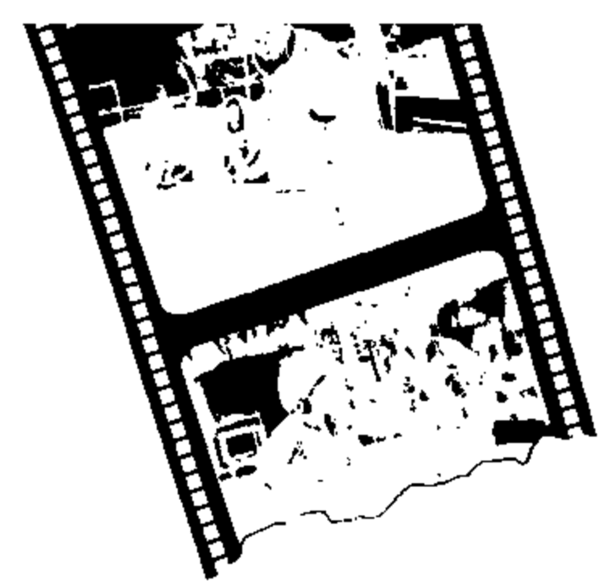
تعقيب

صورة العرب في السينما غير العربية

ما زال مقال د . جاك شاهين عن « العربي كما تراه هوليود » الذي نشر في العدد رقم ٣٥٣ لشهر ابريل / نيسان ١٩٨٨، يستأثر باهتمام كبير . وقد وردتنا تعقيبات كثيرة على المقال اخترنا منها هذا التعقيب الذي يستشهد بأفلام جديدة تؤكد الصورة المشوهة التي ترسم الشخصية العربية في السينما .

أثناء سفري على متن احدى طائرات خطوط الطيران غير العربية في رحلة استغرقت احدى عشرة ساعة تضمن برنامج عرض الأفلام بالطائرة فلم « موعد مع الموت » . وعلى الرغم من أن الفلم قديم إلا أنه ما زال يعرض . ويصور الفلم عهد الامبراطورية البريطانية الغابر ، عندما كانت بريطانيا تحتل بعض الأقطار العربية وتنهب خيراتها وثرواتها وتستنزف أمجادها المفكرة .

في هذا الفيلم يظهر العرب بلهاء ، متوحشين ، جاهلين ، ماكرين خبثاء ، كارهين مكروهين ،



سلاحهم الخناجر يغمدونها في أجساد ضحاياهم من البريطانيات البريئات الفاتنات والأوروبيات المتحضرات . وفي احد المشاهد يجتمع نحو عشرين رجلا ، يحمل كل واحد منهم خنجره . ويحيطون باحدى البريطانيات الشابات الحاملة السوار بالمعصم ، وهنا يصل للانقاذ في صورة فرقة من الجيش البريطاني ، فترتد الخناجر الى اصحابها . وهكذا تنهزم الخناجر امام البنادق والعرب امام البريطانيين والأوروبيين ، والجلافة والبداوة والجهل امام الحضارة والتقدم والعلم . فالعرب دائما في كل أفلام أوروبا رمز التخلف والحقد والضيق والثروة التي تضيع هباء على الناهرات السالطات ، لانها ثروة النفط التي أتتهم من غير عناء .

لما بيت القصيد هذه المرة فهو خارج دائرة كل من أمريكا وأوروبا ، بل في آسيا التي ينتمي إليها ثلاثة عشر قطرا عربياً . والغريب أن السينما الآسيوية أيضا لم تجد إلا العرب لتهزأ بهم وتسخر منهم ، وكأنه ليس هناك سوى العرب ضحية لكل ناعق .

بعد أن حدثني البعض عن فيلم Penny Gold طلبت من أحدهم أن يصحبني لرؤيته ، وهو موجود في دور العرض بماليزيا ، وكل اتجاه القليون ، ويصور العرب شاذين سادين .

يبدأ المشهد الذي يجري دائما وراء دور السينما خاصة من الجنس الآخر لينطلقن في صياح وهياج ، بمجموعة من نساء الليل ، يتكالبن على الزبائن . ويطيب لزم ماكر خاطر إحدى النساء الفاتنات ، لأن زوجها ضاع منها ، بقوله :

لا عليك ، سأحضر لك زوجا عربيا .. !

وتترجع النقطة لنظر العربي الكريه عندما تراه ،

فتجعل كالقطة يكاد يفترسها ذئب ، أو تلتف حولها كوبرا لتخنقها ، طلباً للحيلة ، والمكر والخداع . وتحاول أن توهمه أنها ولد ، (معتمدة على ذلك بصدرها غير الناهد) ، فيهجم عليها ، قائلا : الآن أريدك أكثر ..!!

وليس بعد هذا التشويه ، واتهام العرب جميعا بالشذوذ تشويه . لم تظهر سادية العربي - وقد ألبسوا أحد ممثليهم الملابس العربية ، إمعانا في الزراية والتشويه والنكاية - فيحاول ضربها بالسوط ، ويضربها فعلا ، إلى أن تنجح في اختطاف السوط منه ، وتضربه به على مؤخرته ، وهنا تصل المأساة ذروتها ، إذ تتضح أنها « ماسوشيته » فيتلذذ بها في الفراش وهي تضربه على مؤخرته ، وهو يقول لها : - اضربي ، أكثر !

وتتركه في قرف واشمئزاز .

وأتصور أنه لا يوجد عربي واحد يسلك مثل هذا السلوك القذر ، لكن الموجودات بدار العرض يصاحبهن في التلذذ . ولا بد أن يخرجن من صالات خاصة في بلاد الغرب !!! - وخاصة عندما تنجح الفتاة في أخذ سوط العربي وضربه به .

ان فيلم Penny [illegible] - ويمكن ترجمتها الى (البيض الفليبيني) ، لأن (بالوت) هذا نوع من البيض ، يعد بطريقة خاصة - يسيء لنا أبلغ إساءة مثل أفلام السينما الامريكية الصهيونية أو الاوروبية سواء بسواء .

ان مشكلتنا أنه لا توجد لدينا مراكز رصد وتحليل ، لما ينشر عنا في وسائل الاعلام المختلفة ، وعندما تعم الاساءة للاسلام والعروبة ، فاننا حتى لا نفعل أضعف الايمان بأن نتابع ما ينشر أو يعرض أو يقال أو يذاع عنا لنعرف الحقائق والاباطيل ، بل نصم آذاننا في أكثر الاحيان ، وتتحكم فينا عقد الخوف ، ولا نعرف ما يقال عنا ولا نحلله . هكذا نظل في أغلب الاحيان : آخر من يعلم !

هل سمع أحدكم بهذا الفيلم الفليبيني ؟؟!

محمد حسين



لا تغضب

● جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه ، وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم ، فقال له وهب : لا تفعل ، فانه لابد للناس منك ، ولابد لك منهم ، لهم إليك حوائج ، ولك إليهم حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعا ، وأعمى بصيرا ، وسكوتا نطوقا .



خير الرجال

● قيل لحكيم : أي الرجال أفضل ؟

قال : الذي إذا حاورته وجدته عليما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا منح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا اشتكي إليه وجد رحيما .



إعداد : يوسف زعبلاوي



● لفت انتباهنا اكتشاف علمي تحدثت عنه بعض المجلات العلمية في المدة الأخيرة ، فالاسم الذي يعرف به الاكتشاف ، أسلوب رمزي Ramzi Procedure ، وقد تم تسجيل الاكتشاف لدى الدوائر المختصة بالاسم المذكور نفسه . واشتبهنا بادىء ذي بدء ، ثم ما لبثنا أن تأكدنا أن صاحب الاكتشاف عربي بن عربي اسمه الكامل سعد رمزي اسماعيل ، وهو عراقي الأصل ، هاجر الى كندا سنة ١٩٧٩ ، وهو الآن يحمل الجنسية الكندية ، ويعمل في مجال التصوير الطبي ، ويشغل منصب رئيس قسم التصوير بالموجات فوق الصوتية في مستشفى جون كيندي بكاليفورنيا .

وقد تسنى لعالمنا العربي الشاب ابتكار بعض التحسينات في مجال التصوير بالموجات فوق الصوتية تعرف : « بطريقة رمزي » . وتتلخص في أن جهاز التصوير الطبي بالموجات فوق الصوتية ينقسم الى جزئين مهمين ، وهما القاصف الذبذبي والكريستال .

فأجهزة الموجات فوق الصوتية معدة لأغراض المعالجة بما يعرف بالعلاج الطبيعي Physiotherapy ، ومعدة لأغراض التشخيص . والأخيرة هذه هي التي تعنينا هنا ، ونخص بالذكر منها الأجهزة التي تساعد على تشخيص الأمراض الباطنية والنسائية .

والقاصف الذبذبي هو أحد مقومات هذه الأجهزة ، والكريستال هو أحد أجزاء هذا القاصف ، بل أهم أجزائه وأغلاها ثمنا ، ذلك أن هذا الكريستال هو الذي يقوم بتحويل التيار الكهربائي الى الموجات فوق الصوتية ، ويقوم بإعادة تحويل هذه الموجات الى تيار كهربائي مرة أخرى ، فيجري تحليل هذا التيار بجهاز الحاسوب « الكمبيوتر » ، وتنعكس الصور الطبية المطلوبة على شاشته .

على أن هذا الكريستال الحساس الباهظ الثمن كثيرا ما يتعرض للتلف أو الخلل ، نتيجة الاستعمال ، ونتيجة تعرضه للحرارة أو للمواد الكيماوية أو للصدمات العادية ، ولو أمكن تحديد حساسية هذا الكريستال بطريقة أو بأخرى لأمكن تحديد تناقص تلك الحساسية ، وأمكن بالتالي إصلاحه وتحاشي تلفه ، في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان . وهذا هو بالضبط ما أمكن للعالم العربي الشاب سعد رمزي إحرازه نتيجة للأبحاث


سعد رمزي اسماعيل
صاحب الاكتشاف



والتجارب المدينة التي قام بها في هذا الصدد .
ويجدر الاشارة الى أن طريقته في تحديد حساسية الكريستال تعتمد على الموجات فوق الصوتية ، وتختلف هذه الموجات فوق الصوتية الفاحصة لحساسية الكريستال عن الموجات فوق الصوتية التي يولدها الكريستال ، والتي تستعمل في تشخيص الأمراض- في أن الأولى موجات مستمرة بينما الثانية موجات متناوبة .

بقي أن نشير الى فائدة عملية أخرى لطريقة رمزي غير اكتشاف تناقص حساسية الكريستال وتفادي تلفه في الوقت المناسب ، فهي كفيلة « بالكشف عن غش بعض الشركات التي تضع القاصف الليفي وأجهزة التشخيص بالموجات فوق الصوتية .. فغلاء الكريستال الفاحش يشجع البعض على بيعه بحساسية عالية مزعومة ، وطريقة رمزي كفيلة بتحديد حساسية ذلك الكريستال الحقيقية .. والكشف عن الغش إن كان ثمة غش .

■■□□



اقتنعت دائرة الصحة البريطانية مؤخرا على صنع مستحضر جديد لمعالجة « الاكزيما » وذلك لأول مرة في تاريخ الدائرة المذكورة وسمت المستحضر الجديد « إبو جام » (Epogam) وأكدت أن العنصر الفعال فيه إنما هو زيت زهرة الربيع المسائية evening Primrose .

وزيت الزهرة المذكورة معروف منذ زمن طويل ، وقد باعه العطارون والبقالون في بريطانيا ضمن الأعشاب العلاجية التي درجوا على بيعها منذ القرون الوسطى .

ولكن الزيت المذكور كان موضع تجارب علمية دقيقة في المدة الأخيرة وقد دلت التجارب على أن زيت زهرة الربيع ذو أثر علاجي فعال لكثير من الأمراض .

وأثبتت التجارب العلمية الأخرى التي تولتها لجنة أمن العقاقير أن زيت الأعشاب السالفة الذكر آمن الى حد غير عادي ، وبدون آثار جانبية ، وأنه قد يحد من الحاجة الى مركبات الستيرويد أو يحل محلها ، وهي المركبات التي تشبه الكورتيزون التي عرف عنها آثارها الجانبية الضارة .

ويجدر الاشارة الى أن هذه التجارب تعمل تحت اشراف السير « جيمس بلاك » العالم البريطاني الذي ظفر بجائزة نوبل للطب في شهر أكتوبر ١٩٨٨ .

ولعل أهم ما يلاحظ أن العقار الاعشابي لم يحظ بالاعتراف أو الترخيص الرسمي فحسب بل إنه ظفر بإقبال دائرة الصحة البريطانية نفسها على صنع مستحضر « إبو جام » منه .

■■□□

● ثمة مادة من المواد اصطلح علماء الفيزياء على تسميتها « اللامادة » او نقيض المادة (antimatter) ويعرّفها بعضهم بأنها ظل المادة أو إن شئت صورتها المنعكسة على مرآة ، وتتميز « اللامادة » هذه بأنها مشحونة بكهرباء عكس الكهرباء التي شحنت بها المادة ، فهما كالضدان لا يجتمعان ، وإذا اجتمعا أفنى الواحد منهما الآخر بزخة عنيفة من الطاقة .

والظاهر أن الأبحاث المتصلة بطبيعة اللامادة تتصف بالأهمية والخطورة ، حتى أن احدى الشركات التي تقوم بأعمال سرية لصالح سلاح الطيران الأمريكي طالبت في تقريرها الأخير بمضاعفة المبالغ المخصصة لأبحاث اللامادة بمقدار (٤٠٠ مليون) دولار وذلك للعشر سنوات القادمة .

ويؤكد التقرير العلمي الصادر في الولايات المتحدة الامريكية أن الفوائد التي قد تترتب على أبحاث اللامادة كثيرة وخطيرة ، وستظهر هذه الفوائد أكثر ما تظهر في مجال الطب البيولوجي (biomedicen) ومحركات الصواريخ ، وتحليل المواد ، فضلا عن طبيعة المادة على الأخص .

■●□□



ما أكثر المناشف وأجهزة تنظيف الأيدي ، وما أقل التجفيف الفعال الذي يحتاجه الانسان في المطاعم والأفران ، وفي صناعة المعلبات والمواد الغذائية ، الخ ، الذي تستوجبه المستشفيات ومراكز الصحية الصحية ، وغرف العمليات الجراحية . لاعجب اذن ان عمدت احدى الشركات الامريكية الى تطوير جهاز تنظيف الكتروني بالغ الفاعلية ، كما تؤكد الشركة التي تصنعه وتسوقه . وهو يفوق أجهزة التنظيف المتاحة من حيث الفاعلية بنسبة ٦٠٪ أو أكثر ، وهو سريع الأداء ، ينجز في دقيقة ونصف ما تحتاج الأجهزة الأخرى لإنجازه الى ٥ ـ ١٠ دقائق

قوام الجهاز الجديد فتحتان أو رشاشتا ماء متحركان على نحو لولبي ، بحيث لا يضع المرء يديه مقابلهما فتحتي الرشاشتين ويدوس بقدمه على الدواسة ، تدفق الماء من الفتحتين وانصب الماء رذاذا على يديه ، وهو مختلط بمواد كيماوية وبكتيرية ، وممزوج بالهواء ، وذلك بمقادير محددة ، فلا تلبث اليدان المعرضتان لهذا الماء أن تصبحا نظيفتين تماما .

على أن فاعلية الجهاز لاتعتمد على المواد الكيماوية والبكتيرية وحدها ، بل لعله يعتمد أكثر من ذلك على هز الجلد ـ جلد اليدين أو ظهر اليدين ـ هزا مناسبا ، يكفي لانتزاع البكتيريا العالقة بالجلد المتوارية في مسامه .

تصنع الشركة هذا الجهاز بطرز ثلاثة مختلفة : طراز المطاعم ، وطراز المستوصفات ، وطراز غرف العمليات الجراحية .



■●□□







التدخين في تراجع في أمريكا بفضل التقارير العلمية التي يصدرها كبير الجراحين وغيره في واشنطن .

الفضيلة هي المعرفة . هذا ما قاله أفلاطون قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة ، وهذا ما يجدر بحملات الاقلاع عن التدخين أن تتخذ منه أساسا ومنهاجا ، فلو عرف المدخن أن التدخين ضار بصحته حقا لأقلع عن التدخين ، واقتنع دون أي تردد . ذلك هو الأساس الذي اعتمده أهل الغرب في حملات مكافحة التدخين في بلادهم ، فقد تركوا مهمة اقناع المدخنين بضرورة الامتناع عن التدخين للحقائق العلمية نفسها ، واكتفوا بالكشف عنها بإيجابياتها وسلبياتها ، دون تغليفها أو التعقيب عليها بعبارات الوعظ والارشاد ، وكشفوا عنها بتجرد ونزاهة ، دون أي مبالغة ، فكانت الثمرة الطيبة التي جنوها في كثير من البلدان الأوربية ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، ثمرة التناقص في عدد المدخنين في السنة الأخيرة ، فلولا التقارير العلمية التي درجت على إصدارها دائرة كبير الجراحين Surgeon General في واشنطن سنة بعد سنة ، لما كان هذا التناقص الملحوظ في عدد المدخنين .

ونخص بالذكر من تلك التقارير آخرها الذي صدر في أواخر شهر مايو ١٩٨٨ ، والذي كان لكبير الجراحين نفسه ، ايفريت كوب (Everett Koop)[1] ، دور فاعل في إعداده .

إنه تقرير ضخم ، يقع في ٦١٨ صفحة ، وقد اختاروا له عنوان « الآثار الصحية المترتبة على الادمان على النيكوتين » ، لأن التقرير يركز على النيكوتين وخصائصه الادمانية ، ويتحرى آثار هذه المادة على صحة الانسان ، وفقا للأبحاث والدراسات التي أجراها العلماء والمتخصصون - خمسون منهم على وجه التحديد - واستغرقت نحو عشرين سنة . هل من عجب بعد هذا إن لقي نص تقرير كبير الجراحين الأخير أكبر ترحيب من الأطباء ورجال السياسة فضلا عن العلماء وحماة البيئة لاسيما دعاة الاقلاع عن التدخين ؟

يقارب التقرير بين التبغ من جهة وبين الكحول والهيروين والكوكايين من جهة أخرى ، ويؤكد أن التبغ مادة إدمانية ، تماما كالمواد الثلاث



(١) تجدر الاشارة الى أن ايفريت كوب هذا ظهر مؤخرا على شاشة التلفاز في الكويت وغيرها في برنامج مشترك حول التدخين .

الأخرى ، بدليل أن ٧٥٪ من الذين يقلعون عن التدخين للمرة الأولى لا يلبثون أن يتراجعوا عن قرارهم ، ويعودوا إلى التدخين مرة ثانية . ذلك هو بعض ما أثبتته الأبحاث العلمية السالفة الذكر ، وقد أثبتت أيضا أن ٧٥٪ ـ ٨٥٪ من المدخنين يشعرون بالرغبة في الاقلاع ، ولكنهم عاجزون عن اتخاذ القرار الحاسم ، وذلك بسبب قوة النيكوتين الادمانية . أضف إلى هذا وذلك رد الفعل الفسيولوجي الذي يحدث للمدخن فيما لو حيل بينه وبين السيجارة ، إذ لا يلبث المدخن أن يعاني من مثل تلك الأعراض التي تصحب هبوط السكر في مريض السكر ، ورد الفعل هذا لا يقف عند مجرد رغبة المدخن في الحصول على السيجارة ، بل إنه ينطوي على تلهف مقرون بالقلق ، حتى إذا لاحت له الفرصة تلقف السيجارة وراح يلتهمها التهاما .

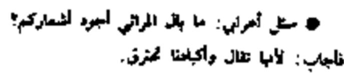
ويقارن التقرير بعد ذلك بين موتى المخدرات وموتى التدخين من حيث العدد ، فقد بلغ عدد من يموتون بسبب الهيروين والكوكايين سنويا (٦٠٠٠) نسمة ، ويبلغ عدد الذين يموتون بسبب الكحول (١٢٥٠٠) نسمة ، أما الذين يموتون بسبب أمراض مرجعها إلى التدخين فقد بلغ مجموعهم ٣٠٠،٠٠٠ نسمة أو أكثر ، وذلك وفقا لاحصاءات ١٩٨٦ في الولايات المتحدة الامريكية .

ويفصّل التقرير مجموع موتى التدخين ، ويبين أن ٢/٣ هذا المجموع (٢٠٠،٠٠٠ نسمة) يموتون نتيجة للاصابة بأمراض القلب ، و (١٠٨،٠٠٠) نسمة بالتحديد يفقدون حتفهم تبعا للاصابة بأمراض الرئة ، وما كان التقرير ليولي هذه الأرقام أي اهتمام لولا أن ثبت بالأرقام أن أكثر أولئك الموتى (٣٠٨،٠٠٠) هم من المدمنين على التدخين ، وأن هذا التدخين هو سبب إصابتهم بتلك الأمراض وبالتالي سبب وفاتهم .

ما الفرق إذن بين تلك المخدرات وبين التبغ ؟ إنه الفرق بين موت فوري كالموت الذي يحدث في ساحة القتال والموت البطيء الذي يحدث في المستشفيات ، ولكنه موت في كلتا الحالتين ، ذلك أن السيجارة تحتوي على النيكوتين بمقادير ضئيلة ، فلو أمكننا تجميع النيكوتين الذي يدخل جسم المدخن على مدى عشرين سنة من التدخين المتواصل ، وأمكننا حقن تلك الكمية المتراكمة في جسم الانسان مدخنا كان أم غير مدخن لكان لتلك النيكوتين مثل الأثر الفوري الذي للمخدرات ، ولقتلت بالحقن يحقن في جسمه حتى لو كان ماردا عملاقا .







● سئل أعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟

فأجاب: لأنا نقول وأكبادنا تحترق.

مدن الصحراء الليبية

أساطير وحقائق.. وحياة جديدة



استطلاع: سليمان الشيخ
تصوير: سليمان حيدر

سكان مدينة القاهرة وزوارها الكثر ، وقارئو تاريخها ، لاشك أنهم قرأوا على احدى بوابات القاهرة القديمة اسم « باب زويلة ».

ويبدو أن هذه البوابة وجدت في الأيام الأولى لبناء القاهرة ، عندما شرع القائد الفاطمي جوهر الصقلي في بناء المدينة منذ حوالي ألف سنة . والاسم « زويلة » له علاقة على ما يبدو ببلدة تقع في الجماهيرية العربية الليبية اسمها « زويلة ». وبقبيلة سكنت وتسكن أقطار المغرب العربي.

فكيف جاء الاسم الى القاهرة ؟ وما هي « زويلة » التاريخ والناس والواقع ؟

وما هي حكاية مدن الصحراء الليبية ودورها الذي لعبته في التاريخ .

وكيف نشأت فيها الحكايات والأساطير .. وما هي حقائق الحياة فيها الآن ؟

الوقت يقترب من الغروب ، والسيارة تنهب بنا الطريق نهبا وهي تتجه من بلدة مرزق احدى مدن الصحراء الليبية الى قرية « زويلة » التي تبعد عنها حوالي مائة وعشرين كيلومتراً ، الطريق معبد تعبيداً جيداً . مجموعة من القرى تصادفنا في الطريق ، أشجار النخيل والاعمدة الحاملة لأسلاك الكهرباء تحتل خلاء الصحراء وتباري الطريق بين فينة وأخرى .

أخذت في استرجاع ذكريات التاريخ . وتذكرت انتقال الفاطميين من بلاد المغرب العربي ليحلوا في مصر ، وليبنوا القاهرة في نهاية القرن العاشر الميلادي ، وتذكرت المد البشري المتنقل بين المشرق والمغرب ، فتحاً وتجارة وحروباً واستقراراً أو رحيلا ، تنافراً وتجاذباً .

توغلت في بحور المعلومات التي قرأتها وسمعتها ثم صحوت على صوت مرافقنا : تلك هي مشارف « زويلة ».

حمرة الشفق المطبوعة على الأفق ، وبعض الغيوم الصيفية ، أعطت للمنظر بعده الجمالي الأخاذ .

لمحت عليا ، صفوف متباعدة من زوالات كانت تحتل مساحات الصحراء القريبة والبعيدة .

اختلط في ذهني الواقع والتاريخ . أهي زوالات بشر . من حراس الصحراء يستعدون ويتجمعون كي يتجهوا الى مسيرة جديدة للفتح شمالا أو جنوبا ؟! أم هي زوالات من أشجار النخيل توزعت بين كثبان الرمال . فجاء منظرها شبيها بزوالات البشر ؟

ركزت نظري بشكل أقوى . لقد كانت مجرد أشجار نخيل حركتها الذاكرة المعبأة بصور التاريخ وحولته الى زوالات من بشر .

على الطرف ، ها نحن ندخل « زويلة ». صحت الذاكرة . واستفاق انتباه الحواس للاستماع والتسجيل والمحاورة .

« زويلة » التاريخ والواقع

استخرج عن محمد الشريف ملاحظ الآثار « زويلة » رجال حسين حفظ قصصا كثيرة عن « زويلة » قال :



● خريطة الجماهيرية العربية الليبية تظهر عليها المدن والقرى التي مرت بها بعثة «العربي».

لقد كانت «زويلة» إحدى مدن الفاطميين المهمة، ويقال إن العملة سكت فيها، وهي من بلدات الصحراء التي كانت ترتادها قوافل التجار والحجاج، وكان يحيط بها سور له ثلاثة أبواب.

وأضاف الحاج علي: يوجد في البلدة سبعة قبور للصحابة، وقلعة وبقايا مسجد قديم يدعى بالمسجد الأبيض، عمره تقريبا عمر القلعة في البلدة.

انتقلنا إلى المكان الذي توجد فيه القبور السبعة، وهي تبعد عن البلدة حوالي كيلو متر واحد. فوجدنا ستة أضرحة طينية، ارتفاع كل منها حوالي أربعة أمتار، جدرانها الخارجية مغطاة بحجارة حمراء، يبنى داخلها مبنى من الطين، أربعة منها عليها قباب، والضريح الذي يحتوي على قبرين زينت جدرانه الخارجية بأقواس منحنية.

ويبدو أنها بنيت زمن الفاطميين الذين اشتهروا بالبناء الفخم لقبور كبرائهم ووجهائهم.

حجارة التلال القريبة من المكان حمراء، وبعض بساتين النخيل تتوزع كيفما اتفق حول المكان. علق الحاج علي: إن القبور حسب ما هو متداول في منطقتنا تعود لبعض الصحابة الذين استشهدوا أثناء فتح «زويلة» زمن والي مصر عمرو بن العاص. وقد جرت ترميمات كثيرة على القبور في شتى العصور، كما جرت ترميمات كثيرة على القلعة القائمة في «زويلة» القديمة ...

سألت: هل تقصد بأن المباني الطينية القائمة على يسار الداخل للبلدة هي «زويلة» القديمة.. وما عداها هو الجديد؟

أجاب الحاج علي: هو ذلك ما عنيته، لقد احتفظ الناس والدولة بالمساكن الطينية القديمة،





● كانت مرزق مجرد محطة للقوافل من قبل، وأصبحت الآن بلدة حديثة. إنك خارج بقايا السور القديم. مبانيها وطرقاتها ومدارسها ومؤسساتها وإداراتها كلها أصبحت حديثة لا تخطئ العين والمشاهد بدرجات سويا في فصول المدارس والصورة تعكس اليوم مشهد حديث للطلاب

وبنوا الجديد . لقد كثر الناس ولم تعد البلدة القديمة تستوعبهم ، لكنهم احتفظوا ببعض مواشيهم وطيورهم وأثاثهم القديم في البلدة القديمة ، وهم يزورونها عدة مرات في الاسبوع للتنظيف ومتابعة بعض الشؤون الحياتية الاخرى .

■ هل تعتقد ان باب « زويلة » في القاهرة قد أخذ اسمه من اسم بلدتكم ؟

● أجاب الحاج علي وبعض المسؤولين في البلدة : إن ذلك صحيح تماما ، لقد كان أهل زويلة جزء من قوات الدولة الفاطمية ، وبعضهم ذهب لفتح مصر ، وليس غريبا أن يكون أحد أبواب القاهرة يحمل اسم بلدتنا .

● حدثنا يا حاج علي عن حياتكم الان ؟

- يسكن البلدة اربعة آلاف نسمة تقريبا ، ومساحتها حوالي ٧ كيلو مترات مربعة ، ويعمل معظم السكان بالرعي وفي مزارع النخيل التي تعود لهم ، كما ويعملون في بعض مزارع الخضراوات والقمح التي يعود بعضها للدولة ، وقد تم بناء مصنع للملابس الداخلية سيباشر عمله خلال فترة قريبة ، وتوجد في البلدة مدرسة ابتدائية ، واخرى اعدادية وثانوية ، كما يوجد بها مستوصف واحد .

حاضرة « مرزق »

قبل أن نتوجه بالسيارة من مدينة طرابلس « الغرب » عاصمة الجماهيرية العربية الليبية الى بلدة « مرزق » في الجنوب ، فإن هاجس قطع حوالي ألف كيلو متر بين المكانين كان يقلقني ويثير في نفسي احتمالات كثيرة ، وعلها يعود الى أن هذه المسافة الطويلة التي سنقطعها ستكون في الصحراء ، وربما يكتنف طرقها - ربما - من مخاوف ومخاطر !

إلا أن القول الذي يؤكد على المشاهدة الحية والمعايشة قد قطع قول كل خطيب ووفر حقائق طغت على كل المواجس والأوهام التي كانت في الذهن .

فهذا الطريق الطويل بين العاصمة وبلدة « مرزق » ، معبد تعبيدا جيدا ، وقليلة هي السيارات التي تسلكه وتسير فيه ، مما وفر لنا سرعة مثالية لقطع هذه المسافة الطويلة نسبيا ، ووفر لنا مشاهدة مثالية للمساحات المحيطة بالطريق .

والانطباعات التي توفرت تفيد بأن تعبير ما يسمى بالصحراء أصبح تعبيرا غير دقيق ، حيث أن سلاسل الجبال والتلال تنتشر كثيرا في الصحراء ، كما ان أشجار النخيل والطلح والاثل التي تنبت في بعض مسطحات الصحراء الخالية من العمران تشير الى ان المياه ليست غائرة في باطن الأرض ، بل هي قريبة من السطح ، كما أن بعض القرى والبلدات المنتشرة على طول الطريق ، التي توفر مياه الشرب لسكانها وحيواناتها وأشجارها من آبار الماء يؤكد أن هذه « الصحراء » لم تعد كما كانت ، وانها مقبلة على تطورات أساسية وجذرية قد تعطيها طابعا جديدا ، خاصة وان النهر الصناعي الذي يمر بأجزاء من هذه الصحراء قد تخطى مرحلة الحلم والتخطيط ، ليدخل في انجاز مرحلته الاولى ، وصولا الى المراحل اللاحقة التي ستمد الحواضر والبوادي بالمياه والخضرة والحياة .

هكذا وجدت « الصحراء » فاقدة طابعها الرومانسي الموسوم في بعض الكتب والمذكرات ، بعد أن أصبحت بعض أطرافها وتخومها معروفة ومفروشة بالمزارع وقامت عليها قرى وبلدات جديدة .

نقطع جبالا ووهادا وسهولا وصحارى ، ونصل بعد ان نقطع حوالي سبعمائة وخمسين كيلو مترا الى « سبها »

ثم نواصل السير فنمر ببعض المزارع التي تحيط بمدينة سبها حيث زراعة الحمضيات والنخيل .

ما زالت الطريق ممهدة ومعبدة بشكل جيد تخلو من الحفر والمطبات ، وما زالت خطوط



● السيد البشير صالح

الكهرباء والهاتف تحاذي الطريق . نمر بقرية صغيرة اسمها « غلدة » ، وقرية أخرى اسمها « تراغن » ، يليها قرية « الدبسة » ، وبعدها « مطالي » ، « وجيزوا » . ثم نصل إلى مرزق المدينة التاريخية المشهورة وهي عاصمة بلدية مرزق . بعد أن سرنا حوالي تسع ساعات متواصلة بالسيارة .

يجمع النخيل وبعض أشجار الصحراء كالأثل والطلح وبعض مزارع الخضراوات تلك القرى التي مررنا بها . كما أن ظاهرة وجود قسم قديم تم هجره في تلك القرى ونشوء قسم جديد يجاوره أمر يتكرر لديك . حيث أن بعض البيوت القديمة أصبحت أطلالا دارسة ، وبعضها ما زال محتفظا بأجزاء منه . ويلاحظ أن كل البيوت كانت مبنية من الطين وسعف النخيل . في حين أن الأجزاء الجديدة من هذه القرى مبنية من الاسمنت المسلح . وبعض البيوت الكبيرة مصممة بشكل جمالي جيد يشابه أية « فيلا » في أي مدينة .. إنه التحديث العمراني يصل إلى القرى والنجوع العربية .

صورة مقربة

اتخذت مدخل بلدة « مرزق » تتضح رويدا رويدا . الطريق اتسعت وأصبحت مزدوجة ، وأشجار النخيل تكاثفت ، وظهرت بنايات بعدة طوابق . وازدادت حركة السيارات

إنها « مرزق » إحدى مدن الصحراء القديمة التي كانت محطة مهمة على طريق التجارة بين الشمال (ليبيا وتونس ثم أوربا) والجنوب حيث النيجر وتشاد وغيرها من بلدان افريقية ، أو قوافل الحجيج الآتية من صحارى أقطار المغرب العربي . عن يسار الداخل للبلدة تقع عمارة ذات طوابق أربعة هي مقر بلدية « مرزق » التي يتبعها حسب ما ذكر لنا السيد البشير صالح ـ أمين اللجنة الشعبية للبلدية ـ سبعة فروع هي : (وادي عتبة) ، و (تراغن) ، و (أم الأرانب) ، و (زويلة) ، و (القطرون) و (تجرهي) تبعد الأخيرة عن مرزق ٨٠٠ كيلو متر وهي بالقرب من الحدود التشادية ، و (مرزق) نفسها .

ويضيف السيد صالح : إن السكان في هذه البلدية مترامية الأطراف يصل عددهم إلى حوالي خمسة وأربعين ألف نسمة ، بينهم عشرة آلاف يقطنون مدينة « مرزق » نفسها ويعملون الآن بالزراعة ، والصناعات الحرفية التقليدية (بعضها يعتمد على سعف النخيل) وبعض الصناعات الحديثة الناشئة (يوجد مصنع للملابس في مرزق) ومعظم مصنوعات الجماهيرية العربية الليبية هو من انتاج « مرزق » ومدينتها . ويعتمد السكان وما بحوزتهم من زراعات وحيوانات على مياه الآبار التي يظهر فيها الماء بعد حفر أمتار قليلة .

● سألت السيد صالح : منذ متى أخذ مركز « مرزق » التجاري يتدهور . وهل في النية



● فرقة (مرج) المغرب تؤدي إحدى لوحاتها الفنية الجميلة . (أسفل) نموذج من اللباس الليبي التقليدي في غدامس ومرزق

اجتيازه وبعثه من جديد ؟

- أجاب السيد صالح : من المعروف أن « مرزق » كانت عاصمة للجنوب الليبي إبان حكم الأتراك (منذ سنة ١٥٦٠ وحتى سنة ١٩١٣م) ومن الطبيعي ان يكون مقر الوالي فيها . وان تنال اهتماما مضاعفا من قبل السلطات ، خاصة وأنها كانت محطة تجارية مهمة في الصحراء .

ثم جاء الطليان والفرنسيون بعد الأتراك ، صحيح أن القوافل التجارية ظلت تتوالى في الذهاب والإياب في ذلك الزمن ، خاصة وأن الحدود لم يكن قد تم ترسيمها بشكل دقيق لكن مع ذلك فإن قيام الحروب ثم قيام الدول المعنية وترسيم الحدود وظهور وسائل نقل متطورة قد أوقف أو حد من الدور الذي كانت تلعبه مدن الصحراء في حركة التجارة ، ومن كونها محطات استقبال أو بعوث لنشر الدعوات الدينية . (لعبت مدن الصحراء دورا مهما في نشر الاسلام ، أو نشر أفكار ومعتقدات الحركات الدينية النابعة من الاسلام).

هكذا فقدت هذه المدن أو الواحات دورها تقريبا ، وأصبح عليها أن تبحث عن دور جديد ، وإذا ما سألتني عن التفاعلات السكانية فإنني اجيبك بأن حركة المد والجزر والاستقبال والهجرة أوجدت تركيبة سكانية متنوعة ، فأنت تجد في المنطقة عربا أقحاحا ومستعربين ، ومن يعود بأصله الى جذور أفريقية ، وتجد عائلات عديدة نصفها في « مرزق » ونصفها الآخر في النيجر التي تبعد عن « مرزق » ٥٠٠ كيلو متر أو في تشاد التي تبعد عن « مرزق » حوالي ٩٠٠ كيلو متر .

لذلك فإننا نخطط . بعد أن فقدنا الدور السابق . الى تحويل « مرزق » الى بلدة زراعية وصناعية . وقد قامت فعلا بعض المشروعات الزراعية وأنصحكم بزيارة مشروع مكنوسة الزراعي .





الواقع الحي

خرجنا من دار البلدية وبدأنا جولتنا في البلدة، رافقنا فيها السيد حسين عبدالقادر الشريف أمين اللجنة الشعبية للاعلام والثقافة في بلدية «مرزق». لفت نظرنا وجود قلعة قديمة فتوجهنا اليها، فذكر لنا بأن القلعة قديمة ربما يزيد عمرها على ٥٠٠ سنة، وانها بنيت زمن دولة أولاد محمد (احدى الدويلات المحلية) وبقيت مركزا للحكم زمن الاتراك والطليان والفرنسيين.

وذكر أنهم حولوها بعد الترميم سنة ١٩٨٧ الى مركز للتراث الشعبي، وكل غرفة فيها تحتوي على أدوات وصناعات معينة من المصنوعات الشعبية مثل: ملابس الأفراح، وأدوات الحصاد، والفلاحة، وصناعات القش من سعف النخيل، والنحاسيات والذهب والأدوات الموسيقية، وأعشاب البيئة، وأدوات الصيد وغيرها.

لفت نظرنا بناء مستطيل كبير أبيض اللون، وبجانبه عدة عمارات بيضاء اللون ايضا. قال لنا السيد حسين: انه مستشفى مرزق. توجهنا اليه والتقينا بالدكتور محمد جمعة أمين اللجنة الشعبية للصحة في البلدية، ومدير عام المستشفى فذكر لنا: ان مستشفى مرزق افتتح سنة ١٩٨٧ ويستوعب ١٢٠ سريرا وفيه كل الاختصاصات ما عدا الاعصاب والمسالك البولية. وانه مجهز بأحدث الادوات الطبية والعلاج فيه - كما هو التطبيب عموما في الجماهيرية مجاني - ويعمل فيه ٣٠ طبيبا هنديا وسريلانكيا وعربيا أغلبيتهم من الليبيين وكذلك هيئة التمريض.

وبعد جولتنا في المستشفى وجدنا ان عدد المرضى فيه قد لا يصلون الى نصف عدد مستوعبه.

وعندما سألنا الدكتور جمعة عن اهم الأمراض المنتشرة في المنطقة؟ أجاب بأن معظم الامراض موسمية، كالحساسية والاسهال، وامراض اخرى مزمنة كفقر الدم الوراثي، ومرض السكري وغيرها. وتستقبل غرف الطوارئ، والعيادات الخارجية حوالي ١٥٠ حالة يوميا.

عن الجهود الذاتية التي يبذلها المواطنون لانجاز بعض المشاريع، ذكر لنا السيد محمد التواتي عضو لجنة التعبئة الشعبية في البلدية، أن بعض المشروعات تم انجازها بواسطة مبادرات من قبل الناس، حيث أن الدولة توفر بعض المواد الأساسية، ليتولى بعدها الناس انجاز الأعمال، وعلى سبيل المثال فإن مائتي ألف جنيه ليبي هي الميزانية التي كانت موضوعة لانجاز احدى المدارس الابتدائية في مرزق استطاع المواطنون تنفيذها بمبلغ سبعين ألف جنيه (الجنيه الليبي يساوي حوالي ٣ دولارات امريكية)، وهناك مشروعات اخرى تم انجازها حسب هذه الطريقة منها: شق وتعبيد.

الشيد والذكريات

حيث في صبح اليوم التالي لوصولنا الى مرزق ان انفرد باكتشاف سحر الحياة بمفردي، كانت الأرض ما زالت ندية من تأثير الندى الليلي، وخيوط الشمس تتموج على الكثبان والبيوت والاشجار.

شمس عانق الاشعاعات الذهبية لخيوط الشمس وهي تتموج بحدائق النخيل، البرد قارس على الرغم من فيض تسلل خيوط الشمس الى كل الساحات.

علق رجل كبير في السن كان مارا بالطريق: عندما ينزل المطر في طرابلس وجوارها فإنه لا يصلنا منه الا البرد القارس، ومنذ ما يزيد على عشرين عاما فإن حبة مطر واحدة لم تنزل على هذه الاراضي، مع ذلك فإن درجة حرارة هذه الليلة كانت تقترب من الصفر.



● الدكتور
محمد جمعة

بدأت أفواج الطلبة والطالبات متوجهة الى مدارسهم زرافات ووحدانا .

ارتفعت تلة رملية تحيط بها حقول النخيل من جهات ثلاث في حين ان الجهة الرابعة كانت قد احتشدت بالبيوت السكنية الحديثة .

ثغاء الماعز والأغنام كان يصلني بوضوح ، حظائر الماشية كانت غير بعيدة عن المكان الذي ارتقيته .

سمعت أصوات مطارق من بعيد ، كان بعض البنائين يبنون عمارة جديدة (حركة العمران نشطة في كل المناطق التي زرناها) وغير ذلك هدوء وسكينة تريح الاعصاب والآذان ، ونادرة هي السيارات التي كانت تقطع الشارع المحاذي للتلة .

تزايدت أعداد الطلبة وهي تتجه الى المدرسة القريبة .

دق الجرس فجاءني صوت النشيد متدفقا في حناجر الصغار ، حفرا دافقا مترعا بذكريات الأمس وعنفوانها القومي : الله أكبر .. الله أكبر فوق كيد المعتدي . لقد أصبح هذا النشيد ، هو النشيد الوطني في الجماهيرية العربية الليبية .

مسيرة التعليم

عن مسيرة التعليم في البلدية حدثنا السيد ابراهيم المهدي ابراهيم فذكر انهم بدأوا بسياسة « تأنيث » مدرسات الابتدائي ، لأن الأنثى اقرب الى الطفل وأحن ، وأكثر تفهما لاحتياجاته ورغباته ونوازعه .

وأضاف انه بسبب دمج المرحلة الابتدائية بالمتوسطة ، والتركيز على تخريج أجيال مشبعة بالعلم والمعرفة العملية ، فإن الاحتياجات لمدرسي بعض التخصصات (خاصة العلمية منها) قد ازدادت ، لذلك فان عدد المدرسين العرب قد ازداد في الفترة الأخيرة ، اذ ان عددهم كان مائة وثلاثة في البلدية كلها سنة ١٩٨٥ ، في حين أن عددهم قد وصل الى مائتين وخمسة عشر في العام الدراسي ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ .

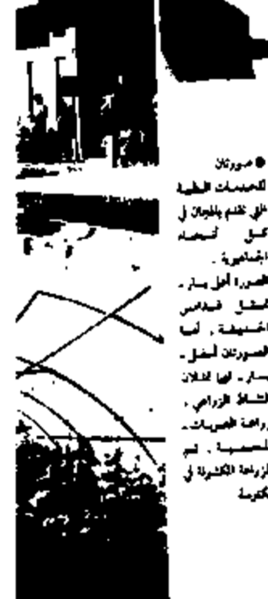
وقدم لنا احصائية تمثل مجمل اعداد الطلبة والمدرسين والاداريين في مدارس البلدية كلها وجاء في الاحصائية :

وصل عدد المدارس في جميع المراحل بالبلدية الى سبعة وثمانين مدرسة تحتوي على سبعمائة وسبعين فصلا ، ووصل عدد الطلاب فيها الى ٨٤٨٥ طالبا وعدد الطالبات الى ٨١٢٧ طالبة ، في حين أن الهيئة التعليمية من اداريين ومدرسين وصل عددهم الى ١٣٤٨ .

ويمكن الاشارة الى أن مجموع عدد الطلاب والطالبات كان ١٠٠٣٦ في السنة الدراسية ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ، والتعليم كما هو الحال مجاني في جميع أنحاء الجماهيرية ، ويدرس الطالب في نفس الفصل مع الطالبة في جميع مراحل التعليم .

في بلدة (تراغن) التي يصل عدد سكانها الى حوالي ثمانية آلاف نسمة وتبعد عن مرزق حوالي





● صورتان للخدمات الطبية التي تقدم بالمجان في كل أنحاء الجماهيرية. الصورة أعلى يسار. تمثل مدارس الحديثة. أما الصورتان أسفل يسار. فهما تمثلان النشاط الزراعي، وزراعة الخضروات المحمية. ثم الزراعة المكثفة في مكثرمة





خمسين كيلو مترا سألنا السيد عبدالقادر الصغير أمين اللجنة الشعبية في ثانوية - تكنة - الجلاء الثانوية عن سبب اطلاق اسم ثكنة بدلا من ثانوية على المدرسة .. فعلق :

إن سبب ذلك يعود الى أن طلبة الثانوية وطالباتها لم يكن يستفاد منهم في الانتاج والدفاع ، فظهرت فكرة تجييش المدارس ، وتم اقرار تدريس خمس حصص في الأمور العسكرية أسبوعيا عليهم ، بينها الدروس النظرية والعملية ، وكل الدروس تعطى بالعربية طبعا ، ما عدا اللغة الانكليزية التي تدرس في المرحلة الثانوية فقط (ثلاث سنوات).

* سألت : وهل تكفي السنوات الثلاث لاتقان الانكليزية ؟

- اجاب الاستاذ الصغير ، كما أجاب غيره من الاساتذة الذين طرحت عليهم هذا السؤال : نحن لا نضع سياسة التعليم ، إنما نحن ننفذها .

مصنع للملابس

السوق الشعبي المترب كان يجمع بالعين من ابناء مرزق وآخرين من ابناء المدن والقرى التونسية الذين جاءوا ببضاعتهم على سياراتهم الخاصة ليبيعوها في هذه المناطق النائية ، وليشتروا بثمنها من السوق الليبي اشياء يحتاجونها شخصيا ، أو يحتاجها السوق التونسي ، احتوى السوق على ملابس وأحذية وكماليات صغيرة من عطورات وأدوات زينة وحتى أبواب البيوت ، في حين أن جانبا منه احتوى على الخضراوات والفواكة الطازجة بالقرب من هذا السوق كان العمال يضعون اللمسات الاخيرة من سوق البلدة الذي بني من الاسمنت ، وتم تقسيمه وفرزه ليحتوي على مجمل قطاعات الانتاج ويسع احتياجات السكان .

* عندما سألت احد الباعة عن نوعية القمصان التي كان يبيعها والبلد الذي يصنعها ، فانه لم يتوان عن الاشارة الى المبنى الكبير المجاور الذي كان يتكون من طابقين وعلق : انه المصنع الذي يصنع هذه القمصان وغيرها .

توجهنا مباشرة الى المصنع فاستقبلنا مديره السيد عبدالسلام صالح فقال : لقد تم افتتاح المصنع سنة ١٩٨٦ ، وكان عدد العاملات والعاملين فيه ١١٣ وقد وصل العدد الآن الى ١٥٣ عاملة وخمسة عمال ، وقد تمتلك العاملات والعمال المصنع ، وتسدد ثمن آلاته وايجار المبنى على اقساط ، والمعدل الوسطي للاجرة هو حوالي ١٣٠ دينارا ليبيا في الشهر . ويقوم المصنع بإنتاج ٨٠٠ قميص وسروال يوميا (اللباس الليبي الوطني) ونأخذ رغبات وأذواق المستهلكين بالحسبان ، ونتابع احتياجاتهم وطلباتهم .

وقماش المواد المصنعة نستورده من كوريا ، كما أن آلات الخياطة مصنوعة فيها ايضا . وقد نفذ بناء وتركيب المصنع مهندسون ليبيون ، ويعمل في ورشة الصيانة مهندسون وعمال ليبيون ايضا ، وكل العاملات ليبيات .

ونوفر للعاملات والعمال بعض المزايا ، كتوزيع جزء من أرباح نهاية السنة ، وقد حصلت ١١٣ عاملة على آلات خياطة يستعملنها في بيوتهن ، كما أنه يوجد صندوق للاعانات للحالات الطارئة .

* سألت الخالية عايشة محمود حبش مشرفة صالة الانتاج عن ساعات العمل ، وقدرتها على التوفيق بين دورها في المصنع ودورها في البيت .. فأجابت :

- نعمل حوالي سبع ساعات ، من السابعة حتى الثانية وهناك نصف ساعة للراحة ، كما ونعمل حسب نظام خط الانتاج ، الذي تتولى فيه كل عاملة عمل شيء محدد في القميص أو السروال ، وصولا الى الانجاز الكامل للقطعة ، وأي تهاون أو تقصير يمكن رصده من

خلال عمل الانتاج اليومي للخط .

أما من حيث التوفيق بين عملي في المصنع وداري ليبي ، فإنني اقوم بعملي المنزلي على أكمل وجه ، وأفيدك بأنني لا اعمل بسبب الحاجة المادية فقط ، بل بسبب رغبتنا نحن النساء في ان نؤدي دورنا أيضاً في الانتاج .. لأننا ببساطة نصف المجتمع .

الصحراء عندما تخضرّ

ان تشاهد وتعايش .. هو أفضل من أن تستمع وتقرأ .. هكذا رأينا وعايشنا الجهد الانساني وهو يحول الصحراء من رمال تسفوها الرياح وتوزعها على الجهات الاربع ، الى أرض خضراء منتجة تطعم سكانها وتقيهم شر العوز والفاقة .

قطعنا حوالي ربع ساعة - بالسيارة - خارج بلدة مرزق ، ومررنا ببعض القرى الصغيرة التي قيل لنا أن إحداها (تفروتين) يسكنها أفراد من قبائل الطوارق بعد أن تحضروا ، الكثير من بيوتها مبنية على طريقة (الفلل) من حيث الفخامة والحجم ، طرقها معبدة ، وتحيط بها أشجار النخيل والطلح والاثل .

ثم تابعنا المسير لمدة ساعة اخرى حتى بدأت تلوح لنا بعض أطراف الصحراء المخضرة ، قال مرافقونا .. إنه مشروع (مكنوسة) الزراعي .

استقبلنا المهندس ابراهيم نظيف مدير المشروع ونقل لنا المعلومات التالية :

اعتباراً من سنة ١٩٧٨ تم التفكير بإقامة مشروع لانتاج الحبوب في المنطقة ، وبالفعل فإنه تم مسحها ، وحفرت أبار المياه ، وباشرنا بالزراعة وكانت النتائج جيدة جداً وتبلغ مساحة المشروع حوالي عشرة آلاف هكتار الآن .

وقد زرعنا في ١٩٨٨،٢٤٠٠ هكتار قمح ، و ٤٠٠٠ هكتار شعير و ٣٢٠ هكتار برسيم ، ومائة هكتار بازلاء ، واستوردنا حوالي ١٦٠٠ رأس من الغنم مختلفة الأصناف تمهيداً لاقامة مزرعة مواشي ، ونفكر بإقامة مزرعة دواجن ، ونزرع مساحة من الأرض تكفينا من الخضراوات .

يعمل في المشروع حوالي ٢٠٠ عامل معظمهم من أبناء المنطقة ، وقليل من بينهم أيد عاملة فنية من الأقطار العربية .

ومعظم بيوتهم قدمها لهم المشروع ، وفي المشروع ٩٠ بئراً ارتوازياً والري والسقاية (بواسطة الرش الآلي) والحرث والزراعة والحصاد تتم بطرق آلية ، ما عدا القليل منها كجني حبوب البازلاء مثلاً ، وأعمق بئر بين الآبار يبلغ ٦٠٠ متر ، وأقلها عمقاً حوالي ٢٥٠ متراً ، والمعدل الوسطي للاجرة يصل الى ٢٠٠ دينار ليبي ، ويوجد في المشروع مختبر فني يتولى قياس نوعية التربة واحتياجاتها وفحص مياه السقاية ، وفحص النبات وما يلحق بها من تغيرات أو تطورات ، كما تملك طائرات خاصة تقوم بالرش لمكافحة الآفات .

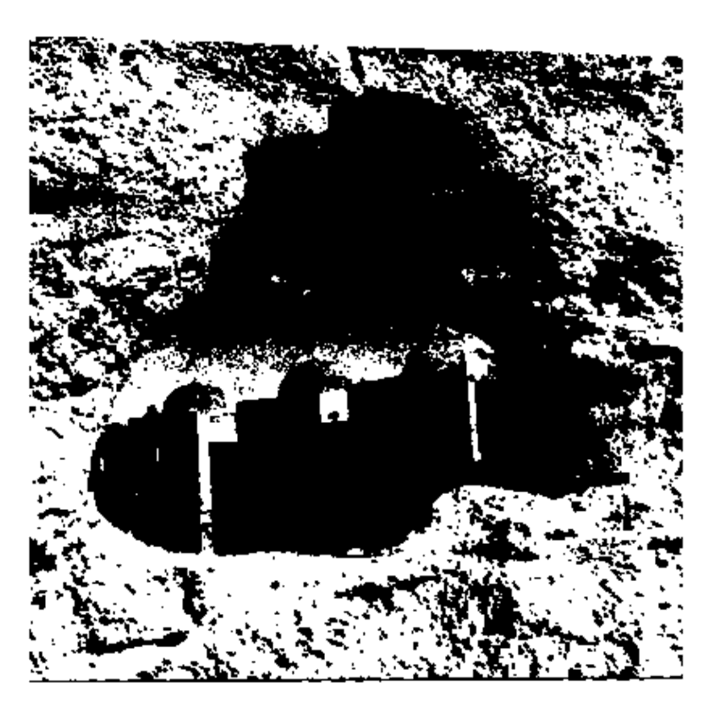
والمشروع مسير ذاتياً من قبل العاملين فيه ، ووصلت انتاجيته من القمح ١٣ الف طن سنة ١٩٨٨ .

ويقوم عمال المشروع بنشاطات عدة تقرب الصلات بينهم ، وكلهم أعضاء في اللجان الشعبية (العمل السياسي في الجماهيرية يعتمد على اللجان الشعبية الموجودة في جميع وحدات العمل وفي الأحياء والمدارس وغيرها) .

غومة المحمودي في درج :

كان علينا أن نقطع مرة اخرى حوالي ١١٥٠ كيلو متراً من (مرزق) حتى نصل الى (غدامس) . ولكن كانت (مرزق) محطة وعاصمة من عواصم الصحراء في الجنوب ، فإن (غدامس) كانت محطة وعاصمة من عواصم الصحراء في الشمال الغربي .

بعد أن انتهينا من زيارة مشروع مكنوسة الزراعي مررنا (بوادي الأجال) الذي تحول



اسمه الى (وادي الحياة) ورأينا ما يزخر به من مزارع نخيل ، وحمضيات وخضراوات ، ثم مررنا (بسبها) ثانية ، ومررنا بطريق (الشويرف) ثم (القريات) ، ومنها سلكنا الطريق الجديدة المعبدة تعبيداً جيداً ، ولم يتم افتتاحها بشكل رسمي بعد ، متوجهين الى (غدامس) .

وصلنا الى قرية (درج) بعد أن قطعنا ما يزيد على ٣٠٠ كيلومتر من القريات (تبعد القريات عن مرزق حوالي ٧٠٠ كيلومتر) وهي تبعد ـ أي درج ـ عن (غدامس) حوالي مائة كيلومتر فقط .

التقينا في درج بالسيد الدريس احمد موسى امين المؤتمر الشعبي لفرع غدامس ، والسيد الطاهري ابو زيد طاهر امين المعدل في فرع غدامس وتوابعه (وهما من درج) ومن المعلومات التي ذكراها عن درج ، اسجل التالي : عدد السكان فيها يصل الى حوالي خمسة آلاف نسمة ،

يعملون بزراعة النخيل والخضراوات والرعي في الوقت الحالي ، بينما كان الكثير منهم من قبل اما رعاة ومالكي ماشية ، أو مرشدي قوافل وتجاراً حيث أن درج كان لها دورها وموقعها في خريطة القوافل التجارية منذ قديم الزمان .



● أبدو للصحافة كما يذكر أمثال (ذبابة) مع ليلى

ثم ساحة البلدة القديمة ومدخلها ، لاحظ انعكاسات الضوء على أشجار النخيل في خلفي .

●

وتبعد مقبرة المناضل الليبي غومة المحمودي حوالي ٦٠ كيلومتراً عن البلدة ، وقد لعب هذا المناضل دوراً بارزاً في مقاومة الاحتلال التركي لليبيا ، وقد اتخذ من درج مقرا له في فترة من الفترات ، كما كانت البلدة قاعدة لمقاتلي جيش التحرير الجزائري اثناء معارك التحرير في خمسينات هذا القرن وأوائل الستينات ضد القوات الفرنسية .

ومن الآثار اللافتة للنظر في البلدة ، وجود ما يسمى بقصبات ذياب وهي بقايا قلاع يقال بأن بانيها هو ذياب الهلالي اثناء هجرة قبائل بني هلال من الجزيرة العربية وتوجههم الى مصر وبلاد الشام ثم الى اقطار المغرب العربي في القرن الحادي عشر الميلادي ، كما يوجد في البلدة منابع مياه تمتد عدة كيلومترات أسفل البلدة ، لا سيما القديمة منها . ويوجد بالقرب منها مياه جارية لا تنقطع في الصيف ولا في الشتاء ، ويعتقد أنها ناتجة عن مجموعة من ينابيع المياه القريبة من بعضها البعض .

هذا ويوجد في البلدة مصنع للتمور .

ونظرا لتوافر موروث تعبيري متعدد ومتنوع وغني في البلدة فقد أنشئت فرقة درج للفنون الشعبية رسميا سنة ١٩٧٧ ووصل عدد أفرادها الى حوالي ٤٠ فردا بين عازف وراقص .

ومعظم الرقصات هي استجابة لحاجات اجتماعية كانت سائدة بين الناس من قبل : كرقصة الحصاد ، والربيع ، والاستسقاء ، والرحلة ، والفلاحة وغيرها . ولكل رقصة ملابسها المتوافقة مع حاجات وصفات مؤديها مع تطوير بسيط ، وهم يستعملون آلات شرقية ، كالقانون والعود والكمان والطبلة والطار والدف وغيرها .

وقد قدمت الفرقة أثناء تواجدنا في البلدة ثلاث رقصات هي : الصحصا - الكسكي - ورقصة الفلاح ، ورقصة الاستسقاء والرقصة الاولى تعبر عن أجواء الفرح اثناء اقامة مراسم الزواج ، في حين أن الاخيرة تعبر عن طلب الغوث ومن كلماتها :

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا
ارحم عبيدا أكف الفقر قد بسطوا

فواكه الصحراء :

تغادر درج وتلتف الطريق حول مجموعة من تلال . لنواجه بعد أقل من كيلومترين قرية صغيرة اسمها (ماترس) تلتف حولها أشجار النخيل ويظهر فيها قسم القرية القديم محاذيا للقسم الجديد .

تتوالى بعد ذلك مظاهر الصحراء التي تقطعها بين فترة وأخرى تلال جرداء ، أو تلال الرمال الناعمة التي تكونت بفعال هبوب الرياح الشديدة .

تصادفنا بعد ذلك اسلاك واسيجة ، تمتد لمسافة طويلة ثم يظهر مبنى حجري وسط المساحة الواسعة المسيجة ، انه مطار (غدامس) الذي يبعد عن البلدة حوالي ثمانية عشر كيلومترا .

رؤوس أشجار النخيل العالية والاعمدة الحاملة لأسلاك الكهرباء والهواتف أخذت تظهر وتتزايد ، تقترب من مطار صغير آخر بالقرب من بوابة البلدة ، إنه مطار الطيران الزراعي والخفيف ، الهليكوبتر ، الذي يستعمل احيانا لرش المزروعات ، أو لنقل الحالات المرضية الطارئة الخطرة .

ثم يتفرع الطريق الى اتجاهين واسعين ، وتظهر اعمدة النور على الجانبين . الجانب الايمن من الطريق تحفه المزارع - نخيل وخضراوات وفواكه ، نعم فواكه - فقد شاهدنا أشجار حمضيات ، وتين ورمان وعنب ولوز وغيرها - كما وشاهدنا أيضا حقولا مغطاة - صوبات - قيل لنا بعد ذلك إنها مزروعة بأنواع عدة من الخضراوات .

تظهر كتل متراصة بيضاء من المباني التي تبدو خالية من السكان ، اسمع تعليقا : تلك هي البلدة القديمة .. أعلق : إنها واسعة وكبيرة ،



● السيد الخضيري
أبو زيد طاهر

ومبانيها ما زالت صالحة للسكن البشري !

علق مرافقنا : دعنا نترك الامر لمن يمكنه ان يفيدنا في هذا الامر .

التقينا بمجموعة من مسؤولي أمانات المؤتمر الشعبي لفرع (غدامس) فرافقنا السيد أحمد مالك امين اعلام (غدامس) في جولة بالبلدة وحولها ، فذكر لنا أن (غدامس) تقع في جنوب غرب مدينة طرابلس على بعد حوالي ٦٣٠ كيلومتراً مبا . وأن البلدة تبعد خمسة عشر كيلومترا عن الحدود الجزائرية . وثمانية كيلومترات عن الحدود التونسية . لذلك فان حركة الناس بين الاقطار الثلاثة ، متواصلة وكثيرة وربما تعود بعض أصول العائلات الى هذا القطر او ذاك . وذكر أن عدد سكان البلدة يصل الى حوالي ثمانية آلاف نسمة ، وانها خضعت كالكثير من البلدات والمناطق لقوى كثيرة غزت القطر الليبي كالرومان والنورمانديين والاتراك والايطاليين والفرنسيين وغيرهم . لكنها في كل هذه العهود كانت مستمرة في لعب دورها كمحطة لقوافل التجارة ، وكذا ما كانت (مرزق) محطة بين القوى التي كانت مسيطرة على الساحل الجنوبي من البحر المتوسط وبين النيجر وتشاد وغيرهما من بلدان ، فان (غدامس) كانت محطة بين هذه القوى ، وبين مالي ونيجيريا وغيرهما من بلدان أيضا ، غير محطة أقرب الى هذين البلدين هي واحة (غات) الليبية التي يعتقد بأن نصف سكانها تعود أصولهم الى (غدامس) نفسها .

وذكر السيد مالك أثناء جولتنا حول البلدة انه كان يحيط بالبلدة سور قديم ـ شاهدنا بعض بقاياه ـ فيه أربعة ابواب ، وان الاسم القديم للبلدة حسب المصادر الرومانية هو (سيدا موس) ، وانه يوجد فيها بقايا معبد قديم مبني من حجارة صغيرة وطين اسمه (تمسودين) ، ورأينا تمثالين قديمين بالقرب من مقبرة البلدة ، قيل لنا انهما من بقايا الآثار الرومانية مع أنهما مبنيان من حجارة صغيرة وطين ولا يمكن ان يصمدا طيلة هذا الزمن الطويل ! وذكر السيد مالك ان منطقة (الظهرة) التي تقع غرب البلدة كان يسكنها بعض قبائل الطوارق .

غذاء أمس :

تواعدنا للالتقاء عند العصر بالحاج احمد قاسم صوى وهو شيخ عمره حوالي ٧٨ سنة ، وهو مؤرخ المدينة الشفوي الذي يحفظ حتى تواريخ الأيام المهمة في حياة البلدة (يتكلم العربية والفرنسية والايطالية وبعض الانكليزية والبربرية طبعا ـ وقليلا من إحدى لغات نيجيريا) الشمس كانت محاصرة بغيوم بيضاء ، واشعتها كانت تتسلل بين فترة واخرى لتعانق رؤوس أشجار النخيل العالية ، بياض البيوت القديم كاد يلمع تحت خيوط الشمس .

كنت استعجل الحاج أحمد كي يطلعنا على خبايا وخفايا ما يعرفه عن البلدة القديمة ، قبل أن تغرب الشمس وتحل العتمة .

بدأ الحاج احمد يسرد المعلومات : هنا كان

● صنع الأحذية
[illegible] صنع
[illegible] جملة ، ثم
[illegible]





مراح القوافل .. وهذه هي سواقي المياه التي كانت تشرب منها . وتلك نخلة يتجاوز عمرها أكثر من ٣٠٠ سنة .

وصلنا في جولتنا الى عين ماء جف ماؤها .

علق الحاج احمد : هذه هي عين الماء الوحيدة التي كانت تقوم عليها حياة البلدة ، وقد ذكرها المؤرخون عندما كتبوا عن البلدة . أي أنها قديمة قدم البلدة ، وقد توقف ماؤها عن التدفق منذ سنة ١٩٧١ ربما من كثرة ما تم نزحه منها .

سألت : ما هي حكايتها ، وما الذي يذكره موروثكم عنها ؟

- اجاب الحاج احمد : انها عين فرس ، وما هو موجود في موروثنا الشفهي والمكتوب عنها يفيد ما معناه : بأن بعض الفرسان مروا بمكان البلدة ، ومصادرنا تنسبهم الى ملك اليمن ذي يزن - فيما تنسبهم مصادر اخرى الى النمرود بن كنعان - ولانهم استطابوه ، فجعلوا التحول وجهة الغناء فيه ، ثم واصلوا سيرهم بعد ذلك . لكنهم افتقدوا في اليوم التالي غرضا من أغراضهم ، فخمنوا انهم ربما نسوه في المكان الذي « نفلوا فيه أمس » فعاد فارس منهم الى المكان فعطشت فرسه ثم ضربت الأرض بحوافرها ، فتفجر الماء ، ومن يومها عرف المكان « بعين فرس » وعرفت البلدة « بغدامس » . .. واستمرت عامرة بسكانها حتى سنة ١٩٨٢ ، وكانت تنقسم الى عائلتين : بنو وليد ، وهي بدورها تتفرع الى ثلاثة تجمعات هي : درار ، تمكبر ، وتانغ ، والثانية بنو وازيت وتتفرع الى اربعة تجمعات هي : تفرفرة ، تنزين ، جرسان ويلليل ، وكل هذه التجمعات كانت داخل سور البلدة . وكان يوجد خارج سور البلدة تجمع ثالث للطوارق في محلة « الوفاس » .

جولة في البلدة القديمة :

تابعنا جولتنا في البلدة القديمة وتابع الحاج احمد رواية تاريخ هذا المكان لو قال . (السكيك) أو طرق البلدة ضيقة جداً لا يتجاوز عرض بعضها متر أ واحداً ، وبعد مسافة معينة فإن الطريق يتسع ويفرج عن ساحة كانت تمثل ملتقى لأبناء الحي حيث يقيمون افراحهم واتراحهم ، ومعظم الطرق مسقوفة وغير مكشوفة ، يأتيها النور والهواء من بعض الفتحات والفراغات التي كانت تترك بين حي وآخر ، او بين مجموعة واخرى من البيوت ، ضمن هندسة دقيقة موزعة توزيعا فنيا .

دخلنا أحد المساجد فذكر الحاج أحمد انه المسجد العتيق وقد تم تأسيسه في عام ٤٤ هجري ، الموافق ٦٦٨ م ، أي في نفس العام الذي فتح فيه عقبة بن نافع البلدة ، وقد تم ترميمه عشرات المرات ، ويوجد عشرات المساجد داخل البلدة ، وما زال المصلون يؤمونها يوم الجمعة ، وفي الاعياد .

وصلنا الى بيت كان قد سبقنا اليه بعض مرافقينا فارتقيناه وصعدنا درجاته الضيقة ، حتى وصلنا الى « مربوعته » اي الى وسطه . كانت رائحة البخور قد عبقت في المكان ، وبدأ أحد المرافقين بالتعريف بمحتوياته فذكر : انه البيت النموذجي الاثري في « غدامس » ، اسس سنة ١٩٣٦ للابقاء على الصورة التقليدية للبيت الغدامسي ، كما تم توارثه . هنا المخزن ، وهناك دار الرجل مع أبنائه ، وغرفة المرأة وبناتها ، هذه ملابس العروس ، ومعه ادوات الزينة ، وادوات الاضاءة ، وجرار وأواني وصناديق وسجاجيد وحصير .. انبعثت رائحة مكونات الماضي وتجسدت تماما .

علق الحاج احمد : ذلك ما كان ، إنه الماضي ولقد كثر الناس ، فكيف لبلدة لا تتجاوز مساحتها سبعة كيلومترات مربعة أن تستوعب السكان الذين تزايدوا كثيرا ؟

خرجنا من البيت بعد أن لفت العتمة الجوار ولم يهدنا الى طريقنا الا بعض الأضواء القليلة التي بقيت في بعض الأماكن بالبلدة القديمة .

والجليد :

على الرغم من خلو السماء من أية غيمة في صباح يوم (١٥/١٢/١٩٨٨) وكانت ملبدة بالغيوم في مساء اليوم السابق ، وعلى الرغم من شروق الشمس وتسلل خيوطها الى الأرض وما يدب عليها ، مع ذلك فإن البرودة الصقيعية بقيت سائدة الى درجة اننا اضطررنا لاستعمال المياه الدافئة كي نذيب الجليد الذي وجدناه منتشرا على زجاج السيارة

التقينا بمسؤولي أمانات التعليم والصحة ، والعدل (الامن) والزراعة في البلدة واستمعت وناقشنا المعلومات التي أوردها كل مسؤول .

عن مستشفى غدامس المركزي الذي قمنا بجولة على معظم اقسامه برفقة مديره الدكتور محمد فايز عبد الله هيبة ورئيسة الممرضات فيه ، المصرية الليبية السيدة شريفة واليوغسلافية السيدة ايلا .

ذكروا لنا : لقد تم افتتاح المستشفى سنة ١٩٨٤ ويحتوي على ١٣٤ سريرا . وجدنا أن نصف هذه الأسرة قد شغل فقط ، وانه يوجد في المستشفى معظم التخصصات ، وان الهيئة الطبية مكونة من أطباء عرب (ليبيون وغيرهم من الاقطار العربية) ويوغسلاف ، وهنود ، كما ان الهيئة التمريضية مكونة من ممرضات يوغسلافيات وعربيات ليبيات . وان معظم الأمراض السائدة هي ارتفاع ضغط الدم ومرض السكر وامراض العيون خاصة عند سكان البلدة القديمة ، ويراجع العيادات الخارجية حوالي ٢٠٠ مريض يوميا . وتوجد في المستشفى أحدث آلات التشخيص والعلاج والفحص والمختبرات .

وان العلاج مجاني تماما مثل التعليم ، وان جميع المراحل بلاد في المستشفى ، وذكر لنا

السيد قاسم مانع أحد مسؤولي قطاع الصحة انه يوجد مستوصفات متخصصة في البلدة ، كمستوصف الصحة المدرسية ، ومستوصف صحة المجتمع ، ومركز الأمومة والطفولة ، ومركز الرعاية الصحية الأساسية .

وذكر لنا السيد مفتاح عبد القادر ضوى أمين اللجنة الشعبية للتعليم بأنه تم تغيير مناهج التعليم حيث ادمجت المرحلة الابتدائية بالمتوسطة ، وأطلق عليها كلها مرحلة التعليم الأساسي (من الاول حتى التاسع) ويتم التركيز فيها على العلوم التقنية والفنية .

ثم ذكر لنا السيد محمد احمد رشيد امين قطاع الزراعة عن الحيازات الزراعية في الفرع ، بانه يوجد ١٠٥٥ حيازة زراعية وانها تنقسم الى اراضي مروية وبعلية (مساحتها ٦٦٤ هكتارا) وان الاعتماد الكلي في الشرب والسقاية يقوم على الآبار ، وان عدد أشجار النخيل قد وصل الى ٢٢,٩٠٨ نخلة ، هذا عدا الاشجار المثمرة الاخرى ، وانه يوجد توجه لاعتماد الزراعات المحمية ـ الصوبات ـ .

توجهنا الى سوق المصنوعات الشعبية بعد لقائنا بمسؤولي أمانات الفرع ، وهو مواجه لقلعة البلدة التي ما زالت محتفظة جيدة (كانت تخضع للترميم من الداخل أثناء زيارتنا للبلدة) فذكروا لنا ان بانيها هم الايطاليون الذين دخلوا المنطقة منذ سنة ١٩١٣ واخرجوا منها عدة مرات الى ان استقروا فيها اعتبارا من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣٤ ، وحل مكانهم الفرنسيون الذين بقوا فيها حتى سنة ١٩٥٧ .

وسوق المصنوعات الشعبية يحتوي على عدة محلات مملوكة للحكومة ويقوم الصانع فيها بدفع مبلغ رمزي (٥ جنيهات ليبية في الشهر) والمكان أو الدكان يصنع فيه الصانع صناعته ويعرضها للبيع في نفس الوقت . وأهم الصناعات في السوق هي صناعة الجلود وصياغة الذهب والفضة ، والفخار ، والحصر ، والأطباق والقبعات (من سعف النخيل) .

وقد ذكر لنا الحاج محمد بلو ٧٢ سنة الذي يعمل بصناعة الجلود انه اخذ المهنة عن والده الذي اخذها بدوره عن والده ايضا ، وذكر انهم يستوردون الجلود من طرابلس او بنغازي في حين ان القسم المطرز او المنقوش من مادة الجلد يقوم بعمله ناس متخصصون في (غدامس) ، وهم يعتمدون على نقل نقوش متوارثة او يلجأون الى ابداع نقوش جديدة ، وهذا ما يتم بالنسبة للذهب والفضة .

التفاؤل بالغربان :

قبل ان نغادر « غدامس » رأيت بعض الطيور السوداء ـ الغربان ـ تطير ثم تحط على رؤوس اشجار النخيل ، فسألت الحاج احمد قاسم ضوى ماذا يمثل الغراب في موروثكم الشعبي ؟

ـ اجاب : انه طائر من الطيور .

نقلت السؤال الى مرافقينا الاخرين : فذكروا لا يوجد معنى خاص لحضور هذا الطائر حسب اعتقاداتنا

● علقت : ألا يمثل رمزا للتشاؤم عندكم ، خاصة وانه يمثل ذلك في بعض الاقطار العربية ؟

ـ اجاب مفتاح احمد : إنه لا يمثل اية صورة من صور التشاؤم في موروثنا ، بل إن بعض القوافل في الصحراء تستدل اذا ما رأته على انها أصبحت قريبة من الواحات او من العمران .

علقت مازحا : وهل يمكننا أن نسافر على الرغم من ملاحقة الغربان لنا ؟

ـ انفجر الحاج احمد ضاحكا مع مرافقيه الأخرين وعلق : لو كنا نعرف ان للغربان مدلولا تشاؤميا عندكم ، لكننا وجهنا الكثير منها نحوكم ، فلكم تبقون في ضيافتنا لمدة أطول .

ضحكنا وضحك الجميع ، وكان وداع وجاءتنا الأصوات مجتمعة : رافقتكم السلامة .. رافقتكم السلامة . ◻

النحنحات

إبراهيم صموئيل

لم يكن سعاله الذي تناهى إليّ من الزنزانات الداخلية عبر البهو المعتم الضيق، ليثير اهتمامي بأكثر مما يفعله وقع انصفاق باب أو سقوط وعاء رنان على أرض صلبة. لولا أن ما تلا بدّل معنى الحادثة العابرة، ثم أكد دلالتها!

فجهير السعال الذي تدفق من جوف البهو، حاداً متتابعاً، انتهى - صدفة - نوبات سعال متقطعة، أقل حدة، ما كادت تهدأ حتى تلتها نحنحتان: «إحم.. إحم» [illegible] في [illegible]، ليس فيهما أثر لسعال حقيقي كأنهما تصدران عن فم لا من جوف أو حلق.

فجربت - تلقائياً - نحنحة قصيرة مفخمة متسائلة: «إحم؟» [illegible] نحنحة مماثلة، دون تفخيم، مفعمة [illegible] وقصد، وكأنها ترد تحية بتحية!

[illegible] في رأسي: من يكون؟ وماذا يريد من نحنحته؟ أيحرر؟! هل هي إشارة منه [illegible] معتادة؟ [illegible] من باب زنزانتي [illegible]. ورحت أتمتم في دائرة الضوء الصغيرة: [illegible]. أعدت [illegible]، وأنصت معه، لأتأكد أكثر، فتحنحني يؤكد لي [illegible] نحنحة كرة، [illegible]، [illegible]!!

فجأة، كبرت الزنزانة. كأن النحنحات صدعت جدرانها، فانسلت حزم ضوء إلى هذا الظلام الصامت. فرحت بالضوء، وخفت أن يخبو فصمتُّ صامتاً، فصمت كأنه ينصت!

وأمسكنا اللعبة، هو من طرفها الذي ينتهي بي غالباً من تلك الزنزانات القابعة في جوف البهو، وأنا من الطرف الآخر في زنزانتي التي تواجه مدخل البهو.

وعبر المسافة المجهولة الظلماء بين زنزانتين رحنا نشد، من وقت لآخر، حبال النحنحات. أرقب السجان وأنحنح، فيخشى ويتنحنح، ونواصل لعبتنا التي [illegible] هذا القاتم من الصمت. [illegible] هذه اللعبة [illegible] هو أيضاً [illegible] متطابق [illegible]. [illegible] وحدتي [illegible] منفرداً، وربما فعلت ذلك معه أيضاً.

ومضت أيام غير كثيرة لونت فيها وحدته وحدتي، وصارت روحه نصيفة روحي. ومن كان [illegible] مجرد كسر [illegible] حياتي، صار شاغلاً حنوناً. [illegible] مدهشة في أيامه القاتمة [illegible] حنون. ونواصلا يروي القلب الذي جففت الجدران المكتومة [illegible].

ولم أكن أدرك أي جرح عميق معه يجمعني



خلف الأصوات ، حتى عشت تلك الأيام من النحنحات مع صديقي المجهول . فمن نحنحاته عرفت أحس بهمومه وبهجاته وأحزانه . من تهدجها أو رخاوتها . من انقطاعها أو ترددها ، من صدورها محزوزة مجروحة أو قوية مشبعة ، من الآه أو الآخ التي يطلقها آخر النهار .

وبسبب الحظر المشدد على أي كلمة أو نداء من المعتقلين ، لذنا حيلتنا وطابت ! فرحنا ننوع أصواتنا ونبحث عن مفردات جديدة نضيفها إلى « لغتنا » المكتشفة .

أشركنا التثاؤب الطليق الصاخب للتعبير عن ملل أو الاعلان عن رغبة في النوم ، واكتشفنا العطاس القوي ليوقظ أحدنا الآخر ، حتى أننا أدخلنا المزاح أيضا إلى لغتنا الخاصة الجديدة !

كنا ، بعد كل توزيع للطعام ، نتسابق في إطلاق نحنحتين مطوطتين مفتاجئين إيحاء للآخر بأن نصيبه الذ وأوفر ! وغالبا ما كان يسبقني في التنحنح ، فأغتاظ وأبادله نحنحتين مثيلتين لا للذة في وجبتي أو وفرة فيها ، بل لأرد له الصاع وأغيظه أيضا !

ومنذ أيام قليلة ، قبل أن يحدث ما حدث ، كنت أحاول أن أراه . أن أوسّع الثقب ، وأتفق معه بنحنحة مشيرة على لحظة خروجه ، وأراه . فلم يبق من صداقتنا ما نتوق إليه إلا العيون . لأننا بتنا معا . كأنه يكتفيين نجمعهما زنزانة واحدة دون أن ندريا . وبتنا إن تأخر أحدنا أو تلكأ ، تنحنح الآخر مجبرا ، وإن سها ، وقلما يسهو ، تنبهه نحنحة عاتبة !

هل سهوت يومئذ عن النحنحة . بشارة الأمان ؟! هل تأخرت في المراقبة وطمأنته ، حتى بادرني بإطلاق نحنحات عاتبة غاضبة ؟ !

لم أتنحنح حين سمعت نحنحاته ، بل عاجلت إلى سحب المسمار والتطلع من الثقب . ففوجئت بالسجان منحنيا يتلصص ، وقد توارى معظمه خلف باب البهو وارتعدت فرائصي ! ظلت نحنحات صديقي تعلو وتتلون وتتغير . عاودت التطلع .. فلمحته يخطو منحنيا متلصصا . دفعت حنجرتي لتتنحنح ، فأحسست بها خورا ! حاولت وحاولت ، ولكن الدوران المجهول لمفاتيح السجان سبقني في كتم نحنحات صديقي . ثم ، كما يخفق ثوب على جثمان ، دوّت ارتطامات اللحم على اللحم ! أزت ، وتلاطمت ، وتتابعت ، ثم ران ما يشبه النشيج أو الشتيمة على حيني !

أب السجان . ومع كل خطوة كان يؤوب بها ويناى ، كنت أتزلزل في رعدة ألم حزين وأجف بعدها ، وأن صمت . صمت لم أسمع مثله يوما منذ دخلت الزنزانة . كززت على أسناني وأنا أنهض من وجعي الأليم نحو الثقب : دائرة ضوء فارغة . بلعت ريقي ، وتنحنحت ، ارتطمتْ النحنحات بالصمت وارتدت ! أطلقتُ نحنحتين مثلهما . ثم أعدت ، لم يجبني ! كررت راجيا ، فأحسست بنحنحاتي تتهاوى واهنة ضعيفة . عاودت مثلها ، ثم مثلا ، ثم مازحا كما في أوقات الطعام ، غير أن صوتي بدا أشبه بنباح جرو وليد لفحه الجوع والزمهرير ، جرو يصوت في جو معتم ضيق ، فلا يسمع غير رجع صداه الخوّار المفرد !

وكما تطبق قوقعة على جسمها ، انسحبت حزم الضوء من زنزانتي ، وأطبقت جدرانها على جسدي البارد ، البارد . □



أعطني اللهم الصفاء لنفسي لي أن أقبل ما لا يمكن تغييره، وأعطني الشجاعة لأغير ما لا يمكن تغييره، وأعطني الحكمة لأفرق الواحد عن الآخر.

ارتديت الحريق

شعر :
محمد عثمان كجراي *



اسقوانا معاً في الصباح الطريق
فارتديتُ الحريق
وظللتُ اسائلُ :
هل للبنفسج في عطره كل هذا الرحيق ؟
أوقفتني على ساحة الوجد من قبلها نظرة ضارية
ثم دار الحديث بومض العيون
يا للهوى حين يرقص في حلقة الشوق
أن تتحدث باللغة الجارية
الفواصل كانت على ملمح العشق مطروحة عارية
كنت مغتربًا بالشوق
في بساط الطبيعة بالعطر الأبدية
حين يطلق العشق لابد أن تتناسل كل الحروف
تومي لقبلتي
تنهض الرغبات تعبيره على ساحل الأبجدية
آه بالمرأة في الحنايا هنا عارها
للمشاعر حين تضج الصبابات أسرارها
للعواطف حين تضيق الساحات
في حلقة العشق اشعارها
للحدائق أزهارها
للمرافئ أعيادها
للشمائل أسمارها
للصبية أسوارها
كيف تمشين مسحورة في دمائي ؟
وتمضين مطبوعة في كهوف اشتهائي
ها أنا من جراح عينيك مستهدف
والحرائق ضجت بأوردتي
صادري كل حريق
ارتديت جروحي
قلت : يا حلوتي
اسقوانا معًا في الصباح الطريق
فارتديتُ الحريق
ها أنا أتساءل : هل للبنفسج في عطره كلُّ هذا الرحيق ؟
ولعشقي شفاهك كلُّ هذا البريق ؟

* شاعر من القطر السوداني



صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

مارس ١٩٨٩

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هـــذا العدد

- استطلاع عن الفرانك.
- همام .. "قصة بالرسوم".
- دعوة لزيارة مدينة "لندن".
- عندما انهار السد "مسلسل تاريخي".
- فات الرحلة "الحلقة الثالثة".
- قصة الخيال العلمي "خطأ بسيط".

إضافة للأبواب الثابتة

- استراحات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات
  الكتاب الصغير والمكتبة الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير

نتيجة مسابقة العدد ٣٦

● عندما يتعب الأطفال صاغرين.

○ بعضهم يعاني من شرب الحليب.







حائرين!

إعداد: ريم الكيلا

يقول جان جاك روسو « إن أفضل الظروف لنمو الطفل هي البدائية الساذجة التي يجمع فيها الفرد خبراته بنفسه ، ويكون شخصيته ، ومعتقداته الساذجة وفق ما يتهيأ له من ظروف بصورة عفوية » .

قد يسحرنا في البداية جمال هذه الفكرة ، وما فيها من تأكيد على الحرية ، لكننا إذا أمعنا التفكير ، نكتشف أن حياتنا المعاصرة لا تتسع لهذه الرومانسية ، فهناك البيت ، وهناك العائلة ، وهناك المجتمع الخارجي .

وحين يكتسب الطفل مجموعة من الخبرات والسلوكيات ، فإنها تكون صدى لمفاهيم وأفكار العائلة والمجتمع الذي يعيش فيه ، وبين العائلة والمجتمع مسافة يقطعها الطفل أثناء رحلته لتكوين شخصيته وآرائه وأفكاره ، ولا تتساوى حاجة الطفل للحب والحنان والعطف من جانب والديه أي حاجة أخرى ، لهذا فإنه يسعى باستمرار لتنفيذ كل ما يرضي والديه مبتعداً عما قد يغضبهما ، ليحظى دائماً بهذه العلاقة معهما ، وقد يضغط الطفل على نفسه أحياناً ، وقد يقوم بسلوكيات من شأنها تقليل قدرته على مشاركة من حوله من أصدقاء أو أقارب ، سواء في اللعب أو في تكوين علاقات اجتماعية سوية ، وفي الغالب يكون ذلك خوفاً من فقدان حب الأهل وحنانهم ، ولكنه بذلك إنما يفقد ثقته بنفسه بالتدريج ، وقد يتطور الأمر ليصبح عاجزاً عن إثبات نفسه وتحقيق استقلاليته ، بينما يظل

فيه الطفل الذي قد يطبع شخصيته طوال حياته .

فعندما يتعرض الأهل أنفسهم لضغوط وتعقيدات من جهة ، ويتعرض [illegible] ومشكلاته من جهة أخرى ، يقف الطفل حائراً بين الموافقة والمشاركة أو الرفض والتمرد ، بين الخروج نحو [illegible] أو [illegible] عينيه ، وبين [illegible] . تنشأ شخصية الطفل ، وهي شخصية خصائص معينة ، تنمو طريقها في مجتمع وبيت [illegible] ، وهي ليست أفكاراً تكتسبها بطريقة [illegible] كي [illegible] ، بل هي نتيجة [illegible] . وهذا يعني [illegible] في بيئة الطفل المستقرة في مجتمع قوي ، [illegible] ضعيفة مترددة ومرتبكة

ويذكر [illegible] في كتابه « الطفولة السعيدة » أن [illegible] مسؤولان أولاً وأخيراً عن [illegible] الأطفال [illegible] تربيتهم . فالطفل [illegible] ، فلا يشعر بخوف أو قلق ، [illegible] . وهذا يعني [illegible] الخوف و[illegible] في [illegible] . ومن خلال [illegible] في [illegible] الطفل ، [illegible] المشاعر [illegible] مخوف [illegible] نفسه .

فإلى أي مدى يمكن [illegible] [illegible] من الكلام النظري إلى الواقع العملي ؟ .

الوقوع في الهوة :

عصام هو الطفل الأصغر لعائلة مكونة من أم وأب وثلاثة أبناء ، والداه يخافان عليه من كل شيء ، فيمنعانه من الاختلاط بأطفال الجيران ويحذرانه من الاتصال بزملائه في المدرسة ، ولا



أطفال يلعبون بعيداً عن المنزل

يسمحان له بالخروج دون صحبة أحد أشقائه أو والديه . ويبالغان في تهويل حوادث السرقة والغش والكذب ، وفي وصف العقاب الشديد الذي يناله هؤلاء ، ويحرصان دائماً على تذكيره بأن ارتكاب أي خطأ ، أو مخالفة رغبات والديه يعني حرمانه من مصروفه أو من نزهة نهاية الأسبوع ، وقد تصل العقوبة أحياناً إلى حد الضرب . والنتيجة أن عصام يلبي رغبات والديه على الرغم من شعوره أنه مقيد وغير حر فيما يفعل . ولكنه في الوقت نفسه لا يشعر

بالسعادة التي يشعر بها الأطفال في مثل عمره ، فهو غير مستقل ، وغير قادر على إثبات ذاته والتعبير عن نفسه ، وتفريغ طاقاته في مجالات الطفولة المختلفة . وهذا يعني تبعاً لما يقوله (غسان أبو الحب) : « شخصية لفرد خجول انعزالي ، خائف قلق مرتاب فيمن حوله ، فهم جميعا كما صورهم له أسرته سيئون ، وقد يتسببون في عقابه ، ويلازمه دائماً شعور بالحرمان والعجز والاستكانة والنقص بسبب ذلك التناقض بين رغباته الطفولية ورغبات والديه .

أما نادر فهو طفل يعيش وسط عائلة تعد المجتمع غابة من الذئاب ، وأن الفرد يجب أن يتعامل مع هذا المجتمع حسب قوانين الغاب ، فالكذب والغش والخداع والسرقة ، منبعها جميعاً المجتمع ، ولا بد من فرد قوي قادر على معايشة هذه البيئة وهؤلاء الأفراد ، حتى لا يقع ضحية سهلة بين أنياب ذئاب الغابة .

وبناء على هذه المعتقدات فهما يشجعان ابنهما إذا ما قام بعمل سيء ، ويصفقان له إعجاباً ، ويصفان تلفظه بكلمات نابية أو سرقته للحلوى أو غذاءه لزملائه في المدرسة ، إنما هو قيام ببطولة يفتقدها غيره من الأطفال .

ويعلق (أبو الحب) على هذه الحالة قائلاً : « ينتج عن هذه التربية طفل عدواني متمرد



وتلميذ عنيد يثير الشغب ويربك أساتذته في الفصل ، غالباً ما يلجأ للكذب والغش والسرقة من أجل الوصول لحاجاته التي يراها ضرورية من وجهة نظره الخاصة ، وبناء على ما تلقاه من قيم داخل أسرته ، فإن السلوكيات السيئة هي سمة المجتمع الذي يعيش فيه » .

طوق النجـــاة :

في المثالين السابقين نموذجان مختلفان من الأسر ومن الأطفال ، وكما نجد في المجتمع أفراداً متمسكين بقيم وأخلاقيات سامية ، نجد أيضاً وبنفس النسبة أفراداً يعدون القوة مصدر البقاء داخل المجتمع .

ولكن ماذا يحدث حين يختلط هذان النموذجان داخل بوتقة المجتمع ؟ إن مثل هذا التناقض يوقع الأبناء في حيرة عميقة ، بين ما يتلقونه من قيم ومبادئ من ذويهم ، وبين ما يرونه من سلوكيات وأخلاقيات من أقرانهم أو زملائهم داخل المجتمع . فهل من طوق للنجاة ، يساعد أبناءنا في الخروج من هذه الحيرة ؟ ! .

حول هذه الحيرة يتحدث الدكتور عبد الله الفنان ، أستاذ التربية بجامعة الكويت ، ووالد لأربعة أبناء تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية والعشرين فيقول :

« يجب أن تنسجم التربية داخل البيت مع الفلسفة العامة للمجتمع ، مع ضرورة وضع تغير حالة المجتمع المستمرة في عين الاعتبار . فتغير الثقافات وانفتاح المجتمع على حضارات ومجتمعات جديدة يشكل تياراً يحمل في طياته قيماً ومبادئ جديدة على المجتمع . قد لا تروق الكبار الذين اختاروا نمطاً معيناً من الحياة ، فتراهم يقفون أمام هذا التيار حائلين دون تغلغله إلى عقول أبنائهم ونفوسهم .



اختيار الأصدقاء يتم بمعزل عن الأهل

وتستمر معركة التحدي إلى أن ترسو الأمور ويحدث التوازن بين المقبول من هذه القيم وغير المقبول منها .

ولا يخلو الأمر في كل المجتمعات من وجود بعض السلوكيات السلبية مثل الكذب أو الغش والخداع . ولكن علينا تقع مسئولية تعريف الأبناء بأن هذه ليست هي سمة المجتمع ، أو القاعدة الرئيسية له ، ويجب أن نحرص نحن كآباء أمور على إحاطة الأبناء معرفة وعلما بالسلبيات . وأن نهتم تماماً بتعريفهم بالإيجابيات فلا يقعون في خطر مجاراة المجتمع في سيئاته .

وقد تكون التربية عن طريق تعريف الطفل بالشر والخطأ ، وتحذيره منه مع إعطائه الفرصة لخوض تجربة ما ، مجدية إلى حد كبير ، فهو سيتعلم من تجربته الشخصية هذه ، درساً مهما يفيده في حياته المستقبلية . وقد يحدث أن يتبنى الطفل قيمة أو سلوكا غير مستحب ، وهنا لا بد من بيان الخطأ للطفل ، وتعريفه بخطورة الاستمرار ، ثم العمل على إبعاد الطفل عن الجو الذي أدى به إلى تبني سلوك مغاير ، سواء كان صديقاً في المدرسة أو في الحي ، مع مراعاة ضرورة إيجاد الجو المناسب والبديل له ، حتى لا يشعر بأنه مقيد ثم متابعته متابعة سليمة مع السماح له بإمكانية الخطأ على ألا يفسر هذا الخطأ على أنه لحظة ، بل على أنه سلوك غير إرادي ، علينا أن نساعده في التخلص منه » .

خطوط التماس :

ولكن ، هل تنتهي قضايا التلاؤم مع رغبات الأهل ، ومشاكل التربية بانتهاء مرحلة الطفولة ؟ إن مرحلة المراهقة تأتي لتزيد من حدة الاحتكاك وقوته ، خاصة أن تلك المرحلة لها ظروفها



واحتياجاتها الخاصة . كما أن ظهور محاور جديدة كالحي والمدرسة والنادي يجعل أسباب الاحتكاك والاختلاف أكثر وأقوى . وتتحدث الدكتورة « سهام أبو عيطة » حول الاختلافات في مرحلة المراهقة بحسبانها امتداداً للتفاوتات التي ظهرت مع الطفولة المبكرة . تقول الدكتورة سهام : « القيم تكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية أولاً ، وتتحدد من خلال الانتماء الطبقي والاقتصادي والاجتماعي ثانياً . وهناك نمط مجموعة من القيم الخاصة لدى كل فرد في المجتمع . ولدى كل جماعة ، ويختلف الأفراد في فهمهم ، وكذلك الجماعات في المجتمع نتيجة ترتيبهم لهذه القيم حسب أهميتها لهم . فنجد أحد أفراد الأسرة يضع القيم العلمية بالدرجة الأولى ، تليها القيم الاقتصادية ، ثم الاجتماعية بينما قد يتبنى شخص آخر من نفس الأسرة ، القيم الدينية أولاً ثم العلمية ثم الاجتماعية وهكذا .

فإذا تعارض ترتيب تلك القيم مع التشكيل الذي تؤمن به الأسرة ، يحدث التنافر والاختلاف في تقبل السلوك أو عدمه . وهذا أيضاً ينطبق على المدرسة أو الحي . فإذا كان المستوى الاجتماعي الاقتصادي للحي عالياً ، فإنه بلا شك يهتم بالتعليم ويعده من أولويات القيم . لتبقى المدرسة في النهاية المكان الوحيد الذي يغذي الأبناء تربية وعلماً ، فلا يحدث داخلها اختلاف كبير في القيم ، وتتعاون المدرسة والحي في ترتيب القيم مما يساعد الفرد على تكوين معايير سليمة سوية لتقييم المبادىء وتقبلها ، وعلى تحديد أفعاله وغاياته ووسائل تحقيقها بطريقة سوية مقبولة اجتماعياً ونفسياً . أما إذا اختلفت المدرسة والحي في ترتيب القيم ، فسيكون من الصعب على الفرد أو الطالب إدراك قيم الجماعة التي ينتمي إليها ، ومن ثم فإنه سيسعى لتكوين قيم خاصة به تشبع حاجاته » .

وللأصدقاء دور :

وتكمل الدكتورة أبو عيطة حديثها : « يختلف الأبناء مع الآباء في فهمهم وتقبلهم للقيم داخل الأسرة ويتجسد ذلك في مرحلة المراهقة عندما يبدأ الطفل في الاستقلال بأفكاره وسلوكياته .

وفي تكوين أصدقاء بعيداً عن محيط الأسرة .

وتبعاً لأساليب الرعاية الأسرية التي يتلقاها المراهق في المراحل العمرية السابقة من قبول للطفل ورضى عن صداقاته ، يختار الطفل أصدقاءه ويرسم أخلاقه وسلوكياته مساراً خاصاً به ، من حيث أداء الواجب المدرسي ، والرغبة بمشاركة الزملاء في الأنشطة الخارجية ، وفي قيمة المصروف اليومي واحترام الوالدين ، ومعاملة الأخوة ، وهذه علاقة نابعة من قناعة الابن ، وهو أمر مختلف عن ما يراه الوالدان صحيحاً ، سواء غلبت على سلوكها القيم الاجتماعية أو الدينية أو العلمية . ولعل هذا الاختلاف واقع مقبول إذا كان بدرجة طفيفة ، أما إذا كان سلوك الأبناء يتصف بالسلبية وبالتحدي للكبار مثل الآباء والمدرسين واتخاذ مواقف معادية من الجماعة ، فإنه لا يمكن تغيير هذه القيم بمجرد تقديم النصح أو العقاب ، ولكن بضرورة التعرف على مطالب المرحلة العمرية وواجباتها وحقوقها التي يمر بها الابن وبخاصة مرحلة المراهقة وهي مرحلة ظهور الاختلافات حيث يجب أن نبحث عن نوعية الأصدقاء وإبراز عيوب هذه العلاقة أمام المراهق بحيث نجعله يؤمن بهذه العيوب مع ضرورة مراعاة الوضوح والإقناع ، والعمل على توفير فرص لإشباع حاجات المراهق بأسلوب مقبول اجتماعياً .

ولا يخفى أن باستطاعتنا كأخصائيين نفسيين أن نجنب الأبناء الوقوع في صراع القيم والمعتقدات عن طريق دراسة حاجاتهم في كل مرحلة عمرية ، والعمل على إشباعها وتحقيقها ، وفق ما هو مقبول اجتماعياً بحيث لا نزيد من تدليلهم أو عقابهم . ولعل استعمال الحزم والحكمة في توفير الدفء العاطفي له أكبر الأثر في التأثير إيجابياً على سلوك الأبناء .

بقي أن نتساءل أنه إذا كان الحي والأسرة يتحملان القيمة الحسنة في حس الطفل ، وتشجيعه عليها ، فمن الذي سيتحمل ذلك الطفل الذي لم يلق الرعاية والاهتمام الكافيين من تلك السقوط القيمي والأخلاقي ؟ .

يعتقد الأخصائيون وأولياء الأمور ، وحتى المشرفون على عملية التعليم ، أن وسائل الاعلام من مجلات وبرامج تلفازية ، من شأنها أن تؤثر إيجاباً على سلوك الأطفال خاصة إذا كانت البرامج معدة من قبل اخصائيين تربويين ملمين بمشاكل كل مرحلة عمرية ، لأن الفرد في مرحلة الطفولة المتأخرة ، والمراهقة ، يتأثر بشكل كبير بكل توجيه خلاف توجيه الأهل ، لأنه لا يجمل في طياته اللهجة الملزمة التي يرفضها الصغار .

فهل نجعل من شغفنا بالأطفال عاملاً من عوامل السعادة في حياتهم لينشأوا أصحاء في عقولهم وأجسامهم ومشاعرهم ؟ □



■ أحسن الكلام من أصدقائك ذلك الذي صنعتهم . (توسكانيني)

■ سئل بعض الحكماء : ما العقل ؟ فقال : « الإصابة للظن ومعرفة ما لم يكن بما كان » .

■ لا يحنقني كثيراً أن لا يفهمني الناس ، بل إن اهتمامي الأكبر في عدم فهمي لهم . (كونفوشيوس)



توسكانيني

هو.. هي

كتاب زوجي اللدود

لم أكن يوما ضد الثقافة أو ضد القراءة أو ضد الكتاب ، - بالعكس - فأنا أحب القراءة ، وأجد فيها إلى جانب متابعة ما يجري في العالم من أحداث ومستجدات ، وسيلة مثالية للاستفادة من وقت الفراغ لزوجة مثلي في سنوات زواجها الأولى ، حيث لا أطفال ولا مسؤليات ولا مشاغل تملأ وقت فراغي الذي يبدأ مع الظهيرة عند عودتي من العمل .

لكنني منذ الشهور الأولى لزواجنا لاحظت أن لزوجي طريقة غريبة في القراءة ، فهو ينتقل من قراءة كتاب إلى تصفح مجلة إلى قراءة كتاب آخر . ناهيك عن الصحف اليومية التي يصر على قراءة أغلبها . ولأن عمله ينتهي مع المساء فلكم أن تتخيلوا الوقت الكبير الذي يقضيه زوجي في القراءة ، والوقت الضئيل الذي يبقى لدينا للحديث حول أمورنا الخاصة ، وبحث مشكلاتنا التي تواجهنا كزوجين في بداية حياتنا الزوجية .

ولا أخفي ، أنني كنت في البداية معجبة بحرص زوجي على متابعة شؤون الحياة العامة ، من سياسة وأدب واقتصاد وغير ذلك ، غير أنني بدأت أضيق ذرعا بإصراره على القراءة في كل وقت ، وكل مناسبة وكل مكان . وما بدا لي في بادىء الأمر حرصا على المتابعة أصبحت أراه إصراراً على إغاظتي واستفزازي وذريعة للابتعاد عني ، وتطور الأمر في الفترة الأخيرة إلى إهمال متعمد لي . وبعد فترة من المراقبة الدقيقة لقراءات زوجي وللطريقة التي يصر فيها على التمسك بالكتاب ، تأكدت من أن زوجي يتعمد إغاظتي بل إهانتي ، فتمسكه بالقراءة هو الوجه الآخر لإهماله شؤون حياتنا الزوجية ، وولعه بالكتب هو الوجه الآخر للتهرب مني . ولأنني مازلت أحب زوجي ولا أريد أن أفقده بدأت أكره الكتب وأحقد على المجلات ولا أطيق رؤية الصحف .

إن هذا بالتأكيد أفضل من توجيه مثل هذه العواطف ، غير الودية نحو زوجي ، وهو أمر لا تحمد عقباه كما يقولون ، ولكن لابد من وضع حد لهوس القراءة عند زوجي وإجباره على الاهتمام بي حتى لو حدث مالا تحمد عقباه .



..هي



الكويت ـ الصيرفي

زوجتي وخير جليس

لا أدري ما الذي دهى زوجتي في الفترة الأخيرة . فهي لا تكاد تراني أمسك كتابا أو أتصفح مجلة أو أقرأ خبرا أو مقالة في صحيفة حتى تثور ثائرتها ، وتفتعل المستحيل لتنتزع مني الكتاب أو الصحيفة . ولو كان ذلك من أجل أمر أكثر أهمية لكان مقبولا ، لكنني كثيرا ما ألاحظ أن هدفها هو أخذ الكتاب أو الصحيفة وحسب .

منذ أيام كاد ينشب بيننا شجار حين شاهدتني أقرأ مقالا في صحيفة قديمة . لم أجد الوقت لقراءته في حينه ، فقد نزعت الصحيفة من يدي بعنف ، وألقت بها بعيدا بحجة أنها صحيفة قديمة ، وأن جميع أخبارها « بايته » . وأصبحت معروفة بتفاصيلها ، ولكن لأني أعرف أن الحياة الزوجية أهم وأخطر من أن نضيعها من أجل مشكلات على هذه الدرجة من البساطة ، فإنني لم أكترث بل حولت الموقف كله إلى موقف ساخر حتى تحول الضحكة محل التهجم ، وحتى تظل سماء علاقتنا الزوجية ـ التي مازالت في بدايتها ـ صافية لا تكدرها قراءة لمقالة أو تصفح لمجلة .

ولقد بدأت منذ مدة ألتمس حساسية زوجتي من الكتب والمجلات بل والكلمة المكتوبة عموما . ولأنني حريص على مواصلة معرفتي للعالم ومتابعة ما يجري فيه حرصي على حياتي الزوجية ، فقد بدأت أوازن بين هذين الأمرين ، لكن ما حدث أننا توازنا هذه تحيزا للكتاب واعتدائها على حقوقها الزوجية .

في إحدى المرات قلت لزوجتي إنها محظوظة ، لأنها في أسوأ الحالات ، قد تمسك بي متلبسا بصحبة كتاب ، وإن هذا أفضل لها من أن تمسك بي متلبسا بصحبة امرأة غيرها . وبدل أن تبتسم لهذه الطرفة استشاطت غضبا وذهبت إلى حجرتها باكية ، وأغلقت الباب . عندئذ لم أتمكن من الدخول إليها لمصالحتها ، كما لم أتمكن من إكمال الرواية التي كنت أقرؤها ، لأن الجو تسمم ولم يعد صالحا لشيء .

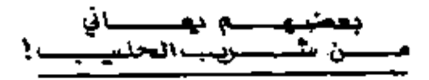
إن زوجتي لا تدرك أنني بفضل هذه القراءة أصبحت الشخص الذي أعجبت به وأحبته ثم تزوجته . وأن القراءة ليست نزوة تمر بالإنسان في مرحلة عابرة من مراحل العمر ثم تنتهي مع الزواج . بل هي ضرورة من ضرورات الحياة . ويغيب عنها أن الحديث في شؤون الحياة ليس كافيا للتعرف على أحداث العالم ، وأن الكتاب لا يمكن أن يكون بديلا للزوجة على الرغم من تأكيد ذلك لها أكثر من مرة .

لكنني كما علمتني الكتب وكما علمتني الحياة ، سأكافح حتى أثبت لزوجتي البديهية التي تقول : إن الكتاب لا يمكن أن يكون بديلا للزوجة . ◻





طبيب الأسرة
قضايا منزلية



بقلم : الدكتور محسن فريد أبو غزالة

لو أسميناه مرض الحليب تسهيلا وتخفيفا على عامة القوم ممن يرون في شرب الحليب معاناة تتميز بعسر الهضم وانتفاخ البطن وألم في الأمعاء مع اسهال لين ، فإننا لن نتجاوز الواقع ، غير أن الحقيقة العلمية تذهب الى تحديد هوية المتهم دون غموض ولا تورية لتؤكد أن سكر اللبن المعروف في لغة المختصين بأمور التغذية باسم « اللكتوز » هو سر المأساة الحقيقي وهو جوهر القضية .

هناك شكل من أشكال السكاكر لا يعرفه سوى الحليب ومشتقاته من ألبان وأجبان يسمونه اللكتوز (Lactose) هو بحاجة الى خميرة خاصة (Enzyme) يسمونها انزيم اللاكتاز (Lactase) تفرزها خلايا الغشاء المبطن للأمعاء الدقيقة ليتم هضمه .

والسكريات بمنطق العلم يصنفونها على ضوء تركيبها من الجزيئات ، فالسكر الذي أساس تركيبه جزيء واحد هو ينتمي الى فصيلة السكريات الأحادية (mono Saccharides) ومن أمثلته سكر الجلوكوز أو سكر العنب وسكر الفركتوز أو سكر الفواكه .

أما السكريات التي تعتمد في تركيبها على اتحاد جزأين فقد اصطلحوا على تسميتها بالسكريات الثنائية (Disaccharides) ومنه نضم سكر السكروز أو سكر القصب المعروف والشائع الاستعمال وسكر اللاكتوز أو سكر اللبن .

غير أن الجسم لا يتعامل إلا مع السكريات الأحادية في الهضم بل إنه قد يختار منها سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) ليكون وسيلة التغذية التي يتعامل مع خلاياها داخل الجسم . ولربما يتعقد التركيب فتتحد جزيئات عدة مما يدعوه المختصون بالسكريات المتعددة (polysaccharides) وهي في حقيقة أمرها لا تملك من حلاوة الطعم أي رصيد لأنها تصنف من فصيلة النشويات .

وعلى هذا فالنشويات إذا ما تحللت مع الهضم تتحول الى سكريات بفضل خمائر الهضم المعروفة لتنتهي بمطافها في الختام الى سكر الجلوكوز

الأحادي التركيب . وإذا ما عدنا الى سكر اللبن المعروف باسم اللاكتوز الذي تتراوح نسبته ما بين ٤٠ ـ ٥٠ جراما في اللتر من الحليب فانه تسري عليه قواعد الهضم مما يسري على كافة الكربوهيدرات أو مائيات الكربون . وهذا هو الاصطلاح الذي يضم بين دفتيه كافة السكريات والنشويات معا .

وسكر اللبن أو اللاكتوز (Lactose) هذا بحاجة الى خميرة خاصة به تهضمه قبل امتصاصه ، وهذه الخميرة يدعونها (انزيم اللاكتاز) تفرزها خلايا الغشاء المبطن للأمعاء الدقيقة فتعمل على تفتيت اللاكتوز (أو سكر اللبن) الى شقيه الأحاديين وهما سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) وسكر الجالاكتوز أو سكر الحليب .

إن هذه الخميرة (انزيم اللاكتاز) تبدأ افرازها منذ الشهر الثالث للجنين في رحم امه ثم تنشط عقب الولادة مباشرة لتزداد نوعيتها مع الأيام ، غير أنه لأمر ما قد يتعطل افراز هذه الخميرة (انزيم اللاكتاز) فيتعطل معها الهضم ، هضم سكر اللبن (اللاكتوز) فلا يكون هناك بالتالي أي امتصاص ، ومن هنا يتراكم هذا السكر مع الأيام في الأمعاء الغليظة المعروفة باسم « القولون » حيث تجد الميكروبات المتوطنة هناك فرصتها في التغذي عليه وتحليله حيث تخمر هذه السكريات وتتحلل الى نواتج غير السكريات الأحادية وهذه النواتج هي :ـ

- غاز الهيدروجين .
- غاز ثاني أكسيد الكربون .
- حامض الخليك .
- حامض اللبنيك .

وهذا هو سر المعاناة التي يقع ضحيتها بعضهم متمثلة في انتفاخ البطن بسبب الغازات وفي عسر الهضم والحموضة والآلام بسبب الأحماض .

إن الذين يتوهمون أن الأمر معاناة محدودة تصيب قليلين من سيئي الطالع هم فريق يجهل حقيقة الأمر حيث أن المعاناة أكثر شيوعا مما تتوهم ، فالمرض واسع الانتشار في كافة أنحاء المعمورة قاصيها ودانيها ، والفرق الوحيد هو في سعة الانتشار . وبينما نجده محدودا في بلدان الغرب المتحضرة ونسبته ما بين ٢٠ ـ ٣٠ بالمائة من شاربي الحليب ، نجد أن نسبته قد تجاوزت السبعين بالمائة في بلدان الشرق النامية،ولربما كانت الاحصائية التقديرية التالية تعطي صورة أكثر وضوحا لوبائية هذه المعاناة :ـ

الدنمارك	٥ بالمائة
السويد	٥ بالمائة
هولندة	٨ بالمائة
سويسرا	١٥ بالمائة
الولايات المتحدة الأمريكية (البيض)	٢٠ بالمائة
الولايات المتحدة الأمريكية (السود)	٧٥ بالمائة
الشرق الأوسط	٨٠ بالمائة
الصين	٨٥ بالمائة
تايلاند	٩٥ بالمائة

أسباب عوز خميرة اللاكتاز : هناك شكلان من أشكال العوز هما :

١) عوز أولي أو ابتدائي وهو الذي يولد به

الطفل فهو لذن عوز خلقي بسبب الأمعاء الدقيقة ولكنه بحمد الله نادر الحدوث جدا .

٢) عوز ثانوي أو متأخر وهو العوز الشائع بين الناس مما كانوا يفسرونه قديما بنظرية في الطب تدعى « ضمور الإهمال » بمعنى أن الجسم يضمر فيه كل عضو لا يستعمل وحيث أن البطن قد يستغني عن شرب الحليب إذا ما تعدى مرحلة الطفولة فإن الخلايا المفرزة لخميرة اللاكتاز تضمر وتتلاشى .

ومن هنا يعاني الكثيرون في البلدان النامية من مرض الحليب لأنهم لا يقبلون على شرب الحليب لسبب أو لآخر فقرا كان أو اهمالا وجهلا .

غير أن الأبحاث الأخيرة أثبتت أن عوز خميرة اللاكتاز يصاحب أمراضا عدة ويحصل إذا ما عانى الإنسان من التهابات الأمعاء سواء منها البكتيرية أو الفيروسية أو تلك الالتهابات التي تصاحب التعرض للاشعاع أو ربما مرض التبرز الدهني والقولون المتوتر أو القولون المتقرح .

وإذا ما عولجت هذه الأمراض تستعيد الخلايا نشاطها وقدرها وربما صلح الحال عن ذي قبل فتتلاشى الأعراض . هناك بعض العقاقير أيضا قد تؤدي الى ما اصطلحنا عليه باسم مرض الحليب منها عقار « الكولشيسين » المستعمل في علاج النقرس ، وهناك المضادات الحيوية مثل « النيومايسين والكانامايسين » . وإذا ما توقف المرء المصاب عن تعاطيها فإن المعاناة تتوقف وتعود الأمور الى مجاريها .

التشخيص : معاناة المريض من أعراض الانتفاخ وألم البطن والاسهال عقب شرب الحليب هي أول معالم الطريق الى تشخيص المرض غير أن هناك فحوصا مخبرية تساعد الطبيب وتؤكد له التشخيص إذا استعان بها منها :-

١) وقف شرب الحليب والامتناع عن تعاطي منتجاته ومن ثم مراقبة المريض لدى معاناته بعدها .

٢) فحص البراز لاستطلاع نسبة الحموضة فيه .

٣) اختبار لدرجة احتمال اللاكتوز في الجسم وهو اختبار شبيه باختبار احتمال سكر الجلوكوز الذي يجريه الأطباء لمرضى السكر .

٤) قياس غاز الهيدروجين في أنفاس المريض وهو ما تمتصه جدران الأمعاء من نتاج تخمر سكر اللاكتوز في القولون وينطلق عن طريق الرئتين .

٥) فحص البول لاستطلاع منسوب سكر الحليب (الجالاكتوز) وكما هو معروف فانه أحد نواتج هضم سكر اللبن (اللاكتوز) .

العلاج : علاج مرض الحليب أساسه الامتناع عن الحليب ومنتجاته بقدر الامكان أو الاقلال منه ، غير أنه تلافيا لحدوث نقص في منسوب الكالسيوم في الجسم الذي يوفره الحليب فقد انتجت الشركات المختصة حليبا خاليا من اللاكتوز على نمط الحليب الخالي من الدسم ليتعاطاه مرضى مرض الحليب .

ولكن ما هي الأطعمة التي يتوافر فيها سكر اللاكتوز ؟ هي الحليب ومنتجاته طبعا ولكن اللاكتوز فيها تختلف نسبته من منتج لآخر .

فالكريمة التي تستعمل مع القهوة تصل فيها نسبة اللاكتوز الى ٩,٥ بالمائة ، والحليب الى ٤,٦ بالمائة ، بينما اللبن الزبادي والجبن فيهما من اللاكتوز ٤ بالمائة فقط ، أما الجبن القريش (cot-tage cheece) فيه القليل من اللاكتوز لا يتجاوز ٢,٢ بالمائة ، وأقل منها الزبد حيث يقل اللاكتوز الى نصف بالمائة فقط ، ولكنه ينعدم فيما يعرف بالجبن الهولندي .

ومن الطبيعي أن يسعى الطبيب والمريض الى علاج كافة الأمراض المصاحبة التي ربما كانت هي السبب في المعاناة . □



مستقبل أيامنا الماضية

في إحدى الأمسيات كنت أجلس مع عائلتي نشاهد التلفاز، وكانت تعرض على شاشته إحدى المسلسلات العربية، ولأني لم أتابع المسلسل من بدايته فقد حاولت التركيز على وجوه الممثلين المشاركين في المسلسل، وهم كثيرون، لكني فوجئت حين اكتشفت أني لا أعرف سوى ممثل أو اثنين منهم، أما الآخرون فلا أعرف أحداً منهم. وازدادت دهشتي حين سألت ابني الصغير عن أسماء بعضهم، فاسترسل في إجابات سريعة عن الممثلين والممثلات، مع إضافات حول أول عمل مثل فيه هذا الممثل، وآخر عمل لتلك الممثلة، ومن المخرج الذي كتب هذا العمل أو ذاك. وظللت مندهشاً إلى حد لسيل التدفق من المعلومات الخاصة بالسينما.

وعادت بي ذاكرتي إلى الوراء سنين طويلة حتى إلى مرحلة طفولتي عن طفولة ابني، عندما كانت الأفلام بالأبيض والأسود، والمسلسلات نادرة، كان عدد الممثلين محدوداً أو معروفاً بالنسبة لنا جمهور تلك الزمن. كان عدد مشاهير الفنانين لا يتعدى أصابع اليدين، وقل مثل ذلك عن عدد مشاهير الكتاب والصحفيين ولاعبي الكرة والشعراء والروائيين، وقل ذلك عن عدد المسارح ودور السينما والصحف ودور النشر، وكذلك الأجيال الأدبية والفنية والأندية عموماً، كلها كانت محدودة ومعروفة بالنسبة لنا، إذ لم تكن مساحتها أكثر من مساحة مسطحة لا تغري على المساحة الثقافية ولعبة غير رموزها المعروفة.

في تلك الأيام كان للأدب نجومه، وللموسيقى نجومها، وكان هناك نجوم في التمثيل والغناء، ونجوم في التصميم وفي السياسة. كان هناك الشاعر النجم والروائي النجم والمفكر النجم والصحفي النجم.

اليوم لا مكان للنجم المطلق، هناك أعداد من الفنانين والكتاب والشعراء والروائيين يصنعون أعمالاً لا تقل أهمية عن إنتاج أسلافهم نجوم الماضي، وما كان صعباً علينا نحن الناس سابقاً في ذلك الزمن أن نتابع ما يجري في عالم الفن والأدب الذي يزدحم بالأسماء والمسميات والاتجاهات، وربما طرحت أحياناً عصراً وعبر الكثير دليلاً على تواضع المستوى مقارنة بالسابق نجوم زمانه، لكن هذا ليس أكثر من حكم سريع ومتسرع على زمن جديد له ظروفه ومعطياته، تماماً كما أن له فنانيه وكتابه وشعراءه، زمن يحتاج إلى مساحة خاصة ونجوم خاصين وربما عظمة.

أكملت مشاهدة المسلسل دون أن أتابع أحداثه، كنت فقط أريد أن أستمر في التفكير بالذي يمضي عبر زمني أبي أشاركه بعض اهتماماته وبعض زمنه □

صلاح حزين

قصة من الخيال العلمي

الاصطدام المروع

بقلم : رؤوف وصفي

أما الآن وقد انتهى كل شيء ، وقد نجونا من العواقب المحتملة الخطيرة فإننا نتساءل لماذا أبطأنا في رؤية ماحدث ؟ ، ذلك أنه كان من الممكن التنبؤ به ، كنا نعلم أن مركز الإنسان في الكون خطرا ، بل أن وجود المادة نفسها لم يكن مستقرا . إننا اكتشفنا العديد من الظواهر الكونية مثل الأقزام البيض ، والعمالقة الحمر ، والثقوب السوداء عندما تتخذ المادة شكلا رهيبا غير مألوف لنا .

كانت الإنذارات كافية ومتصلة ، وقد استمرت لعدة سنوات ، وكان البيولوجيون قد لاحظوا أن تطور الحياة الحيوانية والنباتية في نصف الكرة الشمالي من كوكب الأرض ، كان يسرع باستمرار بسبب الزيادة التدريجية - التي لاتعليل لها - في كثافة الأشعة الكونية القادمة من اتجاه النجم القطبي ، والتي تتكون أساسا من أشعة جاما ، ولكن سكان الأرض على وجه العموم لم يرق لهم الموقف وبالذات العلماء فإنهم لم يستطيعوا أن يفسروا هذه الظواهر ، وعندما لا يستطيع عالم أن يفسر شيئا يتجاهله الضيق لأن هذا يجعله يبدو حتى أمام الآخرين . كان اليوم ١٥ يناير ٢١٥٦ عندما رأى الدكتور « أشرف مجدى » مند تجربته أول بصيص من النور ، فقد كان يعمل على مرصد جديد يبلغ قطر عدسته ٤٢ مترا ، ولاحظ ظلاما في لوحته الفوتوغرافية من مقياس الطيف المركز على النجم القطبي في السماء الشمالية ، وكرر المحاولة عدة مرات وحصل على نفس النتيجة ، إظلام متساو على طول الخط الطيفي . التفت إلى مساعده الدكتور « ممدوح شاكر » وقال : تعلم أن طيف ضوء النجم الذي يعطي حزاما من الخطوط الملونة وهي تساعدنا على تحديد العناصر التي يتكون منها ، فكل عنصر له طيف مختلف ، ولكن الأمر الغريب أن هناك عددا كبيرا من الخطوط المظلمة في طيف هذا النجم الذي أقوم بدراسته ، ولم أعرف أي مصدر للضوء يعطي طيفا مستمرا من الأشعة تحت الحمراء مثله .

أجاب الدكتور ممدوح شاكر في اهتمام :

- « تعني أن التركيب الذري مختلف ! »

- « هذا ماكنت أفكر فيه تماما ، فالذرة العادية تتكون من نواة بها نيوترون متعادل وبروتون موجب الشحنة ، وتدور حولها الكترونات سالبة الشحنة . ولكن يبدو أن الأمر مختلف مع هذا النجم ، فيبدو أن التركيب الذري غير عادي . . . »

ساد صمت ثقيل فرض نفسه على الطرفين .

عاد الدكتور أشرف مجدى يقول :

- « ولنفترض أن تكون المادة معكوسة في هذا



التوهج » .

قال الدكتور ممدوح شاكر في ذهول :

- « نقيض المادة ! »

- « أجل ، فالألكترونات موجبة في البلورة ، أما البروتونات سالبة ، وهي حالة نادرة في المادة ، ولاندري كيف تكونت ! »

قال الدكتور ممدوح وهو متجهم الوجه :

- « ولكن إذا حدث واصطدمت المادة العادية ، بنقيض المادة ، فسيحدث انفجار مروع يفني المادتين تماما ! »

تنهد الدكتور أشرف وهمس :

- « أعلم هذا »

بعد أسبوعين ، نظر العالمان كل منهما إلى الآخر . وهما يطلعان على النتائج من الحاسوب « الكمبيوتر » كانت الأرقام أمامهما . إن الجسم المجهول الذي كان يشع الضوء إشعاعا خافتا ولكن مستمرا ، كان يبعد نحو عشرة آلاف مليون كيلو متر عن كوكب الأرض ، وكان يقترب منها بسرعة هائلة . وبعد نشرتها قبل نقل من عالم ولم يظهر شيء في الصحافة ، فقد فرضت رقابة صارمة عليها ، إذ كان الخطر شديدا ، وكان الفزع كفيلا بأن يزيد الأمر سوءا .

قدم الدكتور أشرف والدكتور ممدوح تقريرهما إلى المؤتمر الدولي للعلوم الذي عقد اجتماعا طارئا لمناقشة هذه الظاهرة المدمرة . وتحدث الدكتور أشرف في أول الاجتماع قائلا :

- « وهكذا ترون الموقف يا سادة ، لكم تتصورون جميعا نظريتي ، بأن هذا الجسم يتكون من مادة نقيضة ، وأنتم تعلمون أن مراصد العالم ومراصد المريخ والزهرة قد اتفقت مع رصدنا لهذا الجسم ، إنني لا أعرف أية نظرية علمية لتفسير

سلوك هذا الجسم الشاذ ، ويبدو أن معظمكم ميالون للموافقة على نظريتي ، » نظر حوله على مائدة الاجتماع ، فلم ير إلا إيماءات صامتة .

ـ « . . لو حدث - لاقدر الله - واصطدم هذا الجسم بالكرة الأرضية فسيحدث دمار شامل في كل جزء بها ، ولو كان يتكون من مادة عادية لأمكن تركيب أنابيب صاروخية هائلة عليه حتى نبعده عن مساره بحيث يخطىء الأرض بمسافة كافية ، ولكن ماذا نفعل بهذا الشيء الذي إذا لمسناه أبادنا . . »

ساد الصمت تماما في القاعة

ـ « أيها السادة ، إن خطتي للتخلص من هذا الدخيل الذي يهددنا هو أن نحطمه من بعيد ، باستخدام أشعة الليزر »

حث العلماء وهم يستمعون إلى هذا الاقتراح ، وكان هناك احتجاجات مثيرة سرعان ما خفتت حين استولت الخطة على خيال العلماء بعد أن شرحها الدكتور أشرف بالتفصيل .

ـ « إن خطتي تتلخص بتصميم قمر صناعي يحمل معدات إنتاج أشعة الليزر ، يطلق من كوكب الأرض من مكوك فضائي ، ثم يوضع في أعلى مدار ممكن ، ويوجه بعد ذلك لينطلق بسرعة هائلة في اتجاه الجسم الفضائي وعندما يكون على مسافة معينة منه ، يتم إطلاق أشعة الليزر بالتحكم عن بعد من مكوك الفضاء حتى يتم تدمير الجسم »

كان مكوك الفضاء يقف كسيف هائل يتجه نحو السماء ، وفي الداخل كان الدكتور أشرف والدكتور ممدوح يجريان حساب مسار القمر الصناعي في رحلته نحو تدمير الجسم الغريب ، ولم تبق إلا ثلاث دقائق ، وركز الدكتور أشرف نظراته القلقة على خريطة الإطلاق وأصابعه على الصف الأول من الأزرار الملونة وبقيت عشرون ثانية ، ارتعد الدكتور ممدوح رعدة خفيفة وحاول إخفاءها بالتثاؤب، وراح يعد الثواني عدا تنازليا ، ثم انطلق مكوك الفضاء .

لقد اختار القيام بهذه المهمة على الرغم من خطورتها وذلك من أجل العلم .

تزداد هدير الإطلاق واختلط اللهب بدرجة لاتحتمل ، وكان هناك شعور بالإسراع كأنما الأرضية التي تحت أقدامها تتحطم ، وبعد أن اطمأننا إلى أن الأجهزة تعمل بكفاءة صدرت إليها التعليمات من مركز المتابعة الأرضية ، بإطلاق القمر الصناعي، ثم متابعة مساره والاستعداد لإطلاق أشعة الليزر لتدمير الجسم المجهول . كان مكوك الفضاء ينطلق بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، وأصبح كوكب الأرض مجرد كرة زرقاء صغيرة ، وكان الجسم المجهول يبدو فوق شاشات الرادار مجرد نقطة بيضاء متوهجة ، ولكنه كان يقترب طول الوقت ، وسرعان ما ملأ مساحة كبيرة في شاشات الرادار ، لقد بدا واضحا الآن بلونه الرمادي الكئيب ، لم يكن هناك بحار ولا تلال ولا وديان ولا ثلج أو آثار غازات متجمدة ولا شيء حتى يميز سطحه . لقد كان شيئا يجب أن لا يكون بحسب المنطق .

قال الدكتور أشرف في دهشة :

ـ « أي عالم هذا ، مجرد كرة من الصخر . ماذا تفعل هنا ؟ ومن أين أتت ؟ » مد الدكتور ممدوح يده صوب شاشة الرادار حيث الجسم الغريب .

ـ « إنه هنا وهذا يكفي . هل يحتاج الكوكب إلى سبب ليكون حيث هو ؟ » كانت أعصاب الدكتور أشرف متوترة ، وقد كره هذه الطريقة غير الإنسانية في تشريح المنطق والاحتمال التي بدا أن الدكتور ممدوح ينعم بها .

ضغط الدكتور أشرف على زر إطلاق أشعة الليزر من القمر الصناعي ، وحدث الانفجار المروع في الجسم الغريب ، كان هناك وميض يعمي الأبصار على شاشة الرادار ، ثم اسود لونها واحترقت بفعل المجموعة الضخمة من الإشعاع الكهرومغناطيسي التي تولد من الانفجار ، ثم توقفت آلات المكوك الفضائي وسكتت الأصوات

الرئيسية ولم تترك إلا المعدن المجامد والبلاستيك البارد ، وهكذا أصبح العالمان داخل تابوت معدني في أعماق الفضاء .

قال الدكتور أشرف بصوت خال من أي نبرة :

- « على الأقل لم يكن توقف الآلات مفاجئة لنا ، فقد كان هناك احتمال بحدوث ضرر ما بسبب كثافة الإشعاع الصادر عن الجسم الغريب بعد حدوث الإنفجار وتطايره في الفضاء ، وإنقاذ الكرة الأرضية من الاصطدام به ، ولكني أعتقد أننا يجب ألا نهمل أي احتمال للبقاء على قيد الحياة ، هل نستطيع إصلاح جهاز الإرسال لنبعث إشارة بطلب الانقاذ ؟ »

قال الدكتور ممدوح في لهجة جارحة ساخرة :

- « إنسان في وسط المحيط معه شمعة ليجلب بها انتباه صاروخ مار ! » ثم أكمل في شيء من المنطق :-

- « دون قوة الآلة لا يمكن أن نرسل إشارة الى أبعد من بضعة كيلو مترات في الفضاء .

ومن الواضح أننا بعيدون جداً عن الطرق المنتظمة حتى أن أي إشارة نرسلها لن يلتقطها أحد »

ساد الصمت فترة طويلة .

قال الدكتور ممدوح في همس وقد قطب حاجبيه :

- « قد تكون هناك كائنات تحت سطح هذا الجسم المجهول استطاعت بكيفية ما أن توقف آلاتنا كنوع من الانتقام »

قال الدكتور أشرف ووجهه ممتقع :

- « هراء خيالي يخلو من كل معنى »

فجأة ، بدأ هدير الآلات من جديد ، وتألقت اللوحات في مقر قيادة مكوك الفضاء .

قال الدكتور ممدوح في ذهول :

- « لا أستطيع أن أصدق هذا »

وراح يحملق في شاشة الرادار والمنظر الذي وراءها ، لقد اختفى الجسم الغريب تماما ولم تبق منه سوى قطع متناثرة دقيقة لا تكاد ترى .

قال الدكتور أشرف في ارتياح :

- « إن تفسير توقف آلات مكوك الفضاء بسيط للغاية ، فقد تأثرت بالإشعاعات الهائلة التي نتجت عن انفجار الجسم الغريب ، وبمجرد أن خفت هذه الإشعاعات ، عادت الآلات تعمل بشكل طبيعي ، أرجو أن نتصل بمركز المتابعة فوق كوكب الأرض ، ونبلغهم أننا أتممنا مهمتنا ، وأن الخطر قد زال عن كوكبنا والحمد لله » □





● على الرغم من أن جولييت التي تكلم عنها شكسبير في مسرحيته الشهيرة « روميو وجولييت » لا تعيش في بلدة فيرونا الإيطالية ، ولا في أي مكان آخر ، إلا أن إدارة البريد في فيرونا تتلقى نحو مائة رسالة حب شهريا بلغات مختلفة موجهة إلى جولييت .

وتحيل البريد هذه الرسائل على البلدية ، حيث تطوعت باولا سيلا ، وهي طالبة اقتصاد ، لقراءة الرسائل والاجابة عنها في أوقات فراغها . وهكذا أصبحت هذه الفتاة سكرتيرة جولييت غير الرسمية .

جمال العربية

صفحـة للغـة

بقلم : د. حسن عباس

في ظلال المعاني

لأبي هلال العسكري عدد من الكتب تغني بها المكتبة والتراث العربيين، بلغت نحوا من عشرين كتابا ورسالة. وإذا ذكر العسكري ذكر كتاب «الصناعتين»، ويعني بهما صناعة الشعر، وصناعة النثر، وهو كتاب عظيم الأهمية، عالج فيه المعاني والألفاظ، والإيجاز والإطناب، وحسن النظم، والسجع والتشبيه، وغير ذلك، ولكن كتابه الذي يستوقفنا في هذا المقام هو كتاب «الفروق في اللغة»، وقد خصصه لرصد الفروق بين الكلمات التي تتشابه في معانيها وتحتفظ بفروق طفيفة بين لفظة وأخرى يفترض فيها أنها رديف لها. يقول أبو هلال العسكري في خطبة الكتاب:

«ثم إني ما رأيت نوعا من العلوم، وفنا من الآداب إلا وقد صنف فيه كتب تجمع أطرافه وتنظم أصنافه إلا الكلام في الفرق بين معان تقاربت حتى أشكل الفرق بينها نحو: العلم والمعرفة والفطنة والذكاء، والإرادة والمشيئة، والغضب والسخط، والخطأ والغلط، والكمال والتمام، والحسن والجمال...» إلى غير ذلك من المعاني.

ولقد رأينا أن الناس تعمد إلى أمثال هذه الكلمات التي توشك أن تكون مترادفة، فتدخلها في الكتابة والحديث دون اعتبار لما بينها من فروق، لذلك قدرنا أن إيضاح الفروق والاختلافات لعدد من الألفاظ السائرة في لغتنا، كتابة وحديثا، لا يخلو من فائدة، بل لعل الحاجة تكون ماسة إليه في مواقف بعينها.

من ذلك مثلا قولهم في صفة إنسان أنه «عبد أو مملوك» فهل هناك فرق في المعنى بين هاتين الكلمتين؟ أجل، فكل عبد مملوك، وليس كل مملوك عبدا، لأنه قد يملك المال والمتاع، فهو مملوك وليس بعبد، والعبد هو المملوك من نوع ما يعقل، ويدخل في ذلك الإنسي والمعتوه وعباد الله تعالى.

ويقال: التقي والمتقي والمؤمن، وعلى الرغم من وضوح الدلالة والتقارب بين هذه الكلمات جميعا إلا أن بينها فروقا. فأنت حين تطلق صفة التقي تريد المتصف بها معنى أكثر مما لو اقتصرت على وصفه بالمتقي، لأن في ذلك عدلا عن الصفة الجارية على الفعل للمبالغة. والمتقي أمدح من المؤمن لأن وصف الإنسان بالمؤمن يطلق بظاهر الحال في حين أن وصفه بالمتقي لا يطلق عليه إلا بعد الخبرة.

وكذلك الفرق بين كلمتي : اللطف ، والرفق ، فاللطف هو البر وجميل الفعل من قولك فلان يبرني ويلطفني ، ويسمى الله تعالى اللطيف من هذا الوجه أيضا . أما الرفق فهو اليسر في الأمور والسهولة في التوصل إليها ، وخلافه العنف وهو التشديد في التوصل الى المطلوب .

وأصل الرفق في اللغة النفع ، ومنه يقال : أرفق فلان فلانا إذا مكنه مما يرتفق به ، ومرافق البيت : المواضع التي ينتفع بها زيادة على ما لابد منه : ورفيق الرجل في السفر يسمى بذلك لانتفاعه بصحبته ، وليس هو على معنى الرفق واللطف ، ويجوز أن يقال سمي رفيقا [illegible] برافقه في السير ، أي يسير الى جانبه قبل مدته

والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر ، وسمي بذلك تشبيها بما يفعله اليربوع ، وهو أن يجعل بجحره بابا ظاهرا وبابا باطنا يخرج منه إذا طلبه الطالب ، ولا يقع هذا الاسم على من يظهر شيئا ويخفي غيره إلا الكفر والإيمان وهو إسلامي ، والإسلام والكفر اسمان إسلاميان ، فلما حدثا وحدث في بعض الناس إظهار أحدهما مع إبطان الآخر سمي ذلك نفاقا . والرياء إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى ، فليس الرياء من النفاق في شيء ، وإنما استعمل أحدهما في موضع الآخر على التشبيه .

أما الفرق بين الطغيان والعتو فهو أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ . .) الآية . يقال طغى الإنسان إذا جاوز الحد في الظلم . والعتو : المبالغة في المكروه ، فهو دون الطغيان ، ومنه قوله تعالى : (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) . قالوا : كل مبالغ في كبر أو كفر أو فساد فقد عتا فيه ، ومنه قوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) ، أي مبالغة في الشدة . ويقال جبار عات ، أي مبالغ في الجبرية ، ومنه قوله تعالى : (عتت عن أمر ربها) يعني أهلها تكبروا على ربهم فلم يطيعوه .

والفرق بين الظلم والغشم أن الغشم كره الظلم ، وعمومه توصف به الولاة لأن ظلمهم يعم . ولا يكاد يقال غشمني في المعاملة كما يقال ظلمني فيها . وقال أبو بكر : الغشم اعتساف الشيء ، ثم يقال : غشم السلطان الرعية يغشمهم . وقيل الاعتساف خبط الطريق على غير هداية ، فكأنه جعل الغشم ظلما يجري على غير طرائق الظلم المعهودة .

أما الفرق بين الإثم والذنب فهو أن الإثم في أصل اللغة : التقصير ، أثم يأثم ، إذا قصر ، ومنه قول الأعشى :

جمالية تغتلي بالرداف
إذا كذب الآثمات الهجيرا

(الاغتلاء : بُعْدُ الخطو ، والرداف : جمع رديف ، وكذب : قصر ، وعنى بالآثمات المقصرات) والفرق بين الأثيم والآثم هو أن الأثيم المتمادي في الإثم ، والآثم : فاعل الإثم .

والفرق بين الإثم والخطيئة أن الخطيئة قد تكون من غير تعمد ، ولا يكون الإثم إلا تعمدا ، ثم كثر ذلك حتى سميت الذنوب كلها آثاما ، كما سميت إسرافا . وأصل الإسراف مجاوزة الحد في الشيء . أما الذنب فهو ما يتبعه الذم ، وذلك أن أصل الكلمة الاتباع ، والذنب هو القبيح من الفعل ولا يفيد معنى التهمة ، ولهذا قيل للصبي قد أذنب ، ولم يقل قد أثم . والأصل في الذنب الرذل من الفعل كالذنب الذي هو أرذل ما في صاحبه . والفرق بين الوزر والذنب أن الوزر يفيد أنه يثقل صاحبه ، وأصله الثقل ، ومنه قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) ، وقال تعالى : (حتى تضع الحرب أوزارها) أي أثقالها ، يعني السلاح . □



□ صفحة شعر
□ [illegible] الأستاذ

تقاسيم على بحر الشوق

عندما قام الحكم الجمهوري في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ وتولاه أبو الحزم بن جهور - وقد كان ملكا وشيخا وقورا - جعل ابن زيدون واحدا من وزرائه المقربين. ولم يطل به عهد الوزارة، فقد دأب حاسدوه على السعي بالوشاية به لدى ابن جهور، فأوغر صدره، ورماه في السجن، أو ربما كان لابن زيدون طموح كبير أو - إن شئنا - أطماع كثيرة، فلما تكشف ذلك الطموح أو تلك الأطماع عن تطلع إلى الانفراد بالسلطة أقدم ابن جهور على سجنه وإقالته واعتقاله.

وفي هذه الفترة - أي فترة توليه الوزارة - أو قبيل ذلك بقليل عرف ولادة، فصار يحرص على أن يغشى مجلسها، وقد كان أشبه بالصالون الأدبي الذي عرفته أوربا فيما بعد. ولم يكن وحيدا في حب ولادة، بل دأب على منافسته في حبها آخرون، وكانت جديرة بحبهم جميعا. فقد توافر لها الحسن والظرف والأدب، فضلا عن انتمائها إلى البيت الأموي، وهي قبل ذلك وبعده « أديبة شاعرة، جزلة القول، مطبوعة الشعر، تخالط الشعراء، وتساجل الأدباء... » كما يقول عنها الضبي. ولابن خاقان في وصفها قول طريف حيث يقول: « وكانت من الأدب والظرف، وتتميم السمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ». وكان يبهر منها ما يغري رواد مجلسها بها كهذين البيتين اللذين كتبتهما على طرف ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولو تتبعنا أوصافها كما ترد في شعر ابن زيدون لألفيناها بارزة الصدر، طويلة العنق، ممشوقة القامة، دقيقة الخصر، رابية الردف، وفي عينيها حور. وبذلك تجمع لها محاسن الخلق ومقومات الجمال عند العرب أو أكثرها.

ولم يلبث ابن زيدون - أمام تلك الأوصاف والخصال - أن وقع في حب ولادة، ولكن الجو لم يصف لهذا الحب صفاء تاما، فكثيرا ما كانت أجواء المحبين تتلبد بالغيوم. على أن أيام الوصل كانت تجود بأرق الشعر وأحلاه. انظر إليه وهو يلتمس إقناعها على المودة ودوام الوصل:

سأقنع منك بلحظ البصر ... وأرضى بتسليمك المختصر
ولا أتخطى التماس المنى ... ولا أتعدى التماس النظر
أصونك من لحظات الظنون ... وأعليك عن خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب ... وقد يستدام الهوى بالحذر

وهي أبيات تشف عن كلف شديد، فأي حب عميق ذلك الذي يجعله يرضى منها بالنظرة العجلى وبالسلام المختصر!

ثم تساوره المخاوف من أن تشيح بوجهها عنه إن اعترت أن له فيها بغية، فيقطع على نفسه العهد بأن لا تبرح آماله دائرة الأماني المشروعة، فلا يسرف، ولا يرجو أكثر من ذلك، وإن كانت في شك مما يجول فلا عليها، يكفيه منها أن يختلس النظر وأن يراها من بعد. ويظل في شك من أمره فهو يخشى ألا تكتمها أقواله فيه . إنها مما يهز طمأنينتها، فهي وجدانه ورغبته أسمى من أن تقاربها الظنون، وأجل من أن تخطر على البال بخاطرة لا ترضيها. فإذا كان يخشى كل تلك الخشية من نفسه ومن ظنونه والمكاره - على شغفه بها وحبه لها - فكيف الحال مع الرقيب، ألا يقف منه حذرا؟ وما الذي يضطر إلى كل هذا و[illegible] من الحيطة والأناة والتربص وأخذ النفس بالتقشف، وأخذ الغير بالريبة والحذر؟ إنه الأمل في دوام الهوى! فهل يدوم؟

ويطرق سمعه أن ولادة تتهمه بخلف الوعد ونكث العهد، وهو على ما به من حب مقيم فينشد قائلا :

أأنسيتِ عهدك؟ ... أم كيف أخلفت وعدك؟
ولقد رأتك الأماني ... رضا فلم تتعدّك
يا ليت ما لكِ عندي ... - من الهوى - لي عندك
فطال ليلكِ بعدي ... كطول ليلي بعدك
سل حسنك لتنبئ ... فبتّ أسألك ردّك
الدهر عبدي لما ... أصبحتُ - في الحب - عبدك

. فهو يسأل منكرا، إذ كيف يخلف الوعد وقد أيد الأماني عن غيب وأبصرها - رآها - عليها! ليت التي تتهمه بخلف الوعد احتفظ له من الود ما يحفظ لها، وتأرق لبعده كما يأرق!

وإذا انقطع الوصال أو كاد هبّ متحسرا يبوح بالشكوى :

لساعة مني وحسرة حسي ... لتأسيك - لا جل صبري - فتسبي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أرى ... حريقاً بأنفاسي، غريقاً بأدمعي؟
ألا عطفةٌ تحيا بها نفسُ عاشقٍ ... جعلتِ الردى منه بمرأى ومسمعِ
صليني - بعض الوصل - حتى تبيّني ... حقيقةَ حالي، ثم ما شئتِ فاصنعي

ولم يدم الهوى وما كان ينبغي له إذا اتصف المحبوب بمثل ما كانت تتصف به ولادة من تقلب وخفة في آن معا. ويطربنا بهذا القول ما تسمعه من نفثات ابن زيدون وهو يستعطف ويستلطف ولا يجد سبيلا إلى الاستمالة دون أن يسلكه. انظر إليه يقول :

تظني بي - يا مستلبي - ظني ... سأحفظ فيك ما ضيعت فيّ
وإن أضنيتِ قد أرضيت يوما ... بسخطي، لم يكن لك فيه ذنبي
وهل قلبٌ كقلبك في ضلوعي ... فأشكو منك حين سلوت عني!

تمنّت أنْ تنالَ رضاكِ نفسي ... فكان نصيبُها ذاكَ التجنّي
ولم أجنِ الذنوبَ فتحسبيها ... ولكن جاءها منكِ التجنّي

فلا زال الأمل معقودا على عودة الفتاة للملك لا يكون رد الفعل عند العاشق المحب على التجني وإرضاء حاسديه بما يسيء إليه إلا مزيدا من التلطف والرفق .

وكل ما يرجوه هو أن يكون له قلب كقلبها يقوى على الهجر ، وعلها ضرب من العتاب وإن اتصف بالكثير من الرقة . لقد بدأ يدرك المأزق الذي وضع فيه نفسه عندما تمنى أن ينال الرضا يوما ولم يكن يدري أن هلاكه كامن فيما تمنى ! وهو يعلم علم اليقين أنه لم يرتكب من الذنوب ما يجعلها تحقد عليه ، ولكن التجني عادة فيها ! وتقتضي الضرورة أن يبتعد عن حبيبه فيودعها بأرق القول :

ودّعَ الصبرَ محبٌّ ودّعكْ ... ذائعٌ من سرّهِ ما استودعكْ
يقرعُ السنَّ على أنْ لم يكنْ ... زادَ في تلكَ الخطا إذ شيّعكْ
يا أخا البدرِ سناءً وسنا ... حفظَ اللهُ زماناً أطلعكْ
إنْ يطُلْ بعدكَ ليلي فلكمْ ... بتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ معكْ

ولم يتحمل البعد إلا أن أجيج نار الوجد ، وقديما كان التجمل بالصبر يخفي دخيلة النفس ، ويصون الكبرياء ، أما مع الفراق والوداع فقد ذهب الصبر وافتضح الأمر ، وذاع السر .

وفي قرطبة اجتمع للشاعر من أسباب التعلق أكثر من سبب ، ففيها ولد ، وفيها عاش ، وإليها يحن إذ يبعد به المقام ، وفيها فوق كل ذلك منية النفس ، ولادة ! لذلك نرى أن بعده عن الأحباب وملاعب الصبا ومن مواطن الأنس والذكريات يثير شجنه ويبعث الشوق حيا :

هل تذكرونَ غريباً عادهُ شجنٌ ... منْ ذكركم وجفا أجفانَهُ الوسَنُ ؟
يُخفي لواعجَهُ والشوقُ يفضحُهُ ... فقد تساوى لديهِ السرُّ والعلنُ

* * *

إنْ كانَ عادَكمُ عيدٌ فربَّ فتى ... بالشوقِ قد عادَهُ من ذكركم حزَنُ
وأفردتْهُ الليالي من أحبّتهِ ... فباتَ ينشدُها مما جنى الزمنُ
(بمَ التعلّلُ ؟ لا أهلٌ ، ولا وطنٌ ... ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكَنُ !)

ذلك هو شأنه في غربته ، لم يعد يرى في الناس شبيها ، فوجد صنوه لمصابه في رجع الحمامة ، فهي تقف وحيدة على غصن في أيكة ، تشكو الوحدة كما يشكو وتأسى حالها كما يأسى ، فلا بد لها بما مثل ما به ، أو أنها علمت بحاله فرقت له ! أما هو فقد جمعته الليالي وحيدا فردا بعيدا عن أحبته ، لا يأتيه العيد إلا ليزيده حزنا لفرط ما يعاني من الشوق .

وكان بعد أن غادر قرطبة قد نسي ما لقيه من ولادة ، فهدأت نفسه ، وعادت رياح الشوق تهب عليه قوية عاتية ، ولا يملك - وهو الغريب عن الأهل والوطن - إلا أن يتساءل حزينا :

أيوحشني الزمانُ وأنتِ أُنسي ... ويظلمُ لي النهارُ وأنتِ شمسي ؟
وأغرسُ في محبّتكِ الأماني ... فأجني الموتَ من ثمراتِ غرسي
لقد جازيتِ غدراً عن وفائي ... وبعتِ مودّتي ظلماً ببخسِ
ولو أنَّ الزمانَ أطاعَ حكمي ... فديتُكِ - من مكارهِهِ - بنفسي

لقد كانت هذه الكلمات - على ما تنوء به من زلة الشاعر وصدق الوفاء - بداية اليأس ، وصحوة من حب عاصف ، اجتاح ابن زيدون ردحا من الزمن ، ولئن كان حب ولادة وبالا عليه فقد كان ذلك الحب باعثا على قول درر الشعر ، كهذه المقطوعات التي مررنا بها . □



مكتبة العربي



رحلة الغجر عبر التاريخ

تأليف : رايكو جوريتش
عرض وتحليل : د. محمد موفاكو

لم يكن تاريخ الغجر على الدوام تاريخ رقص وغناء وإقبال على ملذات الحياة ، كما هو شائع ، بل كان أيضا تاريخ عذاب واضطهاد ومجازر بلغت أوجها في فترة الحرب العالمية الثانية في أوربا .

والكتاب الذي بين أيدينا محاولة قام بها أحد مثقفي الغجر اليوغسلاف لتتبع تاريخ أسلافه وإنجازاتهم التاريخية ، وطموحاتهم المستقبلية .

(*) Rajko Djurić-Seobe Roma-Krugovi pakla i venac sreće.Beograd 1987.



بدأت في السنوات الأخيرة في أوروبا حركة اهتمام متزايد بما يمكن تسميته « الظاهرة الغجرية » ، التي تبلورت في العقدين الأخيرين . وفي الواقع أن أفضل ترجمة لهذا التميز هي « البعث الثقافي القومي للغجر في العالم » . فالغجر ، الذين شتتوا عبر قرون التاريخ في كل البلدان الأوروبية وكانوا ضحية للجميع ، برزوا الآن على المسرح الدولي يطالبون بحقوقهم المهدورة عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة . ولقد تمكن الغجر أن يحققوا ما يشبه المعجزة خلال أقل من عشرين سنة . فقد تحولت لغتهم المحكية - التي ساعد في تشتتها توزعها على عدة لهجات وتطعيمها بمؤثرات كثيرة - إلى لغة ذات أبجدية واحدة ، ثم أخذوا ينشرون تراثهم الشعبي بسرعة في هذه اللغة القديمة - الجديدة . وفي غضون ذلك أخذ الأدب الغجري الجديد ، من شعر وقصة ورواية ومسرحية ، يبرز في اللغة الغجرية ، بل ويترجم إلى لغات أخرى . والأهم هنا أن الغجر قد انطلقوا ، بعد أن ارتكزوا على هذه القاعدة الثقافية التي بنوها بسرعة ، إلى المطالبة بحقوقهم القومية في البلدان التي يشكلون ثقلا ديموغرافيا فيها كيوغسلافيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا الخ .

ومن الطبيعي أن تثير هذه « الظاهرة الغجرية » ذلك القدر من الاهتمام ، الذي تمثل في صدور دراسات كثيرة تحاول أن تستخلص من الماضي ما يساعدها على فهم الحاضر والمستقبل . من أحدثها دراسة الدكتور رايكو جوريتش بعنوان « هجرات الغجر - دورات العذاب وحلقات السعادة الصادرة باللغة الصربوكرواتية خلال صيف ١٩٨٧ في يوغسلافيا ويبدو لنا أن هذه الدراسة بالذات من أفضل ما نشر في السنوات الأخيرة.

إن مؤلف هذا الكتاب هو من الغجر الذين يمكن تسميتهم « بالمثقفين الجدد » ، أي أولئك الرواد الذين يعود إليهم الفضل في بعث ما كان يبدو أنه قد مات في الغجر . وهو من الشعراء الغجريين البارزين ، وقد نشر حتى الآن عدة دواوين في اللغة الغجرية ، كما أنه أحد المسؤولين في « المنظمة العالمية للغجر ».

البحث عن البداية

في القسم الأول يتحدث المؤلف في البداية عن « الباحثين الرواد والأبحاث المتعلقة بالغجر » بدءاً من ب . فولكانيوس ، أستاذ اللغة اليونانية في ليدن الهولندي سنة ١٦١٤ ، كصاحب الريادة في الأبحاث المتعلقة بالغجر ، ومروراً بالدراسات المختلفة عن الغجر خلال القرن الثامن عشر ، والتي بقيت - على الرغم من - تنوعها الريادية ، في حيرة حول أصل الغجر إلى أن نشر « يعقوب ريديغر » كتابه عن الغجر في لايبزغ سنة ١٧٨٢ . ويرى البعض أن الفضل في هذا يعود إلى القس الهنغاري ستيفان هريستوف ، الذي لاحظ خلال دراسته في ليدن واحتكاكه مع الطلاب الهنود أن هناك تشابها كبيرا بين اللغة الغجرية واللغة الهندية . أما الذي أزال كل شك حول الموضوع فهو العالم هـ . غريلمان في كتابه « الغجر » ، الذي نشره خلال ١٧٨٣ . وبعد هذا التاريخ نجد لدينا عشرات الدراسات التي اتجهت نحو التعمق في

الثقافة الروحية والفنية للغجر .

وفي « بداية الهجرات » يتحدث المؤلف عن أقدم سكان الهند ، الدرافيد ، ثم عن قدوم الآريين من الشمال حيث استوطنوا أولا الجزء الشمالي الغربي من الهند ، مما دفع الدرافيد نحو الهبوط إلى جنوب الهند وسيلان . وقد كان هؤلاء الآريون يعيشون في الجماعات القبلية إلى أن تحولت مجتمعاتهم إلى هدف لمختلف الغزاة . فقد توسعت الامبراطورية الفارسية حتى وصلت إلى نهر السند ، ثم جاء الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م ليصل إلى نهر الكنج إلا أن هذا الاختراق كان قد ساهم من ناحية أخرى في توطيد التحالف والاتحاد بين القبائل بحيث انبثقت بعد موت الإسكندر أول دولة قوية ، مركزية وكبيرة في الهند من تجمع دويلات صغيرة كان بعضها يشمل فقط قبيلة أو قبيلتين وبعد قرن أو قرنين أخذت تلك الدولة في التفكك ، إلا أنها عادت إلى الانتعاش ثانية في القرن الرابع الميلادي ، حيث حكم البلاد الملوك من سلالة « غوبتا » حتى القرن السابع .

أولاد راما

ومن عهد تيمورلنك ، ينفصل تاريخ الغجر عن تاريخ الهند . لأنهم كانوا قد أصبحوا خارج حدودها ، وكثير منهم كان قد وصل إلى أوربا . لأن عدم الاستقرار المتواصل دفعهم إلى مغادرة مناطقهم في كل اتجاه . وهنا يؤكد المؤلف أن الجماعة الغجرية قد تشكلت في الهند من اتحاد عدة قبائل تختلف في عاداتها وحتى في أصولها العرقية . ومن المؤكد أن الغجر ، أو الروميون كما يسمون أنفسهم ، قد أخذوا اسمهم من « راما » بطل ملحمة « رامايانا » ، وهكذا فقد وصلوا إلى أوربا باعتبارهم « أولاد راما » .

بعد هذا يتعرض المؤلف إلى البلدان الثلاثة التي عبر منها الغجر إلى بقية أنحاء العالم ، (الهند ـ ايران ـ افغانستان) ففي الهند ما يزال يعيش حتى الآن عشرون قبيلة من القبائل الغجرية ، حيث أصبح لدينا الآن تفاصيل وافية عن وضع كل قبيلة ، عددها ولغتها وأعرافها الخ . وفيما يتعلق باللغة الغجرية ، أو « اللغة الرومية » كما يسميها الغجر ، يذكر المؤلف أنها تتشابه مع بقية لغات الهند ، التي تربو على خمسمائة لغة و « اللغة الرومية » تنقسم إلى عدة مجموعات ، وكل مجموعة إلى عدة لهجات . وهنا لا يخلو الأمر من بعض الآراء التي تحتاج إلى مزيد من التوثيق . فالعالم ج . غروسود في كتابه « لغات الغجر » يعتقد أن آخر النتائج تقود إلى أن لغات الغجر المختلفة لها أصل واحد ، وهي اللغة التي كانت تتكلمها في القديم بعض قبائل الدرافيد ، التي تأثرت لاحقا بالآريين .

وفيما يتعلق بـ « ايران » (ص ٣١ ـ ٣٤) نجد أن غالبية الباحثين يتفقون على أن الغجر قد توجهوا أولا إلى إيران بعد مغادرتهم للهند . وكان أول وأقدم القبائل الغجرية التي وصلت إيران أفراد قبيلة اللور في القرن الخامس للميلاد ، بينما وصلت خلال القرن الحادي عشر عدة قبائل غجرية أخرى . ومن هؤلاء بقي في إيران إلى اليوم عدة تجمعات غجرية في شيراز وبقية المناطق ، إلا أن الباحثين يختلفون في تقدير عددهم من ١٢ ـ ١٠٠ ألف . أما في أفغانستان فيشتهر الغجر هناك باسم « الغرباط » أو « القرباط » ، وهو الاسم الذي يعرف به الغجر أيضا في ألمانيا واليونان ويوغسلافيا والمغرب وامريكا وحتى في سوريا ولبنان . ويختلف العلماء حول أصل هذه التسمية . فبعضهم يعيدها إلى الأصل العربي « غربة » ، وبعضهم يعتبرها من أصل فارسي « غريب » ، أي الغريب عن البيت أو عديم المقر . وعلى كل حال يتفق العلماء هنا على أن القرباط في افغانستان واللوريون في ايران

والقرباط في سوريا يعودون إلى قبيلة واحدة. أما الآن فلم يبق من الغجر في أفغانستان إلا ألف عائلة تقريبا، نصفهم ما زالوا يعيشون تحت الخيام.

وفي القسم الثاني من الكتاب «الهجرات الغجرية وبلاد الاستيطان» يتحدث المؤلف أولا عن «الوثائق والوقائع» التي تسجل وصول الغجر إلى مختلف البلدان في أوروبا وآسيا وأفريقيا. فمن المراكز الهائل الذي امتد حدوده من إيران إلى أفغانستان، من بحر قزوين شمالا وحتى الخليج العربي جنوبا، انطلقت آلاف القوافل الغجرية في عدة اتجاهات.

قدر الغجر

أما القسم الثالث وعنوانه «الاضطهاد»، فيخصصه المؤلف لما يمكن أن يسمى «قدر الغجر». فمنذ أن بدأت القبائل الغجرية الأولى بمغادرة الهند قبل ١٥٠٠ سنة، تحول تاريخهم إلى كل ما يرادف العنف والملاحقة والاضطهاد والاستعباد، وتحولوا إلى ضحية للجميع في أوروبا إذ وقف الجميع ضدهم - كما يقول المؤلف - الدولة والكنيسة، القياصرة والبابوات، الإقطاعيون والفلاحون، الرأسماليون والبروليتاريون. بل لم يحدث - كما يضيف المؤلف بأسى - أن ناصرت أي ايديولوجيا أو طبقة أو منظمة سياسية للدفاع عن مصالحهم. وهنا يوضح المؤلف أن الغجر بطبيعة تكوينهم «الآني - الفني» وأسلوب حياتهم يتحسسون المخاطر ويتحرزون على التحول في المناطق المفتوحة والمجالات التي يتخوف الناس من ولوجها، مما يتعارض أحيانا

- مع قوانين الدولة وأعراف المجتمع - ولذلك يصبح كل ما يقوم به أو يمارسه الغجر مشبوها. والأهم هنا أن أسلوب الحياة الذي يحرص عليه الغجر يعد مرفوضا في نظر السلطات الأوروبية، ولذلك كانت هناك محاولات دائمة لاستئصال هذا الأسلوب الحياتي، مع أن ذلك يعني في الواقع استئصال الهوية الذاتية للغجر.

وبعد مرور فترة قصيرة من وصول الغجر إلى البلاد الأوروبية، بدأت تصدر القوانين الاستثنائية التي تنظم عزلهم وإذلالهم وحتى استعبادهم.

ومن ناحية أخرى فقد كانت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر تتهم وتلاحق الغجر ككفار أو كسحرة أو حتى كمساعدين للشياطين! ولهذا فقد وجد كثير من الغجر أنفسهم على المحارق، وخاصة في عهد محاكم التفتيش المعروفة. والمثير هنا أن ملاحقة واضطهاد الغجر، بالاستناد إلى هذه المعتقدات، قد استمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر. وبالإضافة إلى هذا فقد كان الغجر يتهمون بأكل لحوم البشر. ويعتقد الناس في تركيا وألبانيا بأن الغجر ينبشون القبور ليلا ويأكلون لحم الجثث! أما الاعتقاد بأن الغجر يخطفون الأطفال فهو ما يزال أساس «التربية» البيتية حتى في يوغوسلافيا: «إذا لم تصبح ولدا صالحا فسيخطفك الغجر».

وعلى الرغم من كل المآسي التي لحقت بالغجر عبر التاريخ إلا أن أبشع كارثة تعرضوا لها كانت دون شك عملية الإبادة التي تعرضوا لها خلال الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه الكارثة قد بدأت تلوح في الأفق مع صعود النازية في ألمانيا، بداية عام ١٩٣٣. حيث

طرح أول « حل » لـ « المشكلة الغجرية » بتجميع كل الغجر في عدة سفن كبيرة ثم إغراق كل هذه السفن في عرض البحر!

وفي سنة ١٩٣٦ أسست وزارة الداخلية - ضمن هذا التوجه - « معهد القضية الغجرية » الذي ألحق عام ١٩٣٧ بـ « معهد النقاء العنصري » في برلين. حيث تم حينئذ تكليف « . ريتر ومجموعة من مساعديه بـ « القضية الغجرية ». وبعد شهور من الحرب العالمية الثانية بدأت الكارثة تلتهم الآلاف القوافل من الغجر الذين كان يتم انتزاعهم من بيوتهم وتجميعهم في معسكرات خاصة، إلى أن يأتي دورهم لتقبل الخيار الوحيد: الموت، لا لشيء إلا لأنهم ولدوا غجرا. وفي الواقع يبدو من خلال المعطيات المثيرة في هذه الصفحات أن الغجر هم الضحية الفعلية للحرب العالمية الثانية، لأنهم لم يكن لهم لا ناقة ولا جمل في هذه الحرب، وهم لم يشاركوا فيها ولم يغنموا منها شيئا، بل إنهم خسروا الكثير دون أن يحصلوا على أي تعويض. والمشكلة هنا انه لم يتم لحد حتى بتقدير خسائرهم، التي تختلف تقديراتها من نصف مليون إلى ثلاثة ملايين ونصف المليون.

حركة البعث الغجري

يرجع المؤلف ما يسميه « اليقظة القومية للغجر » إلى منتصف القرن التاسع عشر، أي حين تم في رومانيا الإعلان عن قانون تحرير العبيد الغجر، الذي كان يشمل حوالي ربع مليون غجري، والذي عارضه النبلاء ورجال الدين، وتبعه انتفاضة العبيد الغجر التي أغرقت بالدم، كما يذكر المؤرخون. ويمكن اعتبار سنة ١٨٧٨ بداية للاستقطاب الكبير، إذ ان تلك السنة قد شهدت أول محاولة لتكتل الغجر على أساس جديد، حيث دعا جوزيف رايهارت ممثلين للغجر من ايطاليا واسبانيا وروسيا إلى اجتماع بالقرب من شتوتغارت، لكي يتفقوا على تأسيس منظمة ترعى مصالح الغجر وتدافع عن حقوقهم لدى الدول المختلفة. إلا ان تلك المحاولة - كمحاولة العبيد الغجر للتحرر في رومانيا - قد قمعت فورا من قبل السلطات الألمانية، التي منعت الغجر من أن يعقدوا لاحقا مثل هذه الاجتماعات. وقد حاول الغجر في السنة اللاحقة ١٨٧٩، أن يعقدوا اجتماعا في القرية المجارية كيشفال. ولكن السلطات النمساوية - المجارية منعت هذه المحاولة وأدانت عقد أمثال هذه الاجتماعات. إلا ان هذه المحاولات الفاشلة فتحت الطريق لبعض المبادرات اللاحقة، سواء من قبل ممثلي الغجر أو من بعض المفكرين غير الغجر الذين أخذوا يتعاطفون معهم.

ففي أيار مايو ١٨٩١ توجه جورج سميث إلى البرلمان الإنكليزي طالبا منه التدخل لدى الحكومة كي تحل مشاكل الغجر في انكلترا. وفي تلك الفترة يعود « البيان الغجري » في بلغاريا والذي كان ممثلو الغجر قد وجهوه إلى الحكومة في صوفيا وطالبوا فيه أن تؤمن لهم الحكومة الحقوق المدنية والحريات الدينية. وهكذا تحقق أول حلم للغجر سنة ١٩٠٠ حين افتتحت في صوفيا « المدرسة الغجرية »، إلا أن هذه المدرسة لم تستمر طويلا. وبعد ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا برزت عدة محاولات للقيام بعمل ما لصالح الغجر، إلا أن هذه المحاولات لم تحظ بالتأييد من القمة إلا في نهاية العشرينيات، حين فتحت فجأة أمام الغجر أبواب لم تكن في الحسبان. فمنذ ذلك الحين أسست منظمات للغجر في عدة أماكن، كما أسس « الاتحاد الروسي العام للغجر »، وتم إصدار عدة مجلات بالإضافة إلى برامج إذاعية في اللغة الغجرية. وإلى جانب هذا فقد افتتحت مدرسة غجرية في « لوجهورود » ثم

كتاب الشهر

أخذت الكتب تنشر ، بينما تم أخيرا افتتاح مسرح للغجر . وبعبارة اخرى فقد كانت هذه الجهود تمثل بعثا كاملا لما هو متجمد عبر القرون ، إلا أن هذه المبادرات انطفأت للأسف مع الزمن .

وبالمقارنة مع روسيا الاشتراكية اتخذت اليقظة القومية للغجر مضمونا سياسيا محددا في رومانيا ، حيث يعيش أكبر تجمع غجري في أوربا الشرقية (حوالي مليونين من الغجر). ويبدو هنا ، (مع أن المؤلف لم يمس هذه المسألة إطلاقا)، ان هذه اليقظة السياسية لليقظة القومية للغجر كانت تحت تأثير الإنجازات الأولية للحركة الصهيونية . ففي أوائل الثلاثينيات نشط غيورغيه نيكولسكو للدعوة إلى تأسيس منظمة عالمية للغجر ، ونجح أخيرا في أن يعقد مؤتمرا لممثلي الغجر في أوربا وذلك في بوخارست خلال تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣ . وخلال هذا المؤتمر تبلورت الفكرة الداعية إلى تشكيل « دولة قومية » للغجر ، سواء في الوطن الأصلي أو في مكان ما في شمال افريقيا - أي على حساب العرب . ولإنجاز هذه الفكرة فقد كان من المقرر القيام بزيارة الملك الإنكليزي وتأمين الدعم من عدد من رجالات الدول الأوربية . إلا أن هذه الفكرة لم تتطور جيدا في تربتها لأن السلطات الرومانية منعت هذه المنظمة الغجرية عام ١٩٣٦ ، حتى ان الجنرال انتونسكو طالب حينئذ بـ « تطهير البلاد » من كل الأقليات القومية وعلى رأس هؤلاء الغجر واليهود .

ففي هنغاريا كان قد تأسس سنة ١٩٥٨ « اتحاد الغجر » ، ثم تأسست منظمات مشابهة في بقية الدول كألمانيا الغربية وأسبانيا وانكلترا والسويد وفرنسا الخ . إلا أن تلك المنظمات لم يكن لها برنامج مشترك ، بل إن كل منظمة كانت تنشط وسط ووفق الأوضاع الخاصة بكل بلد . وفي سنة ١٩٦٩ بادر بعض الكتاب الغجر في يوغسلافيا إلى اقتراح نوع من الترابط والتعاون بين المنظمات الغجرية . وبفضل هذا ، وبناء على اقتراح الشاعر سلوبودان بربرسكي من يوغسلافيا ، عقد أخيرا المؤتمر العالمي الأول للغجر في لندن خلال أيار / مايو ١٩٧١ ، حيث تمخض هذا عن تأسيس « المنظمة العالمية للغجر ». وفي ذلك المؤتمر تم الاتفاق على اختيار علم ونشيد موحد للغجر ، وجرى أول اتصال رسمي مع الوطن الأصلي من خلال السفارة الهندية في لندن .

وفي سنة ١٩٨٣ حقق الغجر انتصاراً آخر عندما تمكن عضو رئاسة « المنظمة العالمية للغجر » ، دي جيوس راميرز هيريديا ، من الفوز في الانتخابات الأسبانية للمجلس الأوربي . مما مكنه من إثارة مسألة حقوق الغجر ووضعهم الاجتماعي في بعض البلدان الأوربية أكثر من مرة .

المعجزة الغجرية

وفيما يخص « الحياة الاجتماعية » يوضح المؤلف أن الهرم الغجري يبدأ من « الشاترا » أي الخيمة ، التي تجمع عادة بين ثلاثة أجيال ، ثم يأتي الـ « نيامو » أي الفخذ الذي يجمع مجموعة من الخيم ، ومن هذه الفخذ تتشكل الـ « فيتسا » أو العشيرة . والسلطة هنا بيد الشيخ أو الزعيم الذي يتم اختياره لفترة محددة أو طويلة

حياته ، وذلك حسب شهرته وذكائه وتفوقه ، وتغطي سلطته في الغالب كل المشيا .

ولربما يتعلق بأدب الغجر يستشهد المؤلف بعبارة للمفكر « ارنست بلوخ » لا يبدأ الرقص في أي مكان قبل الظهر » ليذكر بالمفارقة التي تكمن في أن الغجر بعد عشرة قرون ملاحقوها في أوروبا لا يزالون لا يملكون الشروط الأساسية التي تمكنهم من الإبداع . فالأفراد الموهوبون من الغجر كان لا يمكنهم أن يشتهروا إلا إذا أنكروا أنفسهم كغجر ، أي بعد أن يذوبوا في بوتقة الآخرين . ومن هؤلاء يذكر المؤلف الشاعر الإنكليزي « جون بانيان » ، والكاتب المسرحي « ميلان بوغوفيتش » الذي يعد أيضا من الأسماء الرئيسية في الشعر الكرواتي المعاصر . ويؤكد أخيرا أنه يعرف الكثيرين من الكتاب الغجر في يوغسلافيا الذين يتهربون من الاعتراف بأنفسهم كغجر .

وعلى كل حال يعود الفضل هنا للشعراء في بعث وتأصيل الأدب الغجري الجديد . ومن هؤلاء الشاعر الرائد ادم تيكنو (١٨٧٥ ـ ١٩٤٨) ، الذي يعتبر خير نموذج لشعبه . فقد ولد هذا الشاعر على حدود افغانستان وشارك سنة ١٩٠٥ في الحرب الروسية ـ اليابانية ، وحصل على رتبة ضابط ، إلا أنه تخلى عن هذا وانضم إلى إحدى العشائر الغجرية ، وعبر معها الحدود المختلفة حتى وصل إلى اسطنبول ، ومن ثم انتقل إلى ألمانيا ليقضي بقية حياته . وإلى جانب هذا تذكر الشاعرة الرائدة « غينا رايتشيتش » (١٨٣٠ ـ ١٨٩١) ، التي ترجمت قصائدها في مطلع هذا القرن إلى الألمانية والسويدية لاحقا . وفي الواقع ان هذين الإسمين يمثلان حالة نادرة ، إذ أن الشعر الغجري لم يبرز حقيقة إلا في روسيا السوفيتية ، بعد أن تشكلت الظروف الإجتماعية والثقافية المناسبة . ولكن بعد أن برزت هنا الأسماء الرئيسية كالكسندر غرماتو ، تينا الكسندروفنا بودلروفا ، ميخائيل بزليتسكي الخ ، حتى أخذت تتلاشى الأرضية التي انضجتهم . وفي الخمسينات برزت في بولونيا الشاعرة « برانيسلافا فاسي يابورشا » (١٩٠٩) ، الأولى والوحيدة التي طبعت لها مجموعة شعرية باللغتين الغجرية والبولونية معا ، وذلك خلال سنة ١٩٥٦ . ومن السويد اشتهرت شاعرة غجرية أخرى ، « كاتارينا تايكون » (١٩١٤) ، التي نشرت أيضا مجموعة شعرية . وبالمقارنة مع البلدان الأخرى تبدو الآن يوغسلافيا هي المركز الوحيد الذي يحتضن استمرارية « كرايكو جوروتش » ، مؤلف الكتاب ، و « يوفان نيكولتش » ، و « قدري شاهينوفيتش » ، الخ .

وبالإضافة إلى الشعر فقد برزت في الأدب الغجري الجديد محاولات روائية متميزة . منها رواية « رحلة النبية » المشهورة للروائي « ماتيو ماكسيموف » (١٩١٢) ، الذي ولد في برشلونة وانتقل لاحقا للعيش في باريس . وهي نوع من الاعترافات بتفاصيل الحياة الغجرية .

بعد كل هذا يبدو لنا أن « للمعجزة الغجرية » تتلخص بهذه السطور التي خطها المؤلف :

« حوالي ١٥ مليونا يتشرون في مختلف أنحاء العالم . إن قصتهم هي قصة للمعاناة والحزن ، ولكنها أيضا قصة تحكي انتصار روح الإنسان على كل ما يضغط عليها . □







● يبلغ محيط صدر روبرت هوك من الولايات المتحدة ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمترا .



دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي

تأليف : مجموعة من الكتاب العرب
عرض وتعليق : ياسر الفهد

لم تكن هناك أبدا نهضة بلا ترجمة فمن خلال الترجمة فقط يمكن الاطلاع على أحدث المنجزات الثقافية والعلمية في العالم أجمع .

لكن حديث الترجمة إلى العربية ذو شجون كثيرة ، يطرقها الكاتب من خلال استعراضه لهذا الكتاب عن واقع الترجمة في الوطن العربي .

الحديث عن الترجمة وشجونها ، أمر غاية في الأهمية ، لأن الترجمة في هذه المرحلة على الأخص من مراحل تطورنا العلمي والثقافي ، يمكن أن تؤدي دورا بالغ الفعالية في إثراء ثقافتنا ، وتوسيع مداها وربطها بثقافات الدول المتقدمة ، وفي التعويض عن النقص النوعي في النشاطات والإنجازات الابداعية العربية ، ولا سيما في مجالات العلوم والطب والتنمية الاقتصادية . ويتناول كتاب (دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجزئين ، الجزء الأول في عام ١٩٨٥ ، (واقع الترجمة في كل من الأردن وتونس والجزائر والسودان وسوريا والعراق وليبيا) ، والجزء الثاني في عام ١٩٨٧ يشمل (السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة والبحرين

ولبنان ومصر والمغرب وشطري اليمن بالإضافة إلى الترجمة لدى أبناء فلسطين). والمقصود هنا الترجمة الثقافية والعلمية . أما الترجمة الفورية وترجمة الوثائق والمعاملات ، فليس لها سوى أهمية ضئيلة . والدراسات التي شملها الكتاب بجزئيه ، هي بأقلام كتاب عرب بارزين ذوي دراية خاصة بالترجمة ومشكلاتها . ومن هؤلاء المرحوم الدكتور عيسى الناعوري والدكتور محمود السمرة والدكتور حسام الخطيب والدكتور حنفي بن عيسى وأنطون مقدسي وشحادة خوري وغيرهم . وينتهي كل جزء من جزئي الكتاب بدراسة ختامية تحلل ما تضمنته الدراسات في ذلك الجزء من أفكار وتوجهات وأرقام ، وتخرج باستنتاجات وأحكام حول طرق مواجهة مشكلات الترجمة .

أما الدراسات الأصلية نفسها ، فإنها تلقي الأضواء بطريقة منظمة على عدة أمور أهمها أربعة عناصر أساسية :

أ ـ التشريعات الناظمة للترجمة .

ب ـ مؤسسات الترجمة .

جـ ـ المترجمون ومدارس الترجمة .

هـ ـ قراء اللغة المترجمة .

وبالنسبة للعنصر الأول ، وعلى الرغم من وجود تشريعات حديثة لحماية حقوق التأليف التي تشمل أيضا الترجمات بالإضافة إلى المؤلفات ، فإن الترجمة في الأقطار العربية ، ـ كما يشير الكتاب ـ تفتقر إلى الضوابط والنواظم القانونية . ومن الأدلة على ذلك أنه نادرا ما يقوم مترجم قبل ترجمة كتاب ما ، باستئذان مؤلفه الأصلي . وكدليل ثان فإنه يحدث أحيانا أن يقوم أحدهم ترجمة كتاب ما ، لم يتبين له فيما بعد أن غيره قد سبقه إلى ترجمته ، مما يقلل من قيمة الترجمة الثانية . ويمكننا أن نستثني من هذا الوضع الجزائر التي وجدت نفسها بعد إحرازها الاستقلال في وضع يحتم عليها سن تشريعات خاصة بالتعريب . ومن الانجازات التي تحققت في هذا المجال ، مثلا ، القانون الأساسي المتعلق بالمترجمين ، الذي يحدد واجبات المترجم وحقوقه ومؤهلاته .

الترجمة والمؤسسات

أما بخصوص العنصر الثاني (المؤسسات) فإن الترجمة ، عندما بدأت في الأقطار العربية في القرن التاسع عشر ، كان يقوم بها أفراد أو دور نشر خاصة . ولم تشرع المؤسسات الرسمية كالوزارات والجامعات في تولي مهامها في هذا المضمار إلا منذ الخمسينيات من هذا القرن .

ومن هذه المؤسسات ما يرعى قضية الترجمة والمترجمين ، ومنها ما يُعنى بنشر المطبوعات المترجمة من كتب ودوريات . ونذكر من المؤسسات التي ذكرها الكتاب ، على سبيل المثال لا الحصر ، وزارة الإعلام ، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، في الكويت ، والجامعات السبع في السعودية ، ووزارة الثقافة والإعلام في العراق ، والمركز الوطني للترجمة والمصطلحات في الجزائر ، واللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر في الأردن ، ولجنة

التأليف والترجمة والنشر في مصر العربية .. الخ .

ويبين الكتاب أن قطرا كالبحرين لا توجد فيه أي مؤسسة رسمية لرعاية الترجمة التي تشكل جهوداً مبعثرة متفرقة .

وعلى الرغم من أن معظم مؤسسات الترجمة ذات طابع قطري ، فإن بعضها كالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت يعمل على مستوى قومي ، وينشر للمترجمين العرب من شتى أرجاء الوطن العربي . ومع ذلك ، فإن هناك حاجة ماسة لمزيد من المؤسسات التي تعمل على الصعيد العربي ، وتشرف على تنظيم أعمال الترجمة في الأقطار العربية كافة . وتحاول المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، حاليا ، القيام بهذا الدور بواسطة وحدة الترجمة التي تتبع إدارة الثقافة فيها . وتضطلع الوحدة المذكورة بثلاث مهام :

أ - مراقبة نشاطات الترجمة في مختلف الأقطار العربية .

ب - الاهتمام بظاهرة الترجمة نفسها بوصفها نشاطا يحتاج إلى رعاية وتنسيق وتخطيط .

جـ - نقل الروائع الأدبية العالمية إلى اللغة العربية .

وبالنسبة للمترجمين وتأهيلهم ، يبين الكتاب أن هناك أقساما كثيرة في الأقطار العربية تقوم بتدريس وتخريج المترجمين ، ومنها على سبيل المثال ، معهد بورقيبة للغات الحية في تونس وقسم اللغات والترجمة في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض ، ووحدة الترجمة في كلية الآداب في جامعة الخرطوم ، وفرع الترجمة في جامعة الموصل ، وقسم الترجمة في الجامعة المستنصرية في العراق ، ومدرسة الترجمة في جامعة القديس يوسف في لبنان .. الخ . ولكن على الرغم من وجود هذه الأقسام وغيرها ، فإن عدد المترجمين الأكفاء قليل جدا نسبيا .

أما بشأن العنصر الرابع ، وهو القارىء ، فإن للترجمة قراءها الكثيرين حتى أن بعض القراء يفضلونها على تلك الأصيلة ، لأنها تزودهم بأحدث المستجدات في مختلف المجالات . ولكن هناك مشكلة الارتفاع المتزايد لأسعار الكتب ، الموضوعة منها والمترجمة ، وكذلك مشكلة صعوبة انتقال الكتاب من قطر إلى قطر عربي آخر ، لأسباب مختلفة سياسية وتجارية وجمركية . وقد أوردت الدراسات أسماء كتب مترجمة هامة سبق أن أصدرتها مؤسسات عربية مختلفة ، وقد أتى الكتاب بشكل خاص على نشاطات الترجمة التي تبذلها المؤسسات الكويتية ، فقد بلغ مجموع المسرحيات المترجمة وحدها التي أشرفت وزارة الإعلام الكويتية على ترجمتها فيما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٦ زهاء (٦٠٠) مسرحيات . بالإضافة إلى كتب أخرى مترجمة كثيرة . كما أتى أيضا ، على نشاطات أبناء فلسطين في الترجمة ، التي تتسم بالتنوع اللغوي ، أي النقل عن عدة لغات ، وبالتنوع المعرفي ، أي الترجمة عن فروع متباينة من المعرفة ، وكذلك بالجمع بين التعريب والتعجيم .

ملاحظات

من مزايا كتاب (دراسات حول واقع الترجمة) أنه يُعنى بدراسة قضايا الترجمة على صعيد الوطن العربي بأكمله ، لا في قطر عربي أو منطقة عربية معينة ، مما يضفي عليه طابعا شموليا إلى جانب طابعه التقاني . ومن جهة ثانية فإن الدراسات التي تضمنها الكتاب تتبع خطا منهجيا واضحا ، وطريقة علمية منظمة في البحث . وعلى الرغم من شمولية الكتاب وتناوله مجموعة واسعة من قضايا الترجمة ، فإن الفائدة منه كانت ممكنة أن تكون أعم ، لو أنه تعرض ، فيما تعرض له ، وبشكل مفصل ، إلى

عملية الترجمة نفسها، وما تنطوي عليه من تعقيدات فنية، ومصاعب وإشكالات عديدة، وكذلك إلى حقوق المترجم وما يعانيه أحيانا من حيف وسوء تقدير لعمله. ومن النقاط الهامة أن الكتاب يعدّ الكشف عن الواقع الحالي للترجمة في الأقطار العربية وسيلة هامة وخطوة أساسية لتحسين هذا الواقع وتطويره، فتشخيص مشكلات الترجمة مقدمة ومنطلق لوصف العلاج لها، بما يكفل تحقيق مصلحة الثقافة العربية التي تشكل عملية الترجمة جزءا أساسيا منها.

ففي ضوء المشكلات القائمة، يبين الكتاب، مثلا، أن هناك قبل كل شيء حاجة ماسة لوضع تشريعات فعالة لتنظيم عملية الترجمة، وتحريرها من الارتجال والعشوائية، كما أن من الضروري إصدار نشرات ببليوغرافية دورية على المستوى العربي، توثق الأعمال التي تمت ترجمتها من اللغة العربية وإليها، وذلك منعا للازدواجية في الترجمة. كما يميز المؤلفون الحاجة إلى إنشاء مؤسسات جديدة تعنى بقضية الترجمة، ويؤكدون أهمية الاستمرار في تنسيق المصطلحات وتوحيدها. ويقدم الكتاب اقتراحات أخرى كثيرة يمكن أن تسهم بشكل فعال في تطوير حركة الترجمة في الوطن العربي.

وفضلا عن كل ذلك، فإن هناك، كما يبدو لنا، خطوات أخرى لا تقل أهمية عما أورده المؤلفون، فهناك مثلا ضرورة توفير حوافز معنوية ومادية أكبر للترجمة والمترجمين، وكذلك تسهيل انتقال الكتاب المترجم بين الأقطار العربية، والتوسع في إقامة معارض الكتب العربية. ولا شك أن تحسين حركة الترجمة يجب ألا يقتصر على الكتب، بل يجب أن يتعدى ذلك إلى الصحافة أيضا، فهناك حاجة إلى إصدار مزيد من المجلات المتخصصة بالثقافة المترجمة على غرار (الثقافة العالمية) و(العلوم) و(الآداب الأجنبية) وغيرها، وحبذا، لو تقوم إحدى المؤسسات العربية أيضا بإصدار مجلة تعنى حصرا بظاهرة (الترجمة) وقضاياها، أسوة ببعض المجلات المتخصصة بظاهرة (النشر) أو ظاهرة (الإعلام)، مثلا.

وبعد، فإن الترجمة التي تشكل وسيلة عظيمة للتواصل بين الثقافات، وتشرع الأبواب أمام الاطلاع على منجزات الحضارة الحديثة، جديرة حقا بكل رعاية وتكريم، ومن حق المترجمين على جميع الأطراف الثقافية أن تتعاون لتوفير الحوافز الكافية لهم وتحسين تأهيلهم وإعدادهم. □





قتل الوقت

● أغرب ساعة ميدان في العالم تلك التي كانت توجد قبل الحرب الأخيرة في مدينة فرانكفورت الألمانية، وقد صممها مهندس ألماني مشهور، وكان فيها باب صغير ينفتح ليخرج منه فارس على صهوة جواده يعلن عن عدد الساعات بطلقات من مسدس في يده. ويعلق مصممها على ذلك قائلا: إن هذه هي أحسن طريقة «لقتل الوقت»!



مختـــارات

اسم الكتاب : المؤرخون اليمنيون
المؤلف : د . حسين بن عبدالله العمري
الناشر : دار الفكر/ دمشق
عدد الصفحات : ١٢٨ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨ .

يتناول الكاتب في كتابه دراسة عن التاريخ والمؤرخين اليمنيين في العصر الحديث ويقسم كتابه الى افكار متلاحقة ، تمثل كلا يخدم موضوع دراسته ، فيعرض للمراحل الثلاث في مدرسة التاريخ اليمنية ، متناولا كل مرحلة على حدة ، عارضا مميزاتها وأسلوبها وكتابتها وأهم الكتب التي صدرت عنها ، ونماذج من أعمال مؤرخي كل مرحلة ، وتحليلا عميقا وعلميا وافيا لها .

□□□

اسم الكتاب : ذئب البحار .
المؤلف : جاك لندن . ترجمة تميم أبو حجلة
الناشر : دار منارات الأردن .
عدد الصفحات : ٢٠٤ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

كان المثقف الشاب المرفه في رحلة بحرية عندما تعرضت « العبّارة » التي يركبها لحادث اصطدام ، وحملته الأمواج فوق قارب نجاة الى عرض المحيط ، والتقطته سفينة ، وفوق سطحها فوجيء بأنها سفينة صيد ، ذاهبة الى شواطىء اليابان ، ورفض قبطانها إعادته الى البر ، وأجبره بالقوة أن يعمل فوق السفينة التي عانت من عجز في طاقمها نتيجة لوفاة عدد من بحارتها . وعاش المثقف الشاب الذي لم يكن يحسن شيئا في الدنيا ، ولا يعرف معنى قيم الأشياء كالعمل والحرية والراحة والتعب والعبودية .

هذه التجربة الغريبة المثيرة هي موضوع الرواية التي ترجمت الى العربية أول مرة ونشرت ١٩٨٨ .

□□□

اسم الكتاب : في الشعر العبري والصهيوني المعاصر .
المؤلف : صالح العياري .
الناشر : دار طلاس/ سوريا .
عدد الصفحات : ٢٥٤ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٧ .

دراسة في الآثار الأدبية على (الشعر) الصهيوني المعاصر ، يقوم من خلالها الكاتب بتحليل مضمون أعمال عدد من الشعراء البارزين في الكيان الصهيوني وخارجه . وعلى امتداد الدراسة تتوالى النتائج التي تؤكد أن مشروعية (الآخر العربي) تسقط في معظم آثار

الأدب الصهيوني المعاصر ، فالآثار الأدبية الصهيونية تنظر الى العربي على أنه العدو اللدود الذي يجب القضاء عليه ، وعلى المستوى الفني فإن القصائد في الشعر الصهيوني تفقد قيمتها الفنية من حيث أنها هي النموذج الابداعي للشاعر المطلق ، ومستودع للقيم الجمالية لتصبح خطابا شعريا مفعما بالعداوة والدم والقتل والعنصرية .

□□□

اسم الكتاب : موت أمطار الشمس « ديوان شعر » .
المؤلف : زهور دكسن .
الناشر : دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد .
عدد الصفحات : ١٤٠ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ديوان شعري جديد للشاعرة زهور دكسن ، وهو الديوان الرابع لها ، ويضم الديوان خمسا وأربعين قصيدة . وعن الديوان وأشعاره تقول الناقدة العربية الكبيرة د . سلمى الخضراء الجيوسي : « إنها برهان على تفوق الغريزة الشعرية والحدس الفني على التنظير والمعرفة التقنية المدروسة ، وهي أشعار مرهفة وناصعة ، مدهشة ، فيها طراوة وتماسك لغوي ومغامرة خيالية .

□□□

اسم الكتاب : دفاتر الأيام . أفكار على ورق .
المؤلف : يوسف الخال .
الناشر : رياض الريس للكتب والنشر/ لندن .
عدد الصفحات : ٤٠٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧ .

أوراق وأفكار ويوميات للكاتب اللبناني الراحل يوسف الخال ، جمعتها دار الريس في كتاب واحد ، وقدمته للقراء . ويضم الكتاب بالإضافة الى بعض وجهات النظر والآراء تسجيلا يوميا من يوميات الكاتب التي سبق نشرها . والكتاب قد تتفق معه أو تختلف ، ولكنه يبقى مرجعا مهما لحركة الحداثة في الشعر العربي .

□□□

اسم الكتاب : السلطة والمجتمع والعمل السياسي (من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام) .
المؤلف : د . وجيه كوثراني .
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية .
عدد الصفحات : ٢٤٥ من القطع المتوسط .
سنة النشر : ١٩٨٨ .

يرتبط العمل السياسي بمفاهيم وأفكار ومؤسسات وديناميات داخلية وخارجية ، فهو يرتبط بالمظاهر الايديولوجي (الخطاب والعقليات) ، ويدخل من جهة أخرى في صلب البنية الاجتماعية ومؤسساتها ، وهو بذلك يرتبط بالسلطة ومراكزها ، والمجتمع ومؤسساته ، وبكل الأنساق والنزعات داخل المجتمع . وفي الكتاب يقدم الباحث دراسة معمقة لخطوط التداخل وتشكل السلطة والمجتمع والعمل السياسي في بلاد الشام إبان تاريخ الولاية العثمانية . □

■ الصحافة حبر وورق وحرية . (كليمنصو)
■ ما تجمعه الأحلام قد تفرقه اليقظة . (بروك)

مسابقة العربي الثقافية

ارفق الحل مع صفحة الكوبون

كوبون مسابقة العربي

العدد ٣٦٤

١ أي الجزر التالية يعتمد اقتصادها الوطني على تصدير الطوابع البريدية علماً بأن عاصمة الدولة المطلوبة تسمى فونافوتي ؟

× توكيلاو × توباجو وترينداد

× توفالو

٢ ريكيافيك هي عاصمة ايسلندة، ومعنى الاسم هو: «خليج الدخان»، ترى لم سميت عاصمة ايسلندة بهذا الاسم ؟

× لكثرة البخار المتصاعد من نوافير الماء الساخن.

× لكثرة الدخان المتصاعد من البراكين.

× لكثرة الدخان المتصاعد من المصانع.

٣ أي جزر في المحيط الهادي اشتهرت بملكها (توفا أهاو توبو الرابع)، وهو بدين جداً ويبلغ وزنه ١٩٤ كيلوغراماً. الأمر الذي أهله لاحتلال المرتبة الأولى من حيث الوزن بين ملوك العالم جميعاً، وذلك وفق الدراسات أو الإحصاءات التي أجرتها مؤسسة «جينس» التي تصدر كتاب «جينس» للأرقام.

× تونجا × توباجو

× توجو

٤ عدد الدول المستقلة ، كما هو معروف (١٧٠) دولة منتشرة في قارات العالم المختلفة ، ترى ما هو عدد الجمهوريات بين هذه الدول :

× حوالي ١٢٥ دولة
× حوالي ٨٥ دولة
× حوالي ٤٥ دولة

٥ أي جزيرة من جزر المحيط الهادي كانت مستقلة طوال القرن التاسع عشر إلى أن تخلت عن استقلالها بمحض إرادتها وطلبت الانضواء تحت راية دولة استعمارية كبيرة ، وذلك سنة ١٨٩٨ ؟

× تاهيتي × هايتي
× هواي

٦ عدد الولايات المتحدة في امريكا هو ٥٠ ولاية ، هل ان في الامكان ان يزداد هذا العدد حتى يصبح ٥٤ ولاية دون حاجة إلى ضم أراضي جديدة ودون الإضطرار إلى تعديل الدستور . علل ذلك ؟

٧ جزر كريسماس (أي عيد الميلاد) يتردد اسمها في الأخبار بين حين وآخر ، ترى أين تقع هذه الجزر ؟

× في المحيط الهندي
× في المحيط الهادي
× في كلا المحيطين الهندي والهادي .

٨ اسم العاصمة هو بانجول ، فما اسم الدولة ؟

× جامبيا × غينيا × غانا

٩ درجت بعض الدول على استبدال أسمائها القديمة بأسماء أخرى جديدة ، ونسمي هنا بعض تلك الدول بواحد من اسميها فما هو اسمها الآخر ؟

× جنوب غرب أفريقيا × بتسوانا
× فولتا العليا × هندوراس
× زائير × روديسيا .

١٠ ما عدد الأقطار غير المستقلة في العالم ، علما بأن عدد الدول المستقلة هو ١٧٠ دولة ؟

× عدد الأقطار غير المستقلة حوالي ١٠٠ دولة .
× حوالي ٦٠ دولة .
× حوالي ١٢٠ دولة

١١ نحن نذكر عواصم الدول . وعليك ان تذكر دول هذه العواصم ؟

× بلوبان × ناساو × تيمفو
× بارامارييو × فادوز
× أولان باتور .

١٢ أي مقاطعة أو ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، لاتزيد مساحتها على مساحة عاصمتها ، ولايتجاوز عدد سكانها عدد سكان العاصمة ؟



ديسمبر ١٩٨٨

١ - الفتاتان من عارضات الأزياء في منطقة خباروفسك في الشرق الأقصى السوفياتي ، أما النهر فهو نهر آمور الذي يفصل مع رافده إسوري بين الاتحاد السوفياتي والصين .

٢ - مرض باركنسون هو المرض الذي يعاني منه محمد علي كلاي ، ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى الطبيب الانكليزي الذي اكتشفه سنة ١٨١٧ ، وهو جيمس باركنسون ، وهذا المرض شائع بين الشيوخ والمسنين . وقد نجح الأطباء في معالجة هذا المرض في الفترة الأخيرة .

٣ - منذ مطلع السبعينات والصين تنتهج سياسة المولود الواحد للأسرة الواحدة ، وذلك بقصد تحديد النسل ، على أنها لا تفرض هذه السياسة فرضا بقانون ، ولكنها تعمل على الأخذ بها بالتوعية أو الحوافز ، والهدف هو ألا يتجاوز عدد سكان الصين ١٢٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن العشرين .

٤ - دشن مسجد سيول عام ١٩٧٦ . ويبلغ عدد المسلمين في كوريا الجنوبية (٣١٠٠٠) نسمة ، منهم (١٨١٠٠) نسمة يسكنون سيول العاصمة .

٥ - مصنع الحديد والصلب الذي يظهر في الصورة يوجد في قطر ، في مدينة أم سعيد ، وشركة (قاسكو) هي التي تملك هذا المصنع بالاتفاق بين دولة قطر وبين شركة كوبي ستيل ، وشركة طوكيو بوكي والشركتان باليابان ، تملك الأولى ٢٠٪ والثانية ١٠٪ من الأسهم . أما إنتاج المصنع فيبلغ نحو نصف مليون طن في العام ، وعدد عماله يبلغ ١٩٠٠ عامل .

٦ - إنه الاستاد الأولمبي الكبير في مدينة سيول عاصمة كوريا الجنوبية . وقد أقيم خصيصا لكي تقام فيه الألعاب الأولمبية لعام ١٩٨٨ . وتتسع مدرجات هذا الاستاد لمائة ألف متفرج . والملفت للنظر أن هذه المدرجات تتحرك الكترونيا ، وتتداخل بعضها ببعض لتختفي تماما ، وكأن شيئا لم يكن ، وذلك في غضون نصف ساعة .

٧ - الرقصة الدائرية ترمز إلى وجود غذاء قريب ، والرقصة الأخرى ترمز إلى وجود غذاء بعيد .

٨ - إنه مصنع الآلات والمصابيح ، يوجد في مدينة خباروفسك في الاتحاد السوفياتي ، المدينة الغنية بثرواتها المعدنية التي يصل إليها النفط بخطوط

١ الأنابيب الممتدة من حقول النفط وآباره في جزيرة سخالين . لقد أسس هذا المصنع سنة ١٩٥١ ، وقفز عدد عماله من ١٥٠ عاملا ومهندسا في مطلع الخمسينات إلى ١٥٠٠ في الوقت الحاضر .

٩ تمثل الصورة ككل ظاهرة الموصلات الكهربائية الفائقة التوصيل ، ويمثل الجسم المرتفع في الجو ظاهرة ميزنر في التنافر المغناطيسي للموصلات الفائقة التوصيل . والجدير بالذكر أن العلماء اكتشفوا في السنتين الأخيرتين بعض المواد التي تتميز بخاصية التوصيل الكهربائي المثالي دون الحاجة إلى تبريد يهبط بحرارة تلك المواد إلى ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر . ويجمع الكثيرون على أن هذا الاكتشاف هو بمثابة ثورة صناعية ثانية .

١٠ الرجل الذي يظهر في الصورة هو الكاتب الروسي انطون تشيكوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) ، وقد تخصص في كتابة القصص عامة والمسرحيات بخاصة ونبغ فيها .

١١ قائل البيت هو أبو الحسن عبدالكريم الأنصاري . ومعنى البيت واضح ، فالمقصود مدح « البادهنج » ، أي مكيف الهواء الذي اخترعه العرب وأقبلوا على استعماله أيام العباسيين .

١٢ إنه مبنى سوق مركزي في الشارقة ، يسمى سوق المجرة ، ويعد هذا السوق السوق الثاني في مدينة الشارقة ، أما سوقها الأول فهو سوق الشارقة المركزي الذي بلغت تكاليف إنشائه ٢٢ مليون دولار .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨









لم يكن يخطر ببال أحد أن يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه الآلة موضع خبرة الإنسان وحسده ، لأن هذا هو ما حدث بالفعل في بطولة العالم الثامنة للشطرنج الآلي المنزلي المقامة في أسبانيا في مطلع شهر أكتوبر الماضي ، فقد لعبت هذه الآلات الصغيرة بمهارة فائقة ، جعلت الجماهير الغفيرة من المتفرجين المهتمين بهذا الضرب من الصراع الفكري بين عباقرة الشطرنج الآلي تراقب ما يجري مشدوهة وهي لا تصدق ما ترى أعينها من روائع التخطيط ودقة التنفيذ ، فقد حفلت هذه البطولة بالأدوار الجيدة المليئة بالمناورات المبهمة والتخطيط العميق والفقلات « التكتيكية » الفائقة الدقة التي يعجز عنها حتى كبار اللاعبين من بني البشر . والواقع أن برامج الشطرنج الآلي الحديثة تستطيع أن تهزم جميع اللاعبين من بني الإنسان ، عدا الصفوة المتميزة منهم ، ولن تأفل شمس هذا القرن حتى ينضم هؤلاء إلى صفوف المهزومين .

وهذا التقدم الهائل في ميدان البرمجة الآلية بغض النظر عما يقدمه من متعة وتسلية يمثل فرعاً هاماً جداً من فروع علم الحاسوب الذي يعرف بالذكاء الصناعي ، والذي تتسع آفاقه يوماً بعد يوم ، وبخاصة في ميدان الشطرنج الآلي ، وقد بدأ العنصر الإنساني يظهر بجلاء في برامج الشطرنج الحديثة ، فالبرنامج الذي فاز بأفضل الأدوار ، وهو البرنامج الأمريكي فيديليتي ، ليس هو الفائز في البطولة ، بل البرنامج الألماني الغربي مفيستو ، وهو أمر تتميز به كثير من المباريات الكبرى بين بني الإنسان .

وإليكم أحد الأدوار المثيرة من هذه البطولة :

□ فيديليتي ١	■ مفيستو ٢
١) هـ ٤	جـ ٦
٢) د ٤	د ٥
٣) هـ × د ٥	جـ × د ٥
٤) جـ ٤	ح - و ٦
٥) ح - جـ ٣	هـ ٦
٦) ح - و ٣	ف - هـ ٧
٧) جـ × د ٥	ح × د ٥
٨) ف - د ٣	ح - ب ٤
٩) ف - هـ ٤	ت (قصير)
١٠) ت (قصير)	ح ٨ - جـ ٦
١١) ر - هـ ١	و - د ٦
١٢) ح - ب ٥	و - د ٨
١٣) ف - و ٤	أ ٦
١٤) ح - جـ ٧	ر - أ ٧
١٥) د ٥	هـ × د ٥
١٦) ح × د ٥	ح × د ٥
١٧) و × د ٥	ف - هـ ٦
١٨) و - هـ ٥	ز ٦
١٩) و - هـ ٦	و - جـ ٨

وابتداء من النقلة التالية يطلق الأبيض حرباً « تكتيكية » بعيدة المدى (انظر الشكل) .

٢٠) ف - هـ ٣	ر - آ ٨
٢١) ف × جـ ٦	و × جـ ٦
٢٢) ف - د ٤	و ٦
٢٣) ر×هـ ٦ !(رائعة)	و - د ٧

لو أخذ بالوزير لمات في نقلتين .

٢٤) ح - ز ٥ !	ف - ب ٤
٢٥) ف × و ٦	ر أ - هـ ٨
٢٦) ر × هـ ٨	ر × هـ ٨
٢٧) و - هـ ٤	آ ٥
٢٨) آ ٣	ف - د ٢
٢٩) ح - هـ ٤	و - د ٣
٣٠) ح × د ٢	و × د ٢
٣١) و - جـ ٤ +	م - و ٨
٣٢) ف - جـ ٣	و - د ٨
٣٣) ر - ب ١	ب ٦
٣٤) ب ٤	آ ٤
٣٥) ب ٥	و - د ٧
٣٦) و - و ٤ +	و - و ٧
٣٧) و - د ٤	حـ ٥
٣٨) ر - ب ٤	ر - جـ ٨

وترفع الأسود بعدها الراية البيضاء .

□□□



الفائزون بإشتراك سنة كاملة :

١ ـ أحمد عبد الرحمن ـ أسيوط / مصر .
٢ ـ كامل المتناوي ـ حلب / سوريا .
٣ ـ عبد الهادي البيانوني ـ المدينة / السعودية .
٤ ـ دينا محمد هاشم ـ العمرية / الكويت .
٥ ـ أحمد عبد الصباحي ـ صنعاء / اليمن .

الفائزون بإشتراك ستة أشهر :

١ ـ محمد بن سالم سارب ـ الظاهرة / سلطنة عمان .
٢ ـ عبد الله محسن باعلوي ـ أبو ظبي / الامارات العربية المتحدة .
٣ ـ توفيق صالح بارباع ـ المكلا / جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .
٤ ـ محمد برجين ـ صفاقس / تونس .
٥ ـ محمد شهاب عياد ـ دمياط / مصر .

حل مسألة

١) ر - حـ ٣ ب - ب ٣ مضطراً ٢) ر - حـ ١ ب × ر مضطراً ٣) و × حـ ١ (مات)



العربي - ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي 13008 الكويت



● تعد قضية تنمية الثقافة العربية من القضايا المهمة المطروحة على الساحة بين الأوساط الثقافية ، وهي مسئولية مشتركة بين وزارات الثقافة والإعلام ودور النشر في وطننا العربي ، وإن تفاوتت المسئوليات ، واختلفت الأدوار ، بحيث يؤدي كل دوره بما يتناسب مع إمكاناته .

وبقدر ما تتكامل الأدوار التي تقدمها المجلات الثقافية في وطننا العربي ، ومنها مجلتنا الغراء (العربي) ، نضمن نموا حقيقيا من الوعي الثقافي لشباب أمتنا العربية ، وفهم للماضي والحاضر ثقافيا ، والتطلع للمستقبل ، والتنبؤ به لوضع رؤية ثقافية .

فالتنبؤ الدقيق بمستقبلنا الثقافي أمر صعب ، بالغ الأهمية ، مما يتطلب تنمية عقلية وذهنية لها القدرة على مواجهة المستقبل .

إن أهم معضلة تواجهنا انتشار الأمية بين أبناء الوطن العربي ، مما يوجب وضع برنامج متكامل ، وزمني ، لمحو الأمية ، تتبناه الجامعة العربية عبر مؤسساتها التربوية ، وأن توضع ضوابط لتشجيع محو الأمية ، علينا جميعا أن نتحرك كعرب ، وكل من موقعه ، لتطوير ثقافتنا العربية . وأنتم في « العربي » تساهمون بقدر كبير في خلق جو ثقافي وعلمي أتمنى ألا يعلو البقية حذوكم .

القارىء : يحيى السيد النجار
دمياط - جمهورية مصر العربية

□■□

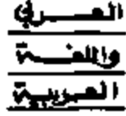
الفلسفة والطفل في الوطن العربي

● طالعت في العدد ٣٥٨ (سبتمبر) ١٩٨٨ مقالا عن « الفلسفة والطفل » ، للكاتب زياد الحباني ، والمقال على درجة كبيرا من الأهمية . وأود أن أبدي وجهة نظر في موضوع تدريس الفلسفة للطفل العربي ، فتعليم أطفالنا مبادىء الفلسفة ليس شيئا عاديا ، وليس ظاهرة طبيعية ، نحن نعلم أن الفلسفة تبدأ من السؤال ، فماذا لو قلنا : ما الدافع الذي يجعلنا ندرس الفلسفة لأطفالنا الصغار ؟ وماذا سيكون مركزهم وتأثيرهم على مستقبل الوطن العربي ؟ كل هذا يطرح علينا سؤالا مهما : هل في مثل هذه الدراسات فائدة مرجوة تعود على أطفالنا . ثم أننا فقط نعلمهم الحكمة والعلم

الحديث ، وكل ما يرتبط به من قيم ومبادىء ، والعلاقة التي تربط العلم الحديث بالفلسفة القديمة أو الحديثة ؟ وهكذا كلما انتهينا من الإجابة عن سؤال ، يطرح علينا سؤال أصعب وأعم . إلى أعزائي القراء الأعزاء كي يكون هناك حوار حول هذا الموضوع الذي أعتقد أنه مهم جدا لبنية المجتمع العربي في القريب العاجل . أتمنى أن أقرأ في المجلة أكثر عن هذا الموضوع .

حسن ابراهيم الدسوقي
محافظة المنيا / جمهورية مصر العربية

□■□



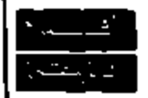
الأستاذ الدكتور رئيس التحرير :

● بحكم حبي للغة العربية وتدريسها فإني أكتب إليكم في المجلة كي أحس بالفخر الكبير في ميدان اللغة العربية ، ولا أجد مساعدا لي غير « العربي » ، إني أعدكم قاموس العرب ، ولذا أتيت إليكم وكلي ثقة وإيمان بأنني طرقت الباب الصحيح .

علاقتي مع العرب محدودة ، تنحصر في محيط الجامعة ، لذا فإنني أتقدم إليكم بطلب زيادة كمية الثقافة التي تهتم بجمال اللغة العربية وطرق المحافظة عليها .

القارئة : صفية لونيسي
جسر قسنطينة - الجزائر

□■□



● اشتهر أهل الصين باعتقادهم أن صغر الأقدام شرط من شروط الجمال ، وبحرصهم على أن تظل أقدام بناتهم صغيرة على الرغم من نمو البنات . ترى كيف تمكنوا من الإبقاء على أقدامهم صغيرة ؟

القارىء : خليل مرعي
دير الزور - سوريا

الصين

ـ نعم لقد اشتهر أهل الصين بحبهم الأقدام الصغيرة ، أو أقدام الزينة كما سموها ، ولقد تمكنوا من وقف نمو أقدام البنات عند حد لا يتجاوزه ، وذلك بواسطة قوالب صلبة ، تلبسها البنات في أقدامهن سنوات طويلة . بيد أن هذا التقليد الذي ظهر في الصين في القرن التاسع الميلادي قد أبطله أهل الصين في أواسط القرن العشرين ، فانمحت أقدام الزينة ، وحلت محلها الأقدام الطبيعية .

ولو عدت إلى العدد ٣٥٩ من العربي ، الاستطلاع المنشور عن الصين ، لستجد النص التالي في حوار مع أم عجوز ظلت بقدمين صغيرتين : « لقد كانوا إبان عهد الرعب يضعون أقدامنا ونحن أطفال داخل أحذية حديدية ، حتى تظل صغيرة جدا . لقد كانوا يعتقدون أن ذلك أحد مظاهر الجمال ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يقصدون أن تعجز المرأة عن السير الطبيعي على قدمين قادرتين على حمل جسدها حتى في الطرقات ، وتظل حبيسة جدران الدار ، تعمل وتشقى كخادمة في خدمة السادة طوال الليل والنهار » .

□■□



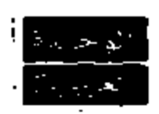
آثار ميخائيل نعيمة في تونس



● لقد تناول التهامي موضوعا يتعلق بخلود أديب المهجر ميخائيل نعيمة في العدد ٣٥٨ سبتمبر ١٩٨٨ ، فهو لم يكن أديبا فحسب ، وإنما فيلسوفا ومفكرا وأديبا ، له طابعه المميز ، وفكره الخاص ، متحررا من كل القيود ، صادقا في تعبيره ، فصيحا وبليغا في أقواله ، فصور الواقع العربي من ناحية الأدب الجمالي ، وحدد منهج المؤلف في النقد من خلال « الغربال » الذي يباركه المجددون أصحاب مدرسة الديوان .

ولميخائيل نعيمة حظوة في تونس أيضا ، حيث تدرس أعماله في برامج التعليم العام فيها ، وتملأ أعماله المكتبات . شكرا لكم في المجلة على طرح مثل هذه الدراسات . وآمل أن تزداد ، لكي يحظى كل أديب الدرجة والمرتبة التي يستحقها .

القارئ : بشير جلول المسروقي
حي ابن سينا / الجمهورية التونسية





الأستاذ الدكتور رئيس التحرير :

● اطلعت على مقالة الدكتور « محمد جابر الأنصاري » (الوحدة الطبيعية) في العدد (٣٥٧) شهر أغسطس ١٩٨٨ ، وقد جاء في جزء منه أن غياب الوحدة الجغرافية كان عاملا أساسيا في قصم عرى الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ » ، وإنني لنختلف مع الكاتب ، حيث في رأيي أن وجود الانفصال الجغرافي بين سوريا ومصر ما كان عاملا أساسيا في كارثة الانفصال ، ولو أخذنا بالاعتبار التفسير الذي أورده الدكتور الأنصاري فما تفسيرنا لاستمراريتها من عام ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ ؟ ومن جهة أخرى فلقد شهدت الساحة العربية في الوقت نفسه الحالات التي المصير نفسه ولم تستمر على الرغم من توافر عامل الوحدة الجغرافية .

القارىء : طارق اللوتس
حمص - سوريا

□■□

● القارىء : يوسف أسعد ، من حلب ، سوريا ، بعث يقول :
« لقد قرأت في « العربي » العديد من الأقوال المأثورة للكاتب « أوسكار وايلد » ، وقد أعجبني حتى أنني أحببت الكاتب دون أن أعرف عن أدبه أي شيء . فحبذا لو كتبتم مقالا يتضمن الحديث عنه وأدبه »

● القارىء : ممدوح مطاوي ، من مركز التدريب المهني بسوريا ، يقول في رسالة للمجلة : إنه بالأمس فرحنا بنبأ نعتز به جميعا ، وهو فوز الأديب العربي « نجيب محفوظ » بجائزة نوبل للآداب ، وهي جائزة نفخر بها نحن العرب جميعا .

● القارىء : الطالبي يوسف ، من مكناس ، المملكة المغربية ، يقترح إدخال بعض التعديلات على باب « وجها لوجه » ، وإعطاء القارىء فرصة كتابة الكلمات المتقاطعة ، وأن تقدم للمجلة هدية العدد للممتاز صورا لمشاهير العالم .

● القارىء : مصطفى محمد ، من طرابلس بلبنان ، يثني على المجلة ، ويطلب زيادة الكمية المرسلة إلى لبنان ، لأنه يواجه صعوبة في الحصول على بعض الأعداد أو تأخر في الذهاب إلى الموزع .

● القارىء : حاتم محمد سراج الدين حسن ، من كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية ، بعث رسالة يقول فيها : إنه يشكر كل من يسهم في إخراج

عزيزتي مجلة العربي

المجلة في الصورة التي هي عليها ، كاحدى أهم المطبوعات التي تساهم في نشر الثقافة والمعرفة بين أبناء الوطن العربي على اختلاف مستوياتهم العلمية ، ويقترح تخصيص بعض الصفحات لتعليم الحاسوب « الكمبيوتر » ، وكيفية البرمجة والالكترونيات ، وان مجلة العربي شاملة وليس هناك مانع من أن توجد مثل هذه الصفحات .

● القارىء : سعيد جاسم السامرائي ، من سامراء بالجمهورية العراقية ، يرجو أن تقوم المجلة بعمل استطلاع عن مدينة سامراء ، إحدى أهم مدن الجمهورية العراقية ، وذلك لما جرى فيها من تطور عمراني وصناعي .

● القارىء : محمد مصطفى أحمد ، من محافظة البحر الأحمر ، رأس غارب ، بجمهورية مصر العربية ، يتساءل عن اختفاء بعض الأبواب ، مثل (حكايات من شرق وغرب) ، وباب (حضارات سادت ثم بادت) ، كما يقترح إضافة بعض الأبواب .

● القارىء : حليمي العربي/ الرشيدية/المملكة المغربية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن إقليم الرشيدية في الجنوب الشرقي من المملكة المغربية .

● القارىء : هشام محمود شوقة بعث برسالة يقول فيها : إن مجلة العربي فخر لكل قارىء للعربية ، وانتظر أعدادها بشوق ولهفة مطلع كل شهر ، لعل صفحاتها تحمل أجمل صور المعرفة والثقافة ، ويأمل أن تتوجه العربي إلى القيام باستطلاعات عن الجزر ، لما فيها من غرائب وعجائب تستوقفنا للتأمل والتفكير ، ومثال هذه الجزر « جزر مالديف ، ونيكوبار ، وجزر اندمان » وجميع هذه الجزر في آسيا ، كما يقترح أن تجمع مقالات الدكتور محمد الرميحي في « حديث الشهر » وتنشر في كتاب العربي ، فهي جديرة بأن تحفظ وتجمع .

● القارىء : شعيب عز الدين ، من حي الشيخ طاهر بالجزائر ، يقترح أن تقوم المجلة بعمل استفتاء فيما يخص أبواب المجلة ، كالذي قامت به المجلة في العدد (١٧١) فبراير ١٩٧٣ . □



الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالإضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع العامة .

والمطلوب منك الإجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ - نهر عظيم يخترق أكثر من عشر ولايات أمريكية ويصب في خليج المكسيك .
٢ - طريق ، من أسماء الرسول الأعظم ، تكرر .
٣ - نهر يخترق جنوب أوربا ويصب في البحر الأسود ، مخترع الهاتف .
٤ - الجامعات ، عاصمة عربية غير مرتبة .
٥ - نسله أو أولاده ، تجدها في عاد .
٦ - أكمل ، نهر عربي عظيم .
٧ - كرسي مبعثرة ، عكس حقيقة .
٨ - قارب طويل ضيق يستخدم في قنوات مدينة البندقية .
٩ - تمزق وتشق ، منسوب إلى إحدى الجهات الأربع .
١٠ - نهر أفريقي يصب في المحيط الهندي .

كلمات عمودية :

١ - نهر يجري في أمريكا الشمالية ويصب في المحيط الأطلسي ، تجدها في نهر .
٢ - يظهر ليلاً ، نهر ينبع في تركيا ويجري في بلدين عربيين شقيقين .
٣ - مثل ، هلاك مبعثرة .
٤ - نهر يجري في شمال الهند يتمتع بالقدسية لدى الهندوس .
٥ - يصدر طنيناً ، الجزء المكمل من الأصل .
٦ - أراضٍ مستوية ممهدة ، يظهرن النعم مبعثرة .
٧ - نهر معروف بأشجار الحور يخترق مدينة دمشق ، تجدها في وجوب .
٨ - عكسها بحر ، شبيه بالقارب .
٩ - نبع ، زي معكوسة .
١٠ - نهر يخترق مدينة لندن .

● حل مسابقة العدد الماضي - فبراير ١٩٨٩ م

من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الاعلام - الكويت

العدد ٢٣٤ أول مارس ١٩٨٩

فاوست - ٣

تأليف : جيته

ترجمة وتقديم : د. عبدالرحمن بدوي

الجزء الثالث

النقد المسرحي - ٢

